# بهجر في المهجر




## جورج البهجوري

# بهجر في المهجر

جورج البهجوري

**محتويات الكتاب**

## مقدمة

### ضرب المعلما تلميذون

هكذا نطقت الجملة في السنة الابتدائية الثانية فنالني من أستاذ اللغة العربية" قلما" بأربعة أصابع على الخد الأيسر بقي ثلاثة أسابيع علامات حمراء لم تمحها الأيام ولا الزمن حتى اليوم.

كان عمري ستة أعوام ولم أشعر أبدا أني أخطأت حتى الآن عندما تجاوزت الخمسين من العمر.

لا زلت غير معترف بخطأي. أردت أن أدافع عن المفعول به" المسكين" فرفعته ونصبت الفاعل لأنه" معتدٍ" وظالم وربما مجرم أو سارق." حتى المستثنى بإلا عطفت عليه فرفعته أيضا".

لذلك عندما أنهيت مرحلة التحصيل الابتدائية والثانوية بصعوبة قررت أن أتقن لغة أخرى اسمها( لغة الشكل) فدخلت كلية الفنون الجميلة بدلاً من أية كلية أخرى.

وعشت بقية العمر حتى اليوم أتكلم هذه اللغة في المجلات والصحف والكتب وفي الحياة اليومية مع الأصدقاء

والأقارب والأحباء. رسائلي رسوم وعواطفي خطوط بالحبر أو ريشة باللون.

الآن فقط أعود إلى اللغة الأصلية وهي ليست تابعة لما تعلمته من الأصول والقواعد وقوانين اللغة ولكني قمت بجولة في ترجمة رسومي إلى كلمات فكانت هذه" البهجرات" فـي" المهجرات" حيث شربت باريس حتى الثمالة فرسمتها كشجرة يابسة على نهر السين ورقة ورقة ثم تساقطت جميعهـا مـع الخريف وذابت رسومي في مياه السين ولذلك بحثت عن قلم لا يرسم ولكنه يكتب.

أعترف في فترة السنوات الطويلة الماضية ما بين هذا الحادث الأول مع أستاذ اللغة العربية في فصل ثاني ابتـدائي إلى اليوم أني لم أقرأ حرفا واحدا رغم محاولاتي العديـدة... كل ثقافتي اكتسبتها من مجالستي وصحبتي لأهل الكلمة مـن الصحافة إلى الأدب، إلى الرواية، إلى الشعر، إلى الموسيقى، إلى اللون، إلى الكلمة الموزونة والجملة البليغة.

أعترف بأني كذبت على أصدقائي أصحاب العمر الذين أصبحوا من كبار الكتاب والنقاد والشعراء والصحفيين( كذبة بيضاء) بأني قرأت كتبهم ورواياتهم ودواوينهم التي أهـدوها

إلي. لكني كنت أرسم وهم يتناقشـون أو يتضـاحكون فـي مغزى أدبي أو في معركة نقدية كنت أتسال وسطهم كالمـاء لأمر بين خلايا عقولهم وأفكارهم فعرفت مـثلهم. تـابعتهم واحدا واحدا، عرفتهم حتى النخاع والعظم فأصبحت رسـاما يعرف. استمعت بالمعرفة وأنا أرسمهم.

هؤلاء المثقفون زملاء جيلي الذين أهدوني المعرفة ولم أقرأ كتبهم لا يعرفون قراءة أية لوحة( لغة الشكل)... أنهـم يخطئونه عشرات الأخطاء أثناء القراءة وهو خطأ لا يوازي خطأي الطفولي، أثناء السنة الثانية الابتدائية. إنهم يصـيحون أمام لوحة بها لون أحمر مثلاً. يقولون أنه لون الثورة والدم. عندما يرون الأزرق يقولون الصفاء السماء الرحمة. الأصفر الكراهية والموت. أما البنفسجي فهو لون الغيرة! ها ها.

إليهم أهدي هذه البهجرات لعلهم يقتنعون بقلمي الـذي يرسم أو ريشتى التي تكتب.

**جورج بهجوري**

## هواية سخيفة اسمها التأمل في أنفاق" المترو"

شرقي أنا، حالم. هائم. في بلاد الغربـة وسـط أهـل الفرنجة. أبحث عن عمل ومسكن وخبز وحب.

أسير بطيئًا وهم مسرعون. أفكر أكثر مـنهم. أتأمـل كثيرا. أنبهر أحيانًا بالحضارة الجديدة، ثم أتقزز حتى الغثيان أحيانا أخرى.

في بعض الأوقات أشعر كأني أولد من جديد، لكن غالبا ما أسير وكأني ممثل ناشئ في فيلم سخيف.

شرقي أنا وصلت من صعيد مصر. صبغتني الشـمس البرتقالية فأصبحت قمحيا أميل إلى لون البرونـز. شـعري أسود كثيف أشعث وأبدو كشجرة متوحشة مخصبة بـالفروع والأوراق، أتلعثم عندما أتحدث لغة أهل الفرنجة هنا. فهـي ليست لغتي وقد أخذتها عنهم بطريقتي، فعرفت كيف أعبـر عن نفسي من خلال ما أملك من كلمات فقط. أما الأفعال فلا أستعملها كثيرا. إنها معقدة منها الماضي والحاضـر ومنهـا المستقبل، والأمر والغائب والمذكر والمؤنث وما إلى ذلك... أتكلم كما الهنود واليابانيون وأهل الجزر بالأسماء مـن دون أفعال. يفهمونني على أي حال لكنهم يطلبـون منـي إعـادة

الكلام أكثر من مرة.. أحيانا ثلاث أو أربع مرات، وفي كـل مرة أنطق بأسوإ من المرة السابقة. أشعر بالخجل وأكاد أفقد الثقة بنفسي، فأقول الكلمات أخيرا في غيظ شديد.

وأحيانا أشعر بأن الفرنسي. يفهم ما أقول من أول مرة، لكنه يسأل( ماذا؟) بإلحاح لأنه يرفض أن ينطق الأجنبي لغته بنطق غير سليم.

لذلك أقولها أخيرا وأنا مغتاظ لأني أشعر فـي الوقـت نفسه بأنه يعاقبني. تماما كما في المدرسة الابتدائيـة عنـدما يطلب الأستاذ إعادة الكلام عشر مرات لأن التلميـذ أخطـأ. وأغتاظ مرة لأننا في بلادنا كنا نسمع لغتنا العربية مهانة من كل جنس ولون. هذا اليوناني الذي يعيش في مصر يقـول" جبيبتي ايه الحكاية؟ انتي زعلان؟" وكنا نرحب بهم وما زلنا نضحك معهم لا لهم ونحاول تقليدهم، و كنا نغيـر بعـض الحروف الصعبة التي لا يستطيعون النطق بها كنـوع مـن الكرم العربي أو المجاملة. قلت لنفسي وأنا أعيش في بـلاد الفرنجة: لابد أن أتأقلم. سأرتدى ملابس" الجينـز" الزرقـاء المهلهلة في أناقة.... الممزقة في كبرياء، كبرياء الموضـة، وسأضع على رأسي قبعتهم... على طريقتي، سأشرب نبيذهم

وأدخن سيجارتهم وأستمتع بأصناف جبنهم وأقزقز" فـريتهم" أي قطع البطاطس الصغيرة المقلاة في الزيت.

سأهبط سلالم المترو تحت الأرض. سأهبطها وأصعدها في كل يوم عشرات المرات. سأتوه وأضـيع فـي دهـاليزه المتخمة بالهواء المخنوق.

سأقرأ أسماء محطاتهم وأحفظهـا عـن ظهـر قلـب، سأعرف كيف يتم تغيير المحطة في" الشاتليه" أو" الكونكورد" أو" الموت بيكيه"... لكن لن أتزاحم والآخرين علـى بـاب القطار كما كنت أفعل في القاهرة. لن" أتشعبط" على سـقف أوتوبيس أو أدهس قدما مجاورة. سأتخذ لنفسي مقعدا خاليـا لأجلس عليه، أو ركنا خاليا لأقف فيـه. لـو لمسـت أحـدا بالمصادفة سأقول له" بردون" – أي عفوا – كمـا سـمعتهم يرددون. هذه أول مرة أشعر فيها بقيمة اللمسـة والاعتـذار عنها لأننا في بلادنا نتزاحم في المواصلات ونتحول جميعـا إلى كتلة بشرية واحدة، حتى ينعدم تماما ذلك الشعور باللمس لكني هنا أستعيده من جديد... وأعتذر عنه أيضا.

وأعود إلى هوايتي: التأمل. الآن وقد جلست على مقعد في قطار" المترو" تحت الأرض واعتذرت في طريقي أكثـر

من مرة حين ألمس أحدا، سرحت قليلاً... وبدأت أتأمل هـذه الوجوه الباريسية حولي والوجوه الأخرى من العالم الثالـث مثلي وكذلك من السياح الأجانب. قرأت رقما على جبين كل راكب أو راكبة وهو الحـادي عشـر بعـد المائـة بلغـة الأرقام( ١١١) تلك خطوط عمودية ثلاثة بين الحاجبين! وهو التعبير الشعبي عندنا عن الغضب:" مالك كده عامـل ميـه وحداشر"؟ واعتقدت في بادئ الأمر بـأن ركـاب المتـرو غاضبون مني شخصيا، حتى أني فكرت في تـرك مقعـدي لأعتذر منهم واحدا واحدا مرة أخرى، فلربما أخطـأت فـي تقاليد الجلوس في عربة" المترو" أو ربمـا أن وجهـي لـم يعجبهم بملامحي الجديدة عليهم أو بملابسـي الفوضـوية أو حقيبتى المليئة بالأوراق. وبنظرة سريعة حول نفسي لم أجـد شيئًا من ذلك قد يثير الركاب للغضب بهذا الشكل .لكن رحت أتابع خريطة المحطات فوق المقعد لأطمئن إلى أننـي فـي الطريق الصحيح، وعندما وصلت إلي محطتي نظرت إلـيهم من جديد وقلت لنفسي: ها أنذا أنصـرف .ربمـا الآن قـد استراحوا مني فيبتسمون . لكن شيئًا من هذا لم يحدث.

لقد أصبحت أركب المترو كل يوم، وعرفت أن أهـل باريس يكرهونه، ولذلك هم فـي غضـب( وعلـيهم ميـه وحداشر).

وأعود إلى هوايتي السخيفة لمتابعة وجوه الركاب مـن جديد، فأكتشف أن بعض العيون تطردني. كانت فتاة جميلـة تجلس أمامي عندما رحت أتطلع إليها فـي بسـاطة دون أي غرض آخر، عندما أزاحت وجهها بحركة عصبية سـريعة لتنظر إلى النافذة أو إلي شيء آخر. والمشكلة هنا أن النافذة أمامها جدار وظلام، فالنور في المحطات فقط... وهـي لا شك كانت تنتظر أنوار المحطة التالية.

ولم أصدق أن العين تستطيع أن تطرد أو تنفـر مـن شخص أو من عين آخر. ولم أصدق في بادئ الأمر سـوء النية المسبق دائما في كل نظرة إلـى أي فتـاة صـغيرة أم كبيرة، وتذكرت في بلادي أن العيون تتلاقـى وأنهـا لغـة مستمرة مفتاح الروح... وإذا ما رفضت العربية نظرتك ففي دلال وخجل شديدين. ولكنها لا تطردك بفكرة مسـبقة كمـا تفعل الأوروبية هنا. الشرقية حتى لو رفضت نظرتك تنظـر في حياء إلى الأرض وتتركك تتأملها دون أن تـرد النظـرة

إليك وكأنها في بلادي تبتسم وقد اطمأنـت بعـض الشـيء. فيتحرك حاجبها في تعجب وتخفي نصف ابتسـامة وتطـرق إلى الأرض، وكأنها تقول لك في دلال" يا سم". إنهـا لـن تصل إلى حد القسوة والعصبية ورمي النظرة كما تفعل هنـا جارتي الفرنسية في عربة قطار المترو... داخل الانفاق.

أبحث عن عمل ومسكن وحب وخبز. أما الملبس فـلا أبحث عنه فقد أحضرت معي بنطلونين وفانلتين وقميصـين وحذاء، أي كفايتي لهذا الموسم بأكمله، ولا بأس من تشـجيع المنتجات الوطنية. أما العمل فمعي مفكرة صـغيرة تحمـل عناوين أصدقاء من بلـدنا يعملـون فـي مطـاعم البيتـزا والكوسكوس و" السلف سرفيس". أما المسكن فقد استضافني صديق فرنسي مع صديقته التقيت بهمـا ذات مسـاء حـول كرنك الأقصر وساعدتهما في الإقامة والسياحة. يردان لـي الخدمة بالإضافة إلى الصداقة الجديدة، وهمـا لا يسـتطيعان استضافتي مدة طويلة لضيق المكان وأحوالهما المادية ليست على ما يرام فهما يعملان في الصـيف فـي الحقـول مـع الفلاحين يجمعان العنب للنبيذ، وفي الشتاء يتابعان دراستهما في السوربون.

أما الحب فهذه أول مرة أرى الفتاة الشقراء ذات البشرة البيضاء بلون اللبن الحليب أو الوردية بلون نبيذهم الأحمـر، أو كخد التفاحة. أما بقية ملامحها فهي صدمة كبيرة لي لـم أكن أتوقعها. إنها تلبس الجينز الأزرق المائل إلى الرمـادي، وقد تعمدت أن ترقعه وأن تمسح به كل شيء من رصـيف الشارع إلى سور نهر السين، فيبدو في نهاية الأمر مهلهـلاً قذرا مرقعا. لكن دائما كنت أثقب بنظراتي القمـاش الأزرق، وكأنني أرى بشرتها الوردية وخطـوط جسـدها ورشـاقة قوامها... وثمة شعور بأنها تتعمد ذلك حتى تخفي محاسنها، إن البنطلون" الجينز" الممزق على جسد فتاة باريسية جميلـة هو بمثابة" الملاية" اللاف عندنا، إنه العباءة غير المقنعة، هـو السحر لإظهار المفاتن وهو في الوقت نفسه القناع لإخفائها.

إلا أن الحركة السريعة والحذاء الأسود برقبته القويـة، كأنه من الحديد يجعلني أخافها، فهي تبدو كالجندي الألمـاني في الحرب العالمية الثانية. وهي تقفـز فـوق" موتوسـيكل" وتضع الطاسة الملونة فوق رأسها فتبـدو وكأنهـا مخلوقـة غريبة من عالم الفضاء أو من كوكب آخر.

هذا هو انطباع أول وهلة وأنا اتابعها من بعيد في خجل وحرص وقليل من الخوف. لا زلت غير راغب في الاقتراب منها. فلا زلت شرقيا رومانسيا أميل إلى الخيال وإلى الحلـم وإلى المناجاة وتبادل النظرات وكتابة الخطابات حتى أستطيع أن أقترب بعد ذلك.

## المترو: مقبرة فِرعونية!

عندما جئت باريس لأول مرة دخلت أول مقهـى فـي ميدان" جوسيو" لأنتظر صديقًا بإمكاني المكوث عنده ليومين أو ثلاثة أيام... لكن الليل أقبل وكنت لا أزال على رصـيف المقهى أدخن السيجارة تلو السيجارة حتى نفدت علبتي وأنـا في الانتظار.

طيلة هذه الساعات كنت أتابع ظاهرة عجيبة لـم أفهـم سببها في بادئ الأمر. في كل ما يقرب من خمـس دقـائق يظهر من تحت الأرض، وسط الميدان أنـاس كـأنهم نمـل يخرج من تحت التراب. يخرجون من تحـت الأرض فجـأة وبسرعة.

بعد ذلك، بدأت أتابع حركة من نـوع آخـر. العكـس تماما. أناس يتوافدون وكأن الأرض قد ابتلعتهم. وما هي هذه اللوحة؟

تركت المقهى، وقررت أن أقترب مـن هـذه الحفـرة الموجودة وسط الميدان في" جوسيو". وما هي إلا خطـوات حتى اكتشفت درجات سلم كتلك التي اكتشفها علماء الآثار في بلدتي الأقصر، وكانت بداية اكتشاف مقبرة فرعونية جديـدة

هي وادي الملوك. كنت في هذه اللحظة كمن اكتشف متـرو باريس، وراقت لي فكرة بدت في ذهني البسيط رائعة، فقلت لنفسي: هذه أول ليلة لي في باريس وبي لهفة شديدة لرؤيـة كل شيء... كل حي. كل شارع مرة واحدة.

وانتقل بي الخيال إلى القاهرة عندما كنت أركب" مترو" مصر الجديدة وهو القطار الوحيد في طفولتي الـذي يـذهب إلى أجمل ضاحية وهي هليوبوليس. وهذا القطـار لأنـه لا يسير بالبخار ولكن بالكهرباء كانوا يسمونه المترو. وعاد بي التفكير إلى هناك بقليل من المقارنة. لقد كنت أركب متـرو هليوبوليس في بعض أمسيات الصيف لأستمتع عبر إحـدى نوافذه. بمشاهدة الأحياء التي يمـر فيهـا مثـل الـدمرداش والعباسية وكوبري القبة وحمامـات القبـة حتـى روكسـي والإسماعيلية. كنت آخر راكب يبقي إلى نهاية الخـط. ثـم أعود في العربة نفسها إلى وسط البلد سعيدا بفكرة زيارة هذه الضاحية الجميلة.

وأنا على رصيف المقهى في" جوسيو"، وهـذه ليلتـي الأولى في باريس، راقت لي الفكرة، ولم لا؟ سأركب المترو كما في هليوبولس وأتفرج من النافذة علـى جميـع أحيـاء

باريس ثم أعود بالعربة إلى هنا. لن أتوه لأنـي لـن أتـرك مقعدي حتى أعود.

ونظرت في خريطة" المترو" التي كنت قـد اشـتريتها ووجدت أن خطوط المترو تقطع باريس بالطول والعـرض كما اكتشفت أن اللوحة هي خريطة المحطات. ونظرت إلـى موقعي هنا ووجدت أن الخطة سـتكون موفقـة وسأسـتمتع بنزهة رائعة وأنا أشاهد من النافذة نهر السين وحي مونمارت والحي اللاتيني والمونبارناس والسان ميشيل. كل هذه الأحياء التي سمعت عنها وقرأت.

قطعت تذكرتي واختفيت تحـت الأرض كمـا يفعـل الباقون، حتى وجدت نفسي على رصيف المحطة وسط أناس وحركة من كل جانب. ركبـت المتـرو. وكانـت لوحـات الإعلانات في كل مكان تبهرني، هناك أضواء صفراء، وباب يفتح بحركة بسيطة، ومقاعد وثيرة كمقاعد سينما مترو فـي القاهرة!

فرحت وأنا في المحطة وطمأنت نفسي بأني لن أضيع في باريس طالما أني حفظت عن ظهر قلب المحطـة التـي انطلق منها.

وفجأة اخترق أذني صوت سمرني في مقعدي. صوت أعاد إلى ذاكرتي صوت ناقوس الخطر ساعة وقوع كارثة أو بداية حرب. إنه علامة انطلاق المترو والذي انطلق كالأفعي يتلوى في طريقه. ومع انطلاقه دخلت عالما لم أشاهده ولـم أعرفه في حياتي.

وكانت بطبيعة الحال المفاجأة المذهلة عندما تسـمرت عيناي على جدار النفق الطويل حيث خـيم ظـلام مـوحش ومخيف. وتولاني انقباض واكتئاب وخوف. هل هذه باريس مدينة النور؟

وما هي إلا ثوان، وأنا تحت وطأة هذا الكابوس، حتى ظهرت من جديد الأضواء. إنها المحطة التالية حيث توقـف المترو ليهبط ركاب ويصعد آخرون. وتماسكت من جديد وأنا أتأمل الإعلانات المبهجة الملونة وأحاول أن أفهـم الكلمـات الفرنسية المكتوبة مع الإعلان بخط ملون كبير جميل. وكنت أشعر بالفخر لأني فهمت بعض هذه الكلمات الفرنسية.

ومع تكرار قصة الدخول في الأنفاق الدفينة استسـلمت للأمر الواقع وكففت عن النظر في اتجـاه النافـذة. وكـان

يستحوذ علي القلق والخوف الشديدان في كل مرة كان ينطلق المترو ليدخل الأنفاق السوداء محدثًا دويا كالعاصفة.

وقمت من مكاني أتطلع إلى لوحة المحطـات المعلنـة فوق الباب وأنا لا أفهم شيئا. وسألت أحد الركـاب بفرنسـية ركيكة: أين نحن من فضـلك؟ فأجـابني بفرنسـية سـريعة وتركني وهبط في محطته وأنا غير فـاهم ذرة ممـا قالـه. وسألت ثانيا وثالثًا وأنا في توتر، واستطاعوا أن يفهموا مني أني ضائع وأن هذه أول ليلة لي في باريس، وراحوا أخيـرا يتطوعون لمساعدتي. ويبدو أن المترو قد وصل إلى الناحية الأخرى من باريس وخفت أن يطول بي الأمر وحقيبتي مـا زالت في يدي وأزيز الطائرة في أذني بالإضافة إلى الجـوع والبرد اللذين تملكاني. وحلمت بأن أصل مرة أخرى إلـى محطة "جوسيو" التـي جئـت منهـا لعلنـي أعثـر علـى صديقي،وتذكرت مرة أخرى أني لا أعرفه ولا أدري إذا كان موجودا في باريس أم لا، وهو في الواقع ليس صديقي ولكنه صديق لصديق أعطاني عنوانه وأكد لي أنـه سيستضـيفني خلال الأيام القليلة التي سأمضـيها فـي بـاريس. وكانـت أصابعي تعبث في جيب البنطلون ببعض الفرنكات وقد ضاع

أغلبها عندما استقليت سيارة أجرة من" الانفاليد" إلـى هـذا العنوان.

كان هذا أول لقاء بمترو باريس في ربيع العام ١٩٦٥.
وقد عدت مرات عديدة إليها وتوغلت في هذه السراديب حتى حفظتها عن ظهر قلب. وخلال فترة حياتي الباريسية الطويلة أمضيت نصف عمري في هذه الأنفاق

* * *

## مغامرة" حب" قصيرة مع شقراء... طويلة

لا تزال المرأة في خيالي الصورة الرومانسـية التـي حفظتها من المجلات والأفلام التي كانت تصلني من القاهرة. هي دائما شقراء. تسترخي على وسائد مـن القطيفـة فـي غلالات من الحرير صيفًا أو من القطن شتاء. تتحـدث فـي الهاتف غالبا. ترتشف كأسا أو تدخن سيجارة بينما تخرج من ردائها بعض القطع من الجسم الجميل الأبيض: ساق أو ذراع أو...

هي دائما" بريجيت باردو" وأحيانًا" مارتين كارول" أو" فرانسواز أرنولد". وهؤلاء الثلاث بالذات هن اللواتي مررن على دور العرض في القاهرة أثناء فتـرة مراهقتـي وقـد عاصرتهن وهن في أوج مجدهن وأنا في قمة مراهقتي.

وكلما كانت واحدة منهن تظهر على الشاشة أجري إلى الصف الأول في قاعة السينما وأنا ما زلت في الرابعة عشرة وكأني أشعر بأني سأراهن أفضل من جلوسي فـي المقاعـد الخلفية.

نصحني صديقي العربي المثقف الذي يعيش في باريس منذ زمن طويل. قال: أنت" تتأتئ" في الحديث بالفرنسية، لن

تستطيع أن تتعلم أو تقرأ( ثم ابتسم فـي مكـر) أو تحـاور باريسية شقراء جميلة من النوع الذي تحلم به هنـا. عليـك بالذهاب إلى مدرسة" الأليانس فرانسيز"( بولفار راسباي).

**صنارة الأسئلة**

وذهبت فورا إلى" الأليـانس". ووقفـت فـي طـابور الالتحاق ومعي جواز السفر وصورتان ومئة فرنك( كما هي الشروط).

ووجدتها أمامي.... طويلة تقترب من المترين. جميلـة بيضاء وردية كلهطة القشطة كما يقولـون عنـدنا، شـعرها يقترب من اللون الأحمر أكثر من الأصفر. قصير نوعا مـا وليس مرسلاً طويلاً على الكتفين كما بريجيت باردو. إنهـا الصدفة التي جمعتنا، فهي مثلي جاءت تتعلم الفرنسية. هـذه فرصة للحديث وربما بأي لغة، أو بفرنسيتنا البطيئة، وسألتها أي سؤال: لماذا يطلبون جواز السفر؟ هل نحن فـي مركـز الشرطة؟ فضحكت أو ابتسمت بما يشبه الضحك لتقول لـي أي شيء، فأستعد لسؤال آخر. هل هناك امتحان فـي اللغـة الفرنسية قبل الالتحاق؟ قالت لا أعرف. ربما. ثـم طرحـت

السؤال التقليدي: من أي بلد أنتِ؟ قالت: هولندا. وقلت وأنا عربي من مصر.

قلت: أدعوها إلى فنجان قهوة بعد الحصول على "كارت" الالتحاق بالمدرسة وعليها الصورة والاسم والجنسية وموعد الدرس ورقم الفصل.

ثم جمعتنا فرصة الالتحاق ونحن نرتشف فنجانًا من القهوة من بار صغير في المدرسة وقد ازدحم شباب العالم وشيوخه وقد جمعنا حب اللغة الجديدة. أرى من بعيد بعض شباب الجزائر وتونس كما يبدو من طلعتهم وحركتهم، وآخرين من اليابان وكوريا وفيتنام والهند والصين. بعضهم يقف وحيدا وآخرون يتداعبون وكان منظري يدعو المغتربين مثلي من العالم الثالث إلى الالتفاف نحوي. كنت أحمل فنجانها في يد وفنجاني في اليد الأخرى وهي واقفة شامخة تنتظرني على طرف خالٍ من مائدة مزدحمة بالطلبة.

... وأخرج معها في شارع راسباي الكبير ثم نخرج إلى حديقة اللوكسمبورغ الساحرة بالأزهار والأشجار والتماثيل والمقاعد والطيور.

لم أعرف ماذا أتحدث معها. لكنها تسرع الخطى أكثر منى وكأنها تتقدمني وأنا خلفها. هي كبيرة ضخمة عالية وأنا مكتنز ممتلئ صغير الساقين أشعث الشعر زائغ العينين، أريد أن أرى كل ما حولي في باريس مرة واحدة. تدور عينـاي من حولنا. الأشجار والمقاعد المتناثرة في كل مكان. وثمـة أشخاص يجلسون يقرأون غالبا أو ثنائي يتبـادل العنـاق أو الحوار.

**مسافة... متر**

وكادت تسبقني بخطواتها السريعة فأسـرعت خلفهـا وهممت في اللحظة نفسها أن أضع ذراعي وكـأني أتسـاق خصرها العالي نوعا ما ذاك الذي يواجه على وجه التقريب كتفي.

لم تكترث بالأمر فسرنا قليلاً هكـذا وكـأني أريـد أن أظهر أمام الناس الجالسين حول النافورة الدائرية في وسـط الحديقة أننا ثنائي( كوبل). غير أنها لم تترك ذراعـي فـي ذراعها مدة طويلة وأزاحتنى قليلاً بل دفعتني بقسـوة حتـى أبتعد قليلاً عنها فأصبحت المسافة بيننا أكثر من متر.

سرنا قليلاً نحو باب الخروج وقد صدمتني المفاجـأة. وتكلمنا في أشياء أخرى حتى وصلنا الباب فودعتنى بسـلام سريع جاف باليد. وراحت في زحام الطريق، تبحـث عـن خريطة" المترو" في المحطة المواجهة وسرت أنا نحو بولفار سان ميشال الكبير وقد أصبحت واحدا من العشرات والمئات حولي، أغلبهم من بلاد العالم الثالث المتعبين مثلـي... ولـم أرها بعد ذلك... إلا نادرا. فقد كانت مواعيد الدراسة مختلفة.

كنت قد تعبت أيضا من رؤية أهل أوروبـا يلبسـون" الجينز" وكأنهم قطيع من الغنم الأزرق.

ورغم أننا نقادهم تقليـدا سـخيفًا، انتميـت وبمحـض اختياري إلى هذا القطيع الأزرق من شباب وشـيوخ العـالم الذين حضروا إلى باريس في بنطلونات" الجينـز الزرقـاء الكالحة ليتعلموا اللغة الفرنسية.

ودخلت الفصل الثالث، الحجرة الرقم ٣٥ فـي الـدور الأول في" الأليانس فرانسيز" لأتعلم اللغة الفرنسـية بعـدما اجتزت امتحانا في مبادئ اللغة. وقـد عـاونتنى جرأتـي الشرقية في السؤال الخاص بأدوات الإشارة، ، أما" البرشام" الذي أخفيته في جيببى وبه كثير من الكلمات المهمة فلم يأت

ذكرها في ورقة الأسئلة. وقد أخطأت في التمييز بين المؤنث والمذكر في كلمات كثيرة. فنحن العرب نؤنث أغلـب أدوات المطبخ كالسكين والملعقة والشوكة والحنفية والحلة وما إلـى ذلك، وربما لأن المرأة هي التي تستعمل فـي بلادنـا هـذه الأدوات، فأصبحت مؤنثة بالفطرة مثلها. أما هنا فالرجل هو غالبا الذي يطبخ، فتتحول الأشياء نفسها إلى التذكير.

* * *

## في" الأليانس فرانسيز"

كنت انتقلت إلى الفصل الثاني من" الأليانس" واختـرت منهجا جديدا حتى أستطيع أن أتحدث بسرعة فاخترت قسـما آخر للمحادثة الشفهية دون كتابة حتى أستريح مـن قواعـد اللغة وتصريف الأفعال رغم أني كنت قد حفظـت الأفعـال التي مع فعل( يكون) والأخرى التي مع فعل( يملك).... إلا أني كنت أخلط بين الأمرين وكانت الأسـتاذة تصـيح هـذه كارثة... مثلا كنت أقول دائما" أنا أكون الجـوع" أو" أنـا أكون العطش"... والصواب هو" أنا عندي الجـوع" أو" أنـا أملك العطش"... وهذا الخطأ كان ناتجا عن الترجمة الحرفية من العربية... لأننا في بلادنا نقول" أنا عندي الجوع" وليس" أنا أكون جوعان" أو" أنا أملك العطـش"... لكـن جوعـان وعطشان" ليس لهما نظير بالفرنسية.

في هذا الفصل الجديد الذي يعتمد فقط على المحادثـة الشفهية التقيت بمجموعة جديدة من الغرباء مثلـي( اخترت الشقراء كعادتي لأجلس بجوارها).

قسم العلاقات الاجتماعية في الأليانس يقدم لكل طالـب من هذا الفصل فرصة كل أسبوع للقاء مع أسـرة فرنسـية

بدعوة منها حيث يقوم الطالب بالتمرين على الطبيعة تمامـا مثل قيادة السيارات أنت تتعلم على الورق أولاً كيف يسـير الموتور وكيف تؤثر حركة( الدبرياج) مع عمود( الكـردان) المتصل بالعجلات الأربعة وكيف يحترق البترول أثناء هـذه الحركة وكيف يسير الزيت ثم حركة الماء مع المروحـة... وفي النهاية تسير السيارة ويخرج العادم.

بعد ذلك تتعلم القيادة بأن تجلس فعلاً على آلة القيادة.

كنت أنتظر قدوم" مدموزيل دينيس" المشـرفة علـى العلاقات الاجتماعية وهي تطل من خلال باب الفصـل فـي الدقائق الأخيرة... وجه جميل يبتسم غالبـا ولكـن أفسـدته الوظيفة كمشرفة اجتماعية فأصبحت الابتسامة تسبقها قبل أن تحس بها أو تعطيها لنا.... كأنها تحولت إلـى صـناعة أو وظيفة... توزع علينا جميعا دعوات مختلفة.... الدعوة بهـا العنوان والموعد واسم الأسرة التي تنتظرنا على الغـداء أو العشاء أو على الشاي أو القهوة.

في كل مرة ذهبت إلى إحدى هذه الـدعوات الكريمـة كنت كمن وقع في الفخ أو كمين.... هو ذات الشعور عندما

أجلس على عجلة القيادة في سيارة لأول مرة بعد أن حفظت الخطوات الأولى في القيادة ولكن الآن عليك التنفيذ.

لا يمكن أن أنسى الطفل الفرنسي" فيليب" الذي جلـس على طرف المائدة الارستقراطية الكبيـرة الفـاخرة وكـل الأنظار تتجه نحوي وكل الأسئلة سهام تصوب في اتجـاهي وما أصعب موقف كهذا فتطير مني الكلمات الفرنسية الجديدة التي حفظتها في الأليانس ويختفي لساني في جـوفي كأنـه بندول ساعة حائط قديمة عاطلة أو يجف حلقـي ويلتصـق لساني بالسقف أو بالفك السفلي حتـى خفـت أو تمنيـت أن أعضه بأسناني ولكن على أية حال كنت أتكلم قدمت نفسـي لهم.. وبدأت أوزع الاهتمام بأغلب الموجودين على المائـدة سيد البيت رئيس ديوان بالسكك الحديدية كأنـه سـيد عبـد الجواد( في ثلاثية نجيب محفوظ) والسيدة العجـوز الوالـدة الزوجة... الابن والابنة في الجامعة...

والشغالة تخرج من المطبخ في ردائها الأسود ومريلتها البيضاء تقدم لنا فاتح الشهية. ثم الحساء والطبـق الرئيسـي والسلاطة... بينما أنواع النبيذ تتغير.. وأمامي ثلاثـة أوانٍ

مختلفة لثلاثة أنواع من النبيذ..... الزهور والورد حولي في كل مكان.

كنت قد بدأت بداية موفقة في الحـديث حتـى تعبـت وازدادت أخطاء النطق كلما ازداد التعب... بينما هذا الطفل الصغير وقد بدت خصلات شعره تتراقص من على جبهتـه العريضة ورأسه تكاد تظهر كاملة، فمه في محـاذاة الطبـق الذي يأكل منه... يتطلع نحوي ويضحك، في بداية كل جملة أنطقها يضحك وفي نهايتها يضحك... وأمه تنهره فيما يشبه الغضب أو العتاب أو الإعجاب بصغيرها... تصرخ فيه:

- فيليب... وبعدين معاك. لم أكترث بمقاطعة الطفـل لي بضحكاته.... فقد كنت وصلت في حديثى إلى جذب انتباه الجميع وقد اعتادوا على نطقي الغريب حتى بدت ضـحكات فيليب نوعا من الاحتجاج المقّنع بالضحك... تغاضيت عنـه بالانشغال بتذوق الطبق الشهي وتنوع الحديث من الحـديث عن حضارة العرب والفروسية... قال أحدهم يهتم بالسـباق أيام الآحاد أن الحصان العربي هو الفائز غالبا بنبله وذكائـه وشجاعته... ثم تحدثنا عن السياحة في مصـر.... قلـت أن زيارة روائع الحضارة الفرعونية في الأقصر أهم من زيارة

الأهرامات في الجيزة إلى أن نتطرق الحديث عـن الأطبـاق العربية الشهيرة واختلاف المطبخ المصري عن التونسي عن العراقي عن الجزائري... قلت لهم مثلاً أن الطبق التونسـي الشهير بالكوسكوس نقدمه في مصر على أنـه حلـو حيـث يضاف إليه السكر واللبن والمكسرات... وهكذا كنت محاولاً جاهدا أن أكون ضيفًا مسليا حتى أعوض أخطاء النطق السليم باللغة الجديدة....

طال الوقت على المائدة الكبيرة وقـد تحولـت رغـم ملذاتها إلى حصار وقيود تمنيت أن أخرج منها وأهرب حتى أقبلت السيدة التي تظهر دائما من خلف الستار اللامع تحمـل شيئًا جديدا هذه المرة تحمل أنواع الحلوى والفاكهة، وكالعادة بعدما تمتلئ البطون يكثر الحديث مع أطباق الحلو كما فـي كل المطاعم... إن الناس تتكلم أكثر مع الطبق الأخير ومـع القهوة فلا أدري( ربما أيضا بفعل الأنواع الجيدة من النبيـذ) إلا وقد تحولت فجأة إلى ثرثار فرنسي لم أعرفه مـن قبـل ويبدو أن أخطاء النطق قد تحولت إلى مفهوم جديد في اللغـة الفرنسية فرضته على الحاضرين دون أن يبدو على تعبيـر وجهي أي لمحة خجل أو تردد أو تصحيح الخطإ كما كنـت

أفعل في بداية اللقاء على المائدة كل ما هنالك أني أضفت بعد كل جملة كلمة( فوالا)... هنـا جلجلـت ضـحكات الطفـل فيليب... عاد يضحك أكثر من الأول... بل يقهقـه ويخـبط بقدميه تحت الطاولة ويصفق بيديه في سخرية بريئة غالبـاً. نهرته أمه مرة أخرى مع الفارق هذه المرة أن حـديثي قـد توقف والأنظار كلها تحولت نحو فيليب وأمه تنهره... لكن هذه المرة أرادت أن تعتذر لي بالنيابة عنـه فوجهـت إليـه سؤالاً بسيطا: فيليب... وبعدين معاك... أنت تضحك ليه؟!

فرد الطفل فيليب وهو لا يزال يضحك:

- المسيو بيتكلم بأي لغة؟!.

... في المرات التالية... عندما كنت أتلقى بطاقة دعوة للقاء أسرة فرنسية للتدريب على اللغة... كنت أصحب معي كراستي لأرسم... كان هذا آخـر عهـدي للكـلام باللغـة الجديدة... وسط أفراد أسرة فرنسية علـى المائـدة.. هـذا التحول... الفضل فيه يرجع إلى الطفل فيليب.

## قاطع طرق في مونمارتر

رسام أنا، قال لي الأصدقاء، اذهب إلى مونمارتر حيث ميدان الرسامين الذين يرسـمون وجـوه السـياح الألمـان والأميركيين والسويسريين لقاء مبالغ هائلة!

وصلت ميدان" الترتـر" المعـروف حيـث عشـرات الرسامين، لم أر في حياتي أسوأ من لوحاتهم، التـي تكـاد تكون عارا على تاريخ فرنسا في التصوير الزيتي. أما الرسم بالأبيض والأسود فقد ابتدعوا له طريقة سهلة، وهي الرسـم على ورقة رمادية بالأسود ثم وضع لمسات بيضاء بالباستيل أو" السان جيه" الأبيض، فتبدو صـورة أي وجـه مقاربـة للصورة الفوتوغرافية. وقد وصلت المهارة بهؤلاء الرسامين إلى مدى بعيد من السـرعة والإتقـان ومحاكـاة الأصـل والوصول إلى الشبه.

تطلعت حولي ووجدت عشرات السياح يدورون حـول الميدان حيث تبدأ قصة تشـبه قصـص الرسـوم الملونـة المسلسلة: يسير السائح أو السائحة وأمامه رسام وخلفه رسام وإلى اليمين رسام وإلى اليسار رسام. وهو كالعذراء يتمنـع وهو راغب، وتضغط المافيا عليه من كل جانب. يسأله واحد

ويسبقه ويسأله آخر ويتابعه. يسير إلى جانبه ثالث إلى اليسار يبتسم له وإلي اليمين وهكذا...

وبطبيعة الحال يستسلم السائح أو السائحة، وغالبا ما يكسب من أكثر سحرا في الشخصية وطريقة الاجتذاب، فهو لو كان وسيما والسائح امرأة جميلة مثلاً يستهل في هذه الحالة سحره بكلمات معسولة، حتى يصل فيأخذ الفريسة إلى ركنه وسط القهر، ويجلسها أمامه ويخرج أدواته... ويفتح" الدوسييه" الضخم الأخضر الذي يحمله طيلة الوقت ويبدأ في الرسم. ولا لا يرسم، لكنه يتظاهر أنه يرسم... فهو يشوح بيده في الهواء حتى تستقر الأصابع على رسم العين وأغلبهم يبدأ بالحاجبين.

واذا لم تكن السائحة وسيمة، فهو يستعمل حيلة اللغات. بسرعة يستطيع أن يشم جنسيتها وغالبا ما يحفظ كلمات من كل لغات العالم بحكم وظيفته السياحية. فتفاجأ السائحة بأن الرسام يكلمها بلغتها:" بونجورنو سينورينا بيللا بينتوري بريسو"... أو بالاسبانية أو الألمانية حتى لغات الشرق الأقصى كاليابان والصين والاسكندنافية كالسويد والنروج.

والموضة الرائجة في السنوات الأخيرة هـو ظهـور الرسام المرأة. أى أن الرسامة نفسها فتاة جميلة جذابة، يقبل نحوها عشرات السياح الذكور الذين يحلمون بموعـد بعـد الصورة مع دعوة للعشاء، وربما موعد حب يعـود السـائح الأميركي أو الألماني إلى بلاده ليقـول لأصـدقائه أن هـذه الصورة رسمتها له فتاة شقراء رائعة الجمال وقد عاش معها في باريس مدينة الحب مغامرة لا ينساها!

وقابلني رسام كاريكاتور يكرر رسوم الكبـار ويقـص بالمقص لعبة" السلويت" الأسـود. ويحمـل لافتـة كلافتـة الحلاقين.

واتخذت لنفسي مكانًا وكأني قاطع طريق، وحملت معي كراسة وقلم" فلوماستر" أسود واخترت أصعب طريقـة. أن أرسم على وجه السرعة وجه يمر أمامي... وأجري خلفـه مشوحا له بصورته وأنا ألهث.

أهملني الأول. الثاني اختفى ولم ألحـق بـه. الثالـث أزاحها كأنها ذبابة سخيفة. وكان يصدف وسط خمسة زبائن أو أكثر أن يضحك أحدهم ويعرض صـورته علـى رفاقـه ويضع يده في جيبه ويسألني: كم؟ فأقول له عشرة فرنكات.

ومعروف لدى الرسامين في هذا الميـدان أن الزبـون المفضل هو الطفل. أى أسرة تحمل معها طفلاً فتتجه الأنظار نحوهم فهم يعرفون أن الأب والأم يفرحان أن يرسم ابنهمـا بواسطة فنان في باريس.

ولن أنسى ذلك الرجل السخيف الذي وافـق علـى أن ارسمه هو وزوجته، وعندما رسمتهما غضبا غضبا شـديدا ولم يقولا أن السبب هو" أن خلقتهم كده" بـل أن الرسـام ده" اللي هو حضرتي" مش عارف يرسم.

اضطررت مرة أخرى لأن أزيف رسـما وأن أجعـل صاحبته جميلة لأنها رفضت شراء الرسم في بـادئ الأمـر بحجة" أنها مش كده" وقالـت لـي لـو أصـلحت الرسـم فسأشتريه.وعندما صغرت الأنف وخففت السمنة تحت الذقن، بدت كما تحلم بنفسها في ربيع العمر اشترت. وكانت بالنسبة إلي مغامرة استمرت يوما كاملاً أوصلتني إلى مرحلة كبيرة من التعب. لكن جيب بنطلوني كان يمتلئ بالعملات الصغيرة والكبيرة.

هبطت إلى حي" البيغال" القريب ودخلت محلاً بسـيطًا وطلبت عشاء ضخما وخرجت من المطعـم أتنـزه وسـط

الضجيج وأتمتع برؤية النساء في الطريق يعرضن أنفسـهن بشكل فاضح. وقلت في نفسي: أني أحترم هؤلاء وأفضـلهن على الذين يملأون ميدان" الترتر" فوق.

* * *

## لوحة الكهف الراقص

المدرسة التي تعلمت فيها لغة أهل فرنسا حين أتيت إلى باريس تدعى" الأليانس". هناك بدأت التأتـأة حتـى صـرت أعرف كيف أتكلم. لكن رحلة الكلام بلغة جديدة لم تسـتهلك وقتي كله. كراستي ظلت رفيقتي الدائمة وكالعادة أرسم عليها الوجوه الجديدة التي تراها عين الرسام لأول مـرة. تلفتنـي دوما النسب في الطول والملامح، ألوان الأزياء وغرابتهـا، تسريحة الشعر وانحرافاتها، قوام ممشوق من الشمال ووجـه زنجي من جنوب أفريقيا. وليس المظهر وحده ما يبهرنـي، بل الحركة وطريقة الكلام والتعبير في كل شخصية.

ذات مساء جاءتنا لورين الإنكليزية الصـغيرة وقفـت أمامنا، أنا وساسا الياباني، وآخرين، وهي تلـبس ملابـس" التنس" البيضاء حيث تلعـب يوميـا فـي ملعـب حديقـة اللوكسمبورغ المجاورة يكاد جسدها الأبيض النحيل الملـيء بالنمش الأحمر وساقيها الرفيعتين تشبان أمامنا وهي تقفز في مرح وحيوية، لم تجد مكانا تجلس عليـه فاختـارت ركبـة صديقنا فرانكلين من بناما، قالت وقد تساقطت خيوط شعرها

الأحمر الطويل على وجهها، أزاحته عن عينيها حتى تراني لتقول:

النهاردة حفلة بمناسبة عيد ميلاد مديرة الأليانس فرانسيز... نظرت نحوي لتقول.. هل تعرف الكهف أسفل الدور الأول، سنكون هناك محلنا في هذا الكهف المليء بالموسيقى.

عدت إلى حجرتي الصغيرة في داخلية الأليانس لأسحب حقيبة السفر من تحت السرير.. وأخرج البدلة التي أحضرتها معي.. ألبسها مع قميص أبيض وربطة العنق الوحيدة البرتقالية.

درجات السلم الطويل تأخذني إلى أسفل وصوت صياح الموسيقى الجاز تجعلني أقفز الدرجات وشاب يصعد وفتاة تنزل وحركة من كل جانب واللحن ينقر على آذاني فانتفض وأسرع الخطى.

ذات الخليط العجيب من أجناس مختلفة ليس بينهم فرنسي أو فرنسية واحدة رغم وجودنا في باريس.. ما عدا بعض أساتذة المدرسة الذين يختارون لنا الأغاني والسيدة

مديرة الأليانس التي تقف وسط المكان في رداء طويل ونور يسقط على شعرها الأشقر فتبدو كأنها عروسة مولد باريسية.

البعض يرقص بمهارة.. والآخر يتحـرك بمـا يشـبه الرقص.. الآخر يشرب عصير البرتقال أو البيرة ولا يبـاح النبيذ... إلا أن الجميع يتحدث.. وكأنها رياضة يمارسـونها في هذا الجو الموسيقي مع الأنغام واهتزازات أجسادهم وسط الموائد المستديرة الصغيرة التي تلف المكـان. ومحادثـات الجميع في خليطها يشبه شيئًا غريبـا مضـحكًا.. فاليابـاني يتحدث بفرنسية على الطريقة اليابانية والأسـباني يتحـدث الفرنسية على الطريقة أو اللهجة الاسبانية والألمانية كـذلك وأميركا الجنوبية والسود والبيض والأغلب أن الجميع يتهتـه ويضطر للاستعانة بالإنكليزية أو بكلمات من لغته الأصـلية حتى لو لم يفهمها محدثه أو محدثته. كما أن كل واحد يصحح للآخر بينما يستمع له. على أي حال هذا هو الغـرض مـن السهرة بتمرين الطلبة على الكلام بالفرنسية في الحياة العامة والتعارف والغرض الأخير الترفيه عن الواجبات اليومية في الفصل التي تحتاج غالبا إلى ساعتي عمل أو ثلاثة كل مساء. ويحتويني ركن صغير أهرب فيه من شلة الأصـدقاء مـع

كراستي أرسم بأقلامي الملونة التي أحملها مبعثرة في جيوب البدلة التي تلوثت بالألوان لورين الإنكليزية تتأمل كراستي ثم يتخاطف الأصدقاء أحد الرسوم تنتقل الورقة من واحد إلـى واحد، حتى تصل إلى مدير الحفلة.. والجميع يبتسم والأنظار تتجه نحوي.. وكأنني حققت أحلامي وأصبحت أحد نجـوم فن الرسم في العاصمة الفرنسية.

فترة سريعة أتابع بنظري مسير الورقة من مائدة إلـى أخرى حتى تدخل غرفة الموسيقى. ألمح خاف الزجاج مدير الحفلة يتأملها ويضحك. يقترب في اتجاه الركن الذي نجلس فيه. أستعد للقائه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسـامة مرحـة. يعبر لي عن مدى إعجابه بالخطوط. يرجوني أن أراه غـدا صباحا في مكتبه.

وفي اليوم التالي بدت لي شخصية مدير الحفـلات أو مدير النشاط الاجتماعي في مدرسة الأليانس شخصية ممتعة أتشوق لمعرفتها... مظهره يبدو كأنه واحد من نجوم السينما يتحدث بطلاقة أكاد ألهث خاف كل جملة. يبتسم دائما ابتسامة تقليدية لا تتغير. أنيق إلى حد بعيد في ملابسه. مكتبـه فـي حجرة صغيرة مع سكرتيرته التي أكثر ما تتميـز بـه هـو

الطول الفارع. حوله صور لجميـع أغلفـة الأسـطوانات الحديثة. الجاز. تكاد أفواه المغنين من الجدران تبعث بطرفها حولي.

تلتقي نظراتنا.. يراني من خلف الزجاج. يسرع نحوي يفتح لي الباب. يرحب بي بأناقه وابتسامة.. كراستي معـي يتناولها بإذني.. يقلب أوراقها وتزيد ابتسامته عندما يشـاهد رسوم الليلة الماضية. ينادي سكرتيرته للتفرج معـه. يقـول كلمات إطراء ثم يسألني.

هل تستطيع أن تشترك معنا في نشـاطنا الاجتمـاعي بفنك الجميل هذا. الحفلة القادمة سنقيم لهـا إعلانـات تمـلأ حوائط المدرسة حتى يحضر أكثر عدد من الطلبـة. حفلـة تنكرية كبيرة حافلة بالمفاجآت.. كما سيحضر فرقة جاز من أميركا الجنوبية تعزف لنا.

أبتسم وأوافق. أفكر بالأجر هل أطلب منه الآن. يقطع تأملاتي ليقول: هيا بنا نذهب لشراء الأدوات. حتـى يكـون لديك كل ما يلزمك من ألوان وأوراق وريشات.

بعد نصف ساعة كنا نعود ونحن نحمل كميات كثيـرة من الألوان.. ألوان جديدة حديثة لم أرها من قبل فـي أوانٍ

جميلة مبهجة. البرونزي والذهبي وألوان أخرى فوسـفورية تبرق في الظلام.

وكأني أمهله وأقول له إلى الغد. أو إلى الأسبوع القادم لكنه يقول: وقتنا قصير. الحفلة بعد أسبوعين لابد أن تمـلأ رسومك واجهة السلالم وكل مدخل باب وركن قهوة والبـار أيضا.

نهبط درجات القبو تحت الأرض المكان الذي كان مليئًا بالصخب عشرات الأجسـاد التـي تقفـز مـع الموسـيقى وصرخات الجاز أصبح المكان صامتًا مظلما.. لا صوت لا أحد يدخل حجرة الموسيقى المليئـة بأشـرطة الموسـيقى.. يخرج منها بعد لحظة وقد حمل ملفًا أسطوانيا أبيض اللـون ألقى به على الأرض بجانبنا لأكتشف أنه أسطوانة ملفوفة من الورق بعرض متر في طول لا نهاية له ربما يصـل لألـف متر.

أفك ماف الورق الأبيض كأنه سجادة ممر طويل فـي قصر عظيم. أسحب عشرة أمتار علـى الأرض لنبـدأ مـع الألوان والريشات. يسألني تريد الإلهام؟ أستطيع أن أحضره لك فورا لترسم بحماس كالليلة الماضية.

يدخل حجرة الموسيقى يدير الأسطوانات والتسـجيلات تنبعث الصيحات المتوحشة المرحة كأنها تنبعث من غابة في بداية الخلقة. أغمس الفرشاة داخل الأحمر الفوسفوري لأرسم أول متر من الورق. عشرات من شباب ليلة الأمس أشـعر كأنهم لا يزالون حـولي الآن تنـتفض سـيقانهم وتتمـاوج شعورهم وتختلط أذرعهم.. وأرسم وأرسم.

ساق مع ذراع ورأس في اتجاه وأخرى في اتجاه آخر وشعر أصفر يطير وذراع يطوح في الهواء وأنواء تصـرخ وكل شيء يتطاير كأن انفجارا حدث أحاول أن أعبر بالألوان الفوسفورية على الورق الأبيض الطويل كالسجادة في ممـر قصر عتيق عظيم.

وتختلط بي ذكريات الليلة الماضية وأنا أرسم منحنيـا على الأرض، وقد تبعثرت الألوان الفوسفورية حولي علـى الورق وعلى الأرض وبملابسي وبكل شيء وبـدت وسـط الخطوط والألوان بعض ملامح من شخصيات أعرفها وكانت ترقص هنا بعضهم زملائي في الفصل والآخرون أراهم من حين لآخر لنقول كلمتين على السلم أو على باب دخـول أو أمام كشك السجاير أو على مقاعد القهوة. هذه( الكا) الألمانية

وهذا( لويجي) الإيطالي من صقلية و( بارك) الكـوري فـي ملابس السهرة الأنيقة التي اعتاد عليها. ثم( تبريـزا) مـن جنوب أفريقيا وهي أصغر واحدة وأكثرهم حركة في حلبـة الرقص( ومورغن) الدانمركي صاحب السيارة المفتوحة الذي يدعونا للتجول وسط شوارع باريس أحيانًا.

أغلب الوجوه والشخصيات على الورقة أصبحت تتعلق بناس أعرفهم وأعيش معهم هنا. يصـيح ويصـرخ. ليلـة الأمس تتحول بـنفس ملامحهـا علـى الـورق العـريض الأسطواني.

يمتلئ أول متـر بعشـرات الراقصـين والراقصـات والجالسين في انتظار رقصة جديدة أو في دردشـة للتفـاهم باللغة الجديدة التي يتعلمونها في الصباح .

أحاول تكملة عملية ملء الورق بالألوان والخطوط التي تجسم هذه الشخصيات وكأن اللون الأحمر هو صوت الغيتار والأخضر صوت الأرغن والأزرق هو صوت المانـدولين.. والبرتقالي الوحشي هو صوت الطبلة.

ينتهي أول متر ثم ثان متر وخامس متر وكأني ترزي يعمل بالطول وبالمتر.. أكاد أسقط من التعب يلاحظ مسـيو

ألكس صديقي مدير النشاط الاجتماعي المجهود الذي أبذلـه في الرسم.. يبتسم مرة أخرى الابتسامة التي حفظتها وأعرفها قبل أن يضعها على وجهي ليقترح لي شيئا. أو يقـول لـي انتظر. لحظة عندي مفاجأة لك.

يعود بعد لحظات وهو يحمل زجاجة نبيذ وكأس يقول: هذا أجود الأنواع من( بوردو) ولعلك قد سمعت عـن نبيـذ البوردو الشهير وهي مقاطعة في جنوب فرنسـا اشـتهرت بتقطيره. يضع الكأس أمامي لنشرب نخب اللوحـة الجديـدة التي لا تنتهي.. وأستريح لحظات نتحدث فـي أي شـيء.. لأعود مرة أخرى للرسم.. وأشعر أني حصـان.. لابـد أن يجري.. يعب جرعة ليكمل الطريق فيجري من جديد وتختلط في خيالي الأصوات المجنونة الراقصة مع كأس النبيذ التالي.

أسكب على الورقة كميات هائلة من الألوان تختلط مع بعضها مع اختلاط الأنغام وصيحات الغابة تنبعث من تلـك الحجرة التي جلس خلف أشرطتها صـديقي مـدير النشـاط الاجتماعي. وهو يهتز أيضا وطرب لكل أغنية وكل قطعـة. كان صديقي الفرنسي ألكس لا يزال يحتفظ بقناعـه الجميـل أمامي كانت الرسوم والألوان حولي تكاد تجعلني أشعر بأني

لست وحدي في هذا القبو.. إن المكان بدأ يـزدحم بالفتيـان والفتيات الذين أعرفهم وأحفظ ملامحهم وأشرب معهم القهوة بعد الدرس.. أرقص معهم أحيانا في نفس المكان.

وكلما أرسم واحدا أو واحدة جديدة على الورق يزدحم بي المكان.. وتمتلئ الورقـة بالنـاس وكـأنهم يتحركـون ويرقصون فعلاً.. كأن أصواتا بداخلي تتكلم.. كل صوت له لهجة من اللهجات المميزة لكل شخصـية مـن شخصـيات الراقصين والراقصات الذين أرسمهم.. هذه( لورين).. تماما بشعرها الأحمر الطويل المتطاير مـع أمـواج الموسـيقى.. وهذا( ساسا) صديقي الياباني النحيل الرقيق الـذي يتهـادى بعوده الدقيق حول( لورين) في حب حـالم يخـتلط بـبعض الشقاوة وخفة الروح.. هذا( فرانكلين) الأسـمر مـن بنامـا يرقص مع( روزا) الاسبانية التي لا يتوقف فمها عن الأكـل أو الكلام. وهو يداعبها برقصة ولكنها تقفز بجسدها الثقيـل حوله كالراقصات الاسبانيات المشهورات بالصـاجات وقـد ارتدت فستانها الواسع من تحـت والمشـقوق مـن الأمـام بكرانيش ملونة ذات أزهار وزخرافـات. هـذا( حمـد ا ) الأسود الذي يرقص مع كل الفتيات في فصـله وفـي كـل

الفصول.. فهو أسود جميل وأنيق وأمهر الراقصين في حلبة الأليانس هنا.. صدره مفتوح بقميصه الأحمر الحريـر وقـد تدلت من رقبته حلبة فضية مكتوب عليـه ا ، وهـو مـن مراكش وهذه صديقته الإنكليزية الصغيرة، والأخرى( ماري تيريز) السويسرية ذات الشعر القصير وهي تتمـادى أقـل صخبا من الآخرين ففيها اتزان وقليل من الوقار.. ربما لأن سنها أكبر قليلا من الثمانية عشرة والتاسعة عشرة الآخرين. ومع الكأس التالية يمتد طابور الراقصين والراقصات علـى الورقة.. حتى يصل إلى ٢٥ مترا كاملا.. وأرقـص علـى أرضية مشمع حلبة الرقص الفارغة وقـد ملأنـي الإجهـاد والتعب أريح ظهري من التقوس وأستند برأسي على حافـة المسرح الصغيرالذي تجلس عليه الفرق الموسـيقية لتلعـب وتغني.

ضوء الفجر يتسال حولنا رغم أننا في كهـف تحـت الأرض... أو تحت الدور الأول ويعطيني كأس( البـوردو) حتى لا أشكو ويستمر( ألكس) في القيـام بـدور الشـيطان يحضني للرسم بواسطة الموسيقى حتى لا أنام بينما هو فـي

شخير ونوم طويـل خلـف أشـرطة التسـجيل الموسـيقية وأنغام( الجيرك والسبتليز والرولنغ ستونز).

نترك ملف الورق الطويل وقد ثبتنـاه علـى أرضـية الكهف الشمعية بورق لاصق حتى يجف.. نخـرج.. يقـوم مسيو ألكس بغسل الأطباق من الألوان وتنظيـف المكـان، يحضر قطعة قماش مبللة بالماء والصابون ليغسـل الأرض من أثر الألوان المتناثرة لتعود لمعة الأرض كما كانت.

نخرج سويا من الكهف وقد توقفت أجهزة الموسـيقى التي كانت تصيح.. وكأن الحفلة قد انتهت والراقصـين قـد توقفوا في رسوم على الورق فجأة تماما كما يحدث في أفلام الموجة الحديثة.. عندما تتوقف الكاميرا عند لقطـة معينـة لتموت الحركة أو تتجمد.

سلسلة مفاتيح مسيو ألكس يشخلل بها في يـده ونحـن نتجه نحو باب خاص خلف البار.. يفتح بها باب ثم آخـر.. ليقول لي: لابد أن نخرج من باب العمال والخـدم لأننـا لا نستطيع أن نخرج من البوابـة الكبيـرة الحديديـة نصـعد بأسانسير الخدم أيضا إلى الدور الأول. يفتح باب الأسانسـير بالمفتاح ويخرج من باب آخر إلى الطريق.

تبدو باريس نائمة تماما. لا إنسان ولا عربة فقط نحن الاثنان وقد تلوثت يدي بالألوان وربما وجهـي لا أدري. لا أفكر في ذلك ولكني أكاد أعيش داخل العالم الصـغير الـذي كنت أضعه أمامي على الورق الملفوف مترا مترا.

كنت قد وضعت كل ما تعلمته من دراسـاتي للجسـم البشري في فنون جميلة القاهرة. تعليمات أستاذي بيكار فـي تلخيص الفورم و( هارموني) اللون والبحث عن قيمة تشكيلية حديثة ترتبط بكل الاتجاهات حتى تخيلت أن لوحتي الهائلـة ستحتاج إلى عشرات الأمتار من الجدران وهي من الممكـن أن تكسو حائطا كاملا في متحف كبير.. رحت أحلم باللوحة يراها كبير النقاد فيكتب عنها في الصحف ويدعو المشاهدين من أهل فرنسا لرؤيتها والثناء على مبدعها المجهـول مـن مصر.

نقف لحظة وسط الطريق والظلام عدا أضواء الفوانيس وأشباح الأشجار الجافة دون أوراق قبل أن أعود إلى غرفتي ويعود هو أيضا لينام.. يتحدث عن السعر والأجر وأتوقع أن يبدأ هو الحديث إلا أنه لا يتكلم فأسأله بصـراحة وبحـزم.. وأفاجأ به يقول لنا نشاط رحلات كل أسـبوع إلـى قصـر

الايلوار وبرج سان ميشيل علـى الشـاطئ النورمانـدي.. سندعوك المرة القادمة دون دفع اشتراك الرحلة لقضاء الويك آند.

درجات السلم الطويل أتسلقها بصعوبة فـي مرسـمي في( الشرش ميديه ) وأنفاسي تتقطع حتى أصل إلى غرفتـي آخر دور.. وأكاد أعد كل دور انتهيت من درجات سـلمه.. أفتح الباب. أدخل وأنام فورا وثمة أحلام وسعادة بأني أزاول فني على نطاق جماهيري في أوربا ومن باريس أعود مـرة أخرى لأفكر وأقول.. لكنه نشاط مدرسي كمجهـود جمعيـة الرسم في مدارسنا عندما يقوم طالب موهوب برسوم لجدران حجرة الرسم أو ما شابه ذلك. لكنه على أي حال على نطاق واسع ويدعونني للقاء جميع الجنسيات مع رسـومي لأسـمع رأيهم وأناقشهم. ربما أكسب أصدقاء جدد مـن الطلبـة ثـم أضحك وأنا أداعب نفسي. لا سيما الطالبات.

الصباح التالي كنت أشعر بنفس الارتياح رغم أحساسي بالجوع والإرهاق. أقفز من السرير بحثًا عن فنجان القهـوة الفرنسية السوداء وقطعة من رغيف باريس الطويل.

تمر الأيام بعد ذلك إلى نفـس النظـام القـديم رغـم مشاهداتي الجديدة كل يوم في الطريق وعبر شوارع باريس وأحيائها المترامية الأطراف. ألصقت الإعلانات التي رسمتها عن الحفلة التنكرية أمام السلم الذي يؤدي إلى جميع الفصول وأخرى أمام بار القهوة وبجـوار المطعـم. أصـبحت أرى رسمي ونحن نأكل في المطعم أو نصـعد إلـى الفصـل أو نرتشف القهوة على الواقف وسط تعليقات وإعجاب الزملاء.

أحضر الحفلة مع الأصدقاء. الكـا الألمانيـة وبـارك الكوري وجينو الصقلي وماري تيريـز السويسـرية وبقيـة الأصدقاء.

لا يلتفت الطلبة والطالبات إلى رسومي التي طولها ٣٠ مترا على جميع حوائط الكهف( ثلاثة حوائط كل حائط عشرة أمتار والحائط الرابع للبار والموسيقي) وأصبحت الأشخاص المرسومة تعكس جوا مضاعفا من الزحـام والمـرح مـع موسيقى الجاز المهرجة. كان اهتمام الطلبة والطالبات أكثـر بالرقص من مشاهدة رسومي والتعليق عليها ذلك مـا عـدا القليل منهم الذي جاء يبحث عني بعد أن سأل مسيو ألكـس. تتوقف الموسيقى فجأة ويتوقف الرقص. يعلن مسـيو ألكـس

بأسلوبه الذي يشبه مقدمي برامج التليفزيون والإذاعـة فـي الميكرفون يقول: هل ترون اللوحة الطويلة على محيط هـذا المكان أنها من عمل رسام مصري موهوب و....

ويصفق الجميع وأرد لهم التحية وفي أعمـاقي بعـض الغيظ فقد أضاع مني فرصة مطالبته أو مماطلتـه بالمكافـأة التي استحقها.

وأفوق من أفكاري السريعة مرة أخرى لأراه يختـرق مقاعد الطلبة ويتجه نحوي ونصبح وجها لوجه يبتسـم مـرة أخرى ويعطيني اشتراك لدخول الصالة طول السـنة بصـفة خاصة وتذكرة رحلة مدرسية إلى قصر الايلاوار يوم الأحـد التالي.

وتصعد مجموعتنا سلالم الكهف إلى الدور الأرضي في طريقنا إلى الشارع لنعبره إلى المبني المواجـه الـذي بـه حجراتنا لننام إلا أن أصوات مشاغبة على بـاب الخـروج تفزعنا.

إن مسيو ألكس له مجموعة مـن الشـباب الرياضـي تحرس شباك التذاكر وباب الدخول ومكان استلام المعـاطف ومعهم بعض الفتيات. في كل مرة كنا نشاهد معركة يتبـادل

فيها رجال ألكس اللكمات والأيدي والأرجل مع بعض الشباب المشاكس الذي لا يريد أن يدفع أو يريـد أن يكسـر بعـض لوائح السهرة. كاكتشاف زجاجة نبيذ معهم وهم في طـريقهم إلى الكهف الراقص.. في كل سهرة كانت النهاية دائما هـي المشهد الدرامي للمعركة على الباب.

معركة الليلة ليست مفاجأة لنا فقـد أصـبحت منظـرا عاديا. إلا أني بعد حوالي عام عندما ترددت مرة أخرى على المكان وجدته مغلقا تماما أثر معركة أشعلت المكـان كلـه بالفوضى واضطر البوليس للحضور وفك اشتباكاتهما حيـث وصلت إلى الكهف وتحطمت زجاجات وموائد وديكور ونتج عنها إصابات بالغة... وعرفت بعد ذلك أيضا أن لوحتي ذات الثلاثين مترا قد تمزقت تماما.

* * *

## فشلت في المدرسة ونجحت في المطعم

في المدرسة حيث أتعلم الفرنسية، نظرت حولي لأري مجموعة زملاء الفصل، قلت لنفسي مداعبا" عدت من جديـد إلى المدرسة يا بو جريج وأنت في الأربعين من العمـر..." ووجدت بجانبي شيخا في السبعين من اليابان، فتساءلت فـي

نفسي: هل أنه سيجد وقتا من العمر ليتكلم لو تعلم فعلا اللغة الفرنسية؟ وكان بين المجموعة شباب من الشـمال... مـن اسكنديناڤيا وإيرلندا وهولندا والدانمرك، وآخرون من أهلنـا من الشرق بعيونهم الواسعة والبشرة السمراء والحنين الدافق، ثم وجوه أفريقية كالأبنوس وأخرى من أميركا اللاتينية.

وتلعثمت أذني وأنا أسمع اللغة الفرنسية تنطق بعشرات اللهجات حتى يصعب فهم ما يقولون. هنـا فـي" الأليـانس" تسمع الفرنسية بلكنة أميريكية مضحكة ثـم لهجـة قاسـية يوغسلافية أو رومانية أو بولونية. أو فيتنامية وربمـا كـان أفضلنا في النطق هو الأفريقي.

كنت دائما أحضر متأخرا بضع دقائق عـن الموعـد المحدد لبداية الفصل. هكذا عادتي منذ المدرسة التحضـيرية حتى الجامعة. وعلى الرغم من تأخيري كنت أختـار مكانـا خاليا إلى جانب جارة شقراء، أرسم لها خلسة وردة صـغيرة على هامش صفحتها، فتبتسم أحيانا أو تنظر لي شذرا أحيانا أخرى.

كان درس الإملاء عبئا ثقيلا، يكدرني حتى في المنام، فأغلب الكلمات نصفها حروف ساكنة لا تنطق ولا أسـتطيع

أن أميزها ولا أن أكتبها. فحرف" H" أو الهـاء ذو أهميـة كبرى عندنا وبالمناسبة فهو يحتل جزءا مهمـا فـي نطـق اسمي، وقد أوصيت أصدقائي الفرنسيين أن يكتبوه قبل حرف الجيم لكن من دون جدوي، على الرغم من أنني قلـت لهـم عشرات المرات أن قرية" بهجورة" توجد في أقاصي صعيد مصر، بينما قرية" الباجور" توجد في الدلتا أقصى الشـمال، الفارق بين البهجوري والباجورى يقدر بحوالي ألـف كيلـو مترا!

والمشكلة أنني أحب فعلا اللغة الفرنسـية وأحلـم بـأن أتحدث مثلهم ولكن ما الحيلة.

وكانت حصة الإملاء مشكلة المشاكل فأخطائي كانـت غالبا تزيد عن العشرة ودرجاتي غالبا ما تكون تحت الصفر، حتى أنني أصبحت أحلم بأن أتقدم أو أضاعف المجهود حتـى أحصل على الصفر.

وجاء أول الصيف وهو موعد الامتحان فـي القواعـد وأفعال المخاطبة والماضي البعيد. وكنا قد وصلنا إلي أفعال الاستمرار. وفي نهاية الامتحان نصـف سـاعة مخصصـة للإملاء. وكنت حاولت أن أؤدي كل ما عندي عندما أزحـت

كراريس الرسم من حولي في الليلة السـابقة لأفـتح كتـاب القواعد والصفات وما إلى ذلك..

وانتظرت نتيجة الامتحان في الأسبوع التـالي. وقـد تزاحم كالمعتاد عشرات الطلبـة والطالبـات مـن شـتى الجنسيات والأعمار يشدون بأعناقهم ويصرخون من الفـرح لأنهم قرأوا أسماءهم بين الناجحين، أما أنا فلم أجد للأسـف اسمى. فأخذت رسومي التي كانت تملأ كراسة كاملة وفيهـا مذكرات كل ما يحدث في الفصل. تعابير الوجـوه، حركـة المدرسة، وهي تشب على السبورة" اللوح الأسـود" لتكتـب والطلبة في حركاتهم المتعددة، وتسريحات الشعر المتميزة.

وذهبت إلى مكتب المعلمة، ولما رأتني ابتسـمت لـي كالمعتاد، وقلت لها. لقد قمت بمجهود كبير قبـل الامتحـان لكني مريض بداء الرسم. كل كلمة أقرأها أرسم مـا يعبـر عنها، وكلما أسمعك في الفصل تنطقين كلمات جديدة أرسـم تعبير وجهك.. وأنسى الكلمات.

تطلعت نحوي في استغراب ودهشة وأنا أسـحب مـن تحت إبطي كراسة الرسم، وتحولت دهشتها إلى فرحة وهـي تتصفح الكراسة، وسألتني: أنت الذي رسمت هذه الرسـوم؟

أنها رائعة. وراحت تبحث بين ملف الأوراق عـن ورقتـي وهي تقلبها على الوجهين، وهي تقول لـي: أنـك تعـرف القواعد لكن أغلب كلماتك تكون ناقصة حرفا مـن حـروف النطق.

وبعد لحظة تفكير سريع رفعت إصبعها فـي وجهـي قالت: اسمع سأنقلك إلى الدرجة الثالثة لكن في قسم المحادثة. أنت محتاج إلى نطق سليم حتى تستطيع إجادة الكتابـة بعـد ذلك... ووقعت بالقلم الأحمر أمام خانة الدرجة الثالثة" شفهي" وأعطتني البطاقة وأنا أهلل لها وأحمـل كراسـتي وأهـديها رسما ضاحكا لها فأتركها وهي تودعني بابتسامة بينما كنـت أقفز درجات السلالم إلى مطعم الأليانس.

كنا نقترب من باب المطعم ونحن جوعى ونشاهد الذين مروا على الجنة يحملون صينية فارغـة وشـوكة وسـكينة وكوبا فارغا. كما نرى الآخرين وقد جلسوا إلـى مائـدتهم يلتهمون بلذة فائقة وجبتهم المتنوعة وعيوننا فـي الأطبـاق وكأننا لا نرى الوجوه.

نصل إلى المطبخ وكل منا يحمل صينية ويختـار أولاً الطبق فاتح الشهية وهو من السلطة أو الخيار، ثـم الطبـق

الرئيسي الساخن ومعظمه بطاطس أو رز وفي جانب الطبق قليل من الديكور الأحمر الذي يبدو أنه قطعة لحـم أو قـدم دجاجة مسكينة كانت تقوم في حياتها بنظـام التخسـيس أو الريجيم. في نهاية الطريق الذي لا يتسع إلا لشخص واحـد، تبدو الفاكهة وعليك أن تختار بينها وبين الجبنة.

تعلمت منذ ذلك الحين طريقة الأكل الذاتيـة أو" اخـدم نفسك". وتذكرت" مبروكة" التي كانت تخدمني على الغـداء وأنا طفل. كما تذكرت" أم نظير" التي لا تزال تخـدمني الآن على الغداء والعشاء في بيتي في بلادي.

إلا أن الحديث الذي كان يبدأ بعد الأكـل يسـتهويني. كنت تواقا إلى اكتشاف صديق جديد كـل يـوم، والأفضـل بالطبع أن يكون فتاة.

ويومها ظهرت لورين الإنكليزيـة بشـعرها الأحمـر الطويل ووجهها الرقيق الملامح الذي يكسوه النمش الأحمـر الذي أحبه.

هذه فتاة من نوع جديد. عندما تدخل المطعم تقبل معظم الأولاد وتنادي آخرين بعيدين تحييهم برفع ذراعها. هي دائما

التي تبدأ الحديث مع جارها في المطعم وهي التـي تطلـب التعارف وتقدم نفسها.

اهتمت بي أكثر من الآخرين لأنها رأتني أرسـم فـي كراستي فصاحت بي: هذا رائع. ثم دعتني إلى القهوة وهـي تقدمني إلى مجموعتها:" بارك" و" ساسا" الياباني الصـغير. وآخرين من مجموعتها." ماريا تيريزا" الاسبانية الشقراء التي وصلت إلى الصف الأخير في اللغة وستعود إلى مدريد تحمل الشهادة التي تؤهلها لأن تكون أستاذة اللغـة الفرنسـية فـي العاصمة الاسبانية." ألكا" الألمانية الشقراء أيضـا." جـون" إنكليزي وهو رسام إعلانات في محلات" لافاييت" ويحتـاج إلى تعلم اللغة الفرنسية حتى يتعامل مع رؤسائه وزملائه من الفرنسيين في عمله.

وأصبحنا مجموعة مترابطة نتفق على" احتلال" مائـدة كبيرة في أوقات الغداء والعشاء في موعد ثابت، لورين غالبا تصل قبلنا لحجز الأماكن وتنتظرنا وهـي ترفـع ذراعهـا الصغير تهلل لنا من بعيد. كنت أغوص وسطهم، فينضم إلينا أحيانا منتسبون جدد من الصين والهند والبرازيـل. تقـدمهم بفخر كالمعتاد لورين وكأنها اكتشفت أصدقاء جـددا. لكنـي

أحيانا أتخيل نفسي خارج المجموعة أتفرج عليهم بمن فيهم أنا. فأرى خليطا مضحكا رغم تجانسه المؤقت والعواطف التي بدأت تربطنا. فالأسبانية تتحدث بلكنة أسبانية والبرازيلي بلكنته. وأنا أكثرهم غموضا في نطق الفرنسية لكننا التزمنا جميعا الكلام باللغة الجديدة التي تقدمت بها جدا في المطعم وتأخرت جدا في الفصل.

## بهجر في المهجر

في السنوات الأولى لباريس كنت أبدأ سهرتي في الحي اللاتيني( سان ميشيل) متسكعا في أزقة( الهاشيت) و( سـان اندريه ريـز آرت) و( الـدوفين) و( المـازارين). ألـتهم ساندويتشا وكوب بيرة وأتطلع إلى واجهة سـينما ومحـلات الملابس ومكتبات جوبير. متفرجا على حسناء غير عاديـة وأخرى عادية. ملتقيا بالصدفة مع صديق قديم أو جديد فـي ساحة الميدان أمام النافورة الشهيرة بلقاءات المحبين وغيـر المحبين ولكن الأغلب هو وجود حالات كثيرة من العناق في لحظات اللقاء بعد الانتظار.

وكأني أقنعت نفسي بأنه مجتمع حب وحرية وانطـلاق ضد نوازع الغيرة والحقد والشر.

سعدت لهم وفرحت من أجلهم رغم وحدتي. فما زلـت بلا صديقة وها هو نهاية الأسبوع أقضـيه متفرجـا وحيـدا ولكنه مكاني المفضل هنا على ضفتي السين حتـى وصـلت كاتدرائية سيدتنا( نوتردام دي باريس).

تعبت قدماي في منتصـف السـهرة وكنـا بالصـيف ونسماته العذبة وضحكات الشباب وحركة السـياح وسـماع

عشرات اللهجات جعلتني أختار مقعدا فارغا على قارعة طريق في مقهي كبير يواجه القطعة الرائعة من الدانتيللا المعمارية لكاتدرائية نوتردام دي باريس.

جاءني الغرسون فطلبت منه فنجانا من القهوة وجلست أدخن سيجارة غلوازية وكأنني أنهي سهرتي بنهاية سعيدة.

أنظار الجالسين تتجه نحو جار لي غير عادي. مقعده يكاد يلتصق بمقعدي حتى أن طاولته أصبحت مشتركة بيننا عندما وضع الغرسون فنجان قهوتي على حافة المائدة تجاهي.

أما هذا الجار فأمامه زجاجتين من الجعة الألمانية المستوردة ويشرع في طلب الثالثة، جعلته يصل إلى حالة من فقدان الوزن والاستمتاع بسهرته على طريقته.

ولم أصدق ما أراه بعد ثوان، أنه يخاطب كل امرأة تمر أمامنا بلهجة غير فرنسية. يغازلها بل يلمسها أحيانا أو يشد طرف ردائها بينما في كل مرة يطلق إحدى قفشاته التي تجعل له جمهور من أمثالي الذين يريدون قضاء السهرة على الرصيف مثلي... هل يحدث هذا في باريس؟

وكأني دخلت في اللعبة رغما عني. بدأت أتابع حركاته مع كل سيدة وحسناء تمر وأضحك مع الباقين ولكـن علـى طريقتي في صمت.. فقد كنت أراه سخيفا.. كما أنـي لـم أصدق أن يحدث هذا في باريس.

إلى أن مرت أمامنا حسناء ثيابها نصف عارية. تكرر المشهد المضحك الذي أثاره لمسها وأطلق قفشته السـخيفة. ولكن كما بدا لي( هذه المرة لا تسلم الجرة).

تابعتها بنظراتي بينما راح جاري المهـرج السـخيف يداعب ضحية جديدة. لقد هرولت إلى داخل المقهى لحمهـا يهتز، سريعة جميلة غاضبة. هناك على البار كان ينتظرهـا صديقها.. على مظهره ملامح الجنـوب الأوروبـي ربمـا سيشيلي أو صقلي أو سلافي. جسمه قصير قوي. وتوزعـت نظراتي فجأة ما بين جاري وما بين المشهد خلـف الزجـاج على البار. والسيدة تشير نحو مائدتنا. وكأنها تقول لـه هـو ده( قليل الأدب) اللي عاكسني.

لا أدري إلا وقد جاء هذا الرجل وخلفه المـرأة اياهـا يهتز لحمها أكثر. في يده زجاجة البيرة الفارغة وقـد هجـم

على جاري المشترك معي في ذات المائدة والـذي يلتصـق مقعده بمقعدي.

انشرخ كل شيء وانقلبت المائدة وتحطم زجاج الواجهة خلف جاري وتمزقت زجاجة البيرة في يد الرجل على رأسه الذي سقط والدم ينزف من رأسه ورقبته.

ولم أستطع في اللحظات التالية تحمل الموقف. هرولت بعيدا أجرى عائدا بينما انطلقت أصـوات سـيارة البـوليس والإسعاف تتجه نحو المكان.

وعندما هيأت لي وسادتي لأنام ليلتها كان يلـح علـي سؤال... ماذا لو كان تحرك إصبع السيدة الحسناء قليلا وهي تشير إليه... فتشير نحوي بدلاً منه بفارق انفـراج الزاويـة وكان مصير الذي حدث لجاري.. حدث لي.

**بهجر في المهجر**

دق جرس الهاتف( التلفون) في مرسمي في ضـواحي باريس الجنوبية( ايفري) وقد صرخت صديقتي الفرنسية التي أعرفها وأعشقها منذ عام... كيف تتركني هذا الأحـد وقـد ذهبت ترسم في مرسمك بعيدا عني وعـن بـاريس.. إنـي

وحيدة تعيسة أفتقدك. تعال فورا أني في انتظـارك سـأطبخ لك( كاي) هذا العصفور الذي يشبه عندنا( السمان).

فرحت ورميت بضعف ريشتي الملوثة بلون صـاخب أحمر يميل إلى البرتقال وسـافرت إليهـا قبـل المسـاء.. استقبلتني بحماس غير عادي وبكت في أحضاني واشتكت لي من قسوة الحيـاة ودعتنـي إلـى الـدوش وكـأس بينمـا تستوي( الكاي) أو( السمان).

وبينما أنا خارج من الدوش دق جرس بابها دقة مفاجئة أوقفت دقات قلبي وصرخت في غضب بفرنسيتها من الـذي على الباب في هذه الساعة المتأخرة مـن الليـل. وسـمعت صوته على الباب يقول: أنا علي.. فقالت: مش معقول... ما الذي أتى بك هنا.. الآن.. بلا موعد.

وتطلعت نحوي في سرعة وجنون وكأنها تستأذن مني أن تخرج لتراه وتعود حالا.

ولكنها لم تعد إلا بعد دقائق كثيرة وقد نسـيت البـاب يغلق من تلقاء نفسه خلفهما بينما كنت أهيـئ نفسـي لليلـة سعيدة.

دق جرس الباب من جديد.. ولم أفهـم لقـد أصـبحت وحيدا في شقتها بالروب دي شامبر ولابد أني الوحيد الـذي يفتح باب الشقة.

عندما فتحت الباب دخلت صديقتي الفرنسية ووجهها قد تغير تماما بمعنى آخر لا أفهمه أيضا ثـم تراجعـت قلـيلاً وخرجت مرة أخرى فبدأت أفهم... ثم تأكدت عندما دفعـت رجلاً أمامي وقالت: هذا هو صديقي القديم علي.. إنه عربي من الجزائر.. وأنت عربي من مصر وأنـا متهمـة بحـب العرب لقد طردتني صاحبة الشقة القديمة الفاخرة التي كنـت أقطنها لأنها تقززت مني لأني لا أختار أصدقائي سوى مـن العرب والبرازيل والأرجنتين.

لم أعلق ووقفت حائرا بينما راحت هـي تقـدم لكلينـا كأسا...

ثم نظرت نحوي: وقالت: آسفة جـدا لهـذا الموقـف بينكما.

كانت تحدثني عنه. إنه عامل من عمال البناء والتنظيف وحفر الطرق.. إنه شاب في الثلاثين. صغير الحجم جزائري الملامح، جبلي الشخصية.

نسيت دعوتي للعشاء.. وتسرب اللون الأصفر الباهت إلى وجهها الذي كان جميلاً منذ لحظة طـوقتني بـذراعين عاريتين وقد شعرت بخوف كأن ذراعيهـا ثعبـان الكـوبرا وقالت:

- سأقضي الليلة معه.. أما أنت فسألقاك غدا في الظهر على مدخل متحف بومبيدو.

* * *

دخلت المقهى أبحث عن دورة المياه. وقد ألحت علـى جسمي الحاجة.( البارمان) استوقفني بجرأة فرنسية وسـألني تشرب إيه؟!... قلت له في سري... ولا حاجة... انتظرني قليلا أو بلهجتي المصرية.. اسـتناني شـوية ا يخليـك أو باللبنانية يعطيك العافية اتركني أو بالعراقية هسـه حـأرجع أطلب بيرة.

لكنه تشكك في أمري.. منظري جديد غريب عليه لـم يرني من قبل( إرهابي أو لص أو صعلوك). لست من زبائن المقهى المعتدين المكرمين. لهجتي غريبة مكسرة. قلت لـه وأمرى ... نصف لتر جعة من فضلك ووقفت وأنـا فـي حالة سيئة أحرك ساقي اليسرى وساقي اليمنى حتى احتمـل

الانتظار.. وتطوعت بسرعة عندما قدم لي الكأس بدفع أكثر مما سيطلب تركت له إحدى القطع النحاسية الحمراء بقيمـة عشرة فرنكات.. ثم هربت حسب الأسهم واللافتات.. هبطت درجا ثم درجا ثم دخلت في دهليز فرعوني فرنسي ووجدت نفسي أخيرا في مضيق ما بين باب للهاتف وباب للمرحاض أحدهما للرجال كما تأكدت من رسم الرجل الجنتلمان وبـاب آخر للسيدات حسب السيدة الارستقراطية المرسـومة علـى الباب.

وتأكدت أني جنتلمان ارستقراطي رغم أني في موقـف الكلوشار كما على الباب من الخارج ولكني بالداخل أصبحت في ظلام دامس كما يقولون.. وهالني فزع شديد ماذا أفعل لا أرى شيئا وكدت أصرخ الحقوني أو أفتح الباب مـن جديـد وأخرج. ولكني أصبحت في مأزق لحاجتي الشـديدة وفجـأة دون أن أدرى أدرت عروة الباب فأصـبح الليـل نهـار.. أضيئت لمبة الكهرباء فأطمأنيت وهدأت...

وعدت بعد ذلك أصعد الدرج هذه المرة في اطمئنـان وسعادة قليلا وكأني أتذكر موسـيقى أغنيـة قديمـة لعبـد الوهاب... عثرت على كوب البيرة العالي الأصـفر وعلـى

قمته فقاعات التهمتها في نهم وتركت ما تبقي مـن العملـة النحاسية... وهرولت إلى شوارع الحي اللاتيني...

وتخيلت قريتي بهجورة... لو لم أحل زنقتي للحاجة في الحقول المجاورة أيام الصبا. لما ترعرعت سيقان القصـب قصب( السكر)..

* * *

## استقبال" رسمي" في حمام شعبي

سنوات طويلة وحجرتي فوق السطوح، أو تحت السقف المثلث. نافذتها تطل على السـماء، وتسـتقبل رذاذ المطـر وسيوله وجليده على مدى شهور السنة. أما أشـعة الشـمس فهي بمثابة طرد جميل أو هدية حارة جاءت من النافذة مـن بلادنا الدافئة. أما ليالي القمر النادرة فكانت بقعة ضوء تشـع منها الأحلام الجميلة عندما أنام وعينـاي مفتوحتـان علـى قرص القمر الأبيض رغم السحب الرمادية وكأن القمر وجه حبيبتي.

في الحجرة مدفأة صغيرة، وحنفية. أما دورة المياه فهي علي الدرج... و" الدوش" هو شتاء في الحمامـات العامـة الشعبية ومقابل فرنكات قليلة.

هكذا أصبحت زبونا دائما لحمام شعبي قريب، وبـات يعرفني عامل التنظيف في هذا المكان فكلانا مهاجر عربي. هذا كان واضحا من أول وهلة فلم يسألني من أي بلد أنا ولم أسأله. وخلف باب الحمام قمرة صغيرة تطل خلفهـا سـيدة مسنة تشغل يديها بـ" التريكو" الذي تتركه جانبا ثـم تتلفـت نحوي. وبينما أتطلع إلى لافتة الأسعار لأدفع حسـب الـرقم

المدون أمامي وتعطيني تذكرة صغيرة ولكنها تسأل: هل تريد تجفيف شعرك بعد الحمام؟ هل تريد فوطة؟ صابونة؟ شامبو؟ وفي الحال أشكرها قبل أن تكمل الإعلان عن شـبه محـل صغير لبيع الأدوات اللازمة وغير اللازمة، وهي موضوعة حولها في تنسيق دقيق حتى العطور والأمشاط حتى" اللبـان" و" الشيكولاتة" و" البون بون".

عامل التنظيف يقف خلف الباب شبه المفتوح، أراه من الزجاج ثم أدفع الباب لألتقي به. وهو يعرف شكلي كمهاجر عربي مثله ولا يعرني اهتماما كبيرا. كلانا يحمل التضاريس المتعبة ذاتها في الوجه. الجسد نحيل طويـل فـي بنطلـون وقميص عاديين، والكتفان ساقطتان قليلا والأصابع طويلـة معروقة نحلية تتناول الورقة الصغيرة ومعها قطعة صـغيرة من العملة الفرنسية هي غالبا نصف فرنك. أنا أعرف أنه من الجزائر على الأرجح أو من المغرب أو من تـونس. وهـو أيضا يبادلني النظرة ذاتها باعتبار أني لابد قادم من الجزائر أو المغرب أو تونس، كانت نظراتنا متبادلة ومتعادلة وفيهـا قليل من العطف، لكن في الوقت ذاته لم أكـن أسـتطيع أن أعطيه" بقشيشا" أكثر من العملات الصغيرة الصـفراء مـن

السنتيمات أو من العملة الفضية الصغرى أي نصف الفرنك. لذا هو يفضل السائح القادم من الشمال أو من بلد بعيد أو ما شابه ذلك.

أسير خلفه في دهليز طويل معتم فيـه ضـوء خافـت أصفر، الأرض من البلاط المبتل، وعلى الشـمال غـرف" الدوش" تتسرب منها أصوات الماء وهي تسـقط رذاذا مـع البخار على أجسام خلف باب نصفه الأعلى مفتوح ونصـفه الأسفل مفتوح أيضا... وأحيانا تبدو بعض الأقدام من تحـت الباب.

## صاحب البيت

كل هذا يدور في لحظات قصيرة جدا، حتى يجد لـي صديقي المهاجر" دوشا" فارغا فيدفع الباب ويشـير بإحـدى يديه. وأحيانا لا ينظر نحوي بل يكـون مشـغولا بالمقشـة والجردل وزجاجات التنظيف التـي يسـكبها علـى الأرض البلاطية المزخرفة وقد فاحت رائحتها النفـاذة الحامضـية. وللحظات هو أمامي.

أراه منحنيا وقد شمر ذيـل بنطلونـه وبـدت سـاقاه النحيلتان وعظامهما، وفي يده جردل الماء الساخن ينظف به

قطعة الخشب المنفصلة واللوحات على الأرض تحت الدوش ويزيل رغوة الصابون ويطهر المكان خلف كل زبون. يغلق بابا في صفقة أو يفتحه في قوة وقد أعطته مجموعة السلاسل وبها المفاتيح إحساسا كبيرا بأهميته في هذا المكـان، كأنـه موظف كبير في مؤسسة للنظافة تمنح كل إنسان قسطا مـن الراحة والاستجمام بعد عناء التعب.

وفي مملكته تلك أتأمله جيدا. رأس صغير قياسا إلـى جسمه الطويل الفارغ لكنه رأس نبيل نقي" سارح"، كأن لديه أطفالاً و زوجة وأسرة وربما هو الوحيد بعيد عنهم جميعـا. وهم في بلدته طنجة أو وجدة أو...؟

وذلك السرحان رغم التعب الذي ينم عن نفـس آمنـة صامت وحالم أحيانا. وفي وجهه خطوط مستديرة فـي كـل مكان تحت العين وحول الأنف والشاربين والفم المغلق على صفين بارزين من الأسنان ثم ترسـم تضـاريس جمجمتـه وتلتف على عظمة الخد في تجويف آخر حتى نهاية الفك.

وفي الحقيقة نادرا ما كنت أتطلع إلـى وجهـه كـأني استوعبت كل هذه التفاصيل في لحظة خاطفة وحتى عنـدما أراه منحنيا على الجردل وقطعة الإسفنج ينظف بها أركـان

المكان المظلم وكأنه عثر على عنكبوت أو أزال شيئًا كـان عالقا في كعب حذاء.

كنت لا أنتظره وكأنني أصبحت صاحب البيت بل أدخل إلى غرفة الدوش الفارغة دون استئذانه. وفي الخروج علـى وجهي الابتسامة والحيوية الجديدة والنشاط الذهني أيضا مثل أي إنسان آخر خارج من أي دوش. فالنتيجة هي ذاتهـا وإن اختلف المكان والنوع. وأمضي محاولا تصفير لحـن قـديم لعبد الوهاب فألمح صديقي المهاجر من جديد منحنيا منظفًـا فأشكره أو أحييه" عالماشي".

**وداع الدوش**

أما السيدة صاحبة الحمام فهي نفسها كصاحبة أي حمام أو مخبز أو مصنع. تريد مرة أخرى أن تبيعني عطرا مـن العطور أو قطعة حلوى. ومرة أخرى لا أشتري بل أمضـي إلى أقرب مقهى أرتشف على رصيفه فنجانًا من القهوة وأشد نفسا جديدا من سيجارة الغولواز الزرقاء... وغالبا ما أخرج كراستي كعادتي وقد أضاف إلي الدوش الشـعبي إحساسـا جديدا بحياة الناس العاديين حولي على الرصيف.

انتظمت من الحمام الشعبي. أصبحت مواظبـا علـى ارتياده واخترت يوما ثابتًا كل أسبوع للحضـور إلـى هـذا المكان... ومرت مدة طويلة وأنا على هذه الحال ولم يستجد شيء في سكني المتواضع(*) حيث لا" دوش" والتواليت على الدرج مشاركة مع جاري. إلى أن تحسنت حالي يومـا ولـم أعد أنتظر بيع لوحة حتى أعيش بثمنها أسبوعا أو أكثر.

اتصل بي بعض الأصدقاء من تونس ورتبوا لي موعدا مع إحدي الصحف الشمال – أفريقية التي تصدر في باريس بالفرنسية، وأصبح لي صفحة أسبوعية أرسم فيها خـواطري الكاريكاتورية، وفي أعلـى الصـفحة وضـعوا صـورتي الفوتوغرافية مثل أي محرر لي صفحة في أي مجلة.

لكن مسكني ظل كما هو. وذهابي إلى الدوش الشـعبي أصبح من الضروريات الأسبوعية. التذكرة ذاتها أقطعها من السيدة المسنة على الباب وقطعة النصف فرنك تحولت إلـى فرنك كامل لعامل تنظيف الحمام في الداخل. وإذ كنت أدفـع الباب الزجاجي هذه المرة بدا خلفه شبحه وهو قادم نحـوي. وفتحت الباب في اللحظة التي وصل فيها تجاهي لملاقـاتي.

(*) المتواضع كلمة متواضعة جدًا والأصح فقير جدًا

وعندما رآني هذه المرة وقف وقفة التمام وضرب لي تعظيما لم أتوقعه. هلل لي لأول مرة وحياني تحية جيدة ثم اقتـادني بفخر إلى أول دوش كنت أعبره غالبا وهـو فـارغ دون أن يسمح لي بدخوله. فقد كانت الجـدران مغطـاة بالفورمايكـا وقبضة الباب ملونة وبدأت مع الماء البارد بالأزرق والساخن بالأحمر وأخيرا ذهب صديقي وأحضر لي قبقابا.

لم أتصور أن يكون هذا المهاجر البسيط يتابع الصحف المهاجرة. قلت: أنه رأى في أغلب الظن صورتي ورسومي وهو يقلب المجلة صدفة، أو ربما كان فعلاً يتـابع باهتمـام أخبار بلده، ومهما يكن الأمر فإنه صحبني هذه المرة حتـى الباب الخارجي. والمؤسف أني لم أره بعد ذلك فقد عثـرت على استوديو كامل فيه حمام ودوش.

* * *

## فتاة وأحلام شقراء وعدو اسمه... قيس

.... وجاءتنى صديقتي الشقراء الفرنسـية وهـي الآن أمامي، تماما من مقاييس فتاة الأحلام. كشرقي وكعربي كنت أحلم بهذا النوع من الفتيات، وكمصري رأيت فيها أغنية عبد الوهاب( ذهبي الشعر). إنها الفتاة ذاتها التي كنت أراها على الشاشة وفي المجلات ومع وفود السياح في بلادنا.

عرفتها في افتتاح معرض لمجموعة من فناني مدينـة الفنون التي تطل على السين في الحي الرابع. كنت أعـرض بعض لوحاتي ضمن هذه المجموعة. أعجبتها أعمالي فكانت نظرة وابتسامة ولقاء. ورحت أحلم بها بعد اللقـاء إلـى أي مدى ستكون علاقتي بها.

خرجنا من المعرض وخيط الحديث مستمر بيننـا فـي انجذاب متواصل. لنذهب إلى مطعم صغير فـي الشـوارع الصغيرة من هذا الحي الشعبي القديم.

خرجنا من المطعم وقد ازداد تفاهمنا. هي معمارية تقدم رسالة جديدة عن المعمار في المدينة العصرية وتكتب وتنقد الفنون التشكيلية وتهتم بأن اللوحة لابد أن تصاحب العمـارة ليكونا عملاً فنيا واحدا.

كنا قد عبرنا جسر ماري الذي يفصل الحـي الرابـع الشعبي في جزيرة سان لويس... إنها السهرة السعيدة التـي أحلم بها وهو اللقاء الذي أنتظره منذ عمر المراهقة في بلادي.

بعدما عبرنا الجسر وقفت أمام باب كبير عتيق. قبلتني على طريقة التحية الفرنسية السريعة وقالت لي: أنا أسكن هنا في استوديو صغير في الطابق الرابع مع" قيس" وإلى اللقـاء في يوم ما. عندي تلفونك، سأتصل بك.

فوجئت بأنها لا تعيش وحدها. ومن هو قيس هذا؟ وما علاقة فرنسية بالشاعر العربي المعروف قيس بن الملـوح؟ هل هي تعيش مع عربي اسمه قيس؟ وكيف؟ وماذا لو رآنى الآن صدفة وأنا أقبل ليلاه قبلة نهاية السهرة أو الشكر علـى دعوة العشاء؟

في الطريق رحت أستعيد هذا الوجه الجميل والعينـين الزرقاوين الناعستين وخصلات الشعر الأصفر المسدل على الجبهة ويغطي الأذنين والرقبة حتى الكتفين. لقـد تركتنـي فجأة. لماذا لم تدعنى إلى بيتها؟ وما هذه المفاجـأة؟ أنهـا لا تعيش وحدها بل مع... قيس؟! ومن هو قيس... هذا؟

.... ومرت على قصة لقائنا الأول فترة إلى أن فاجأني صوتها على التلفون تطلبني في مدينة الفنون.

كيف حالك؟ أنني أطلب منك خدمة أنـا مسـافرة إلـى البندقية لمشاهدة معرض" البينالي" لأكتب عنه مقالاً في مجلة متخصصة في الفنون والشكل والعمارة، هـل أسـتطيع أن أطلب منك أن تأخذ مفتاح شقتي في جزيـرة سـان لـويس لتعتني بقيس في غيابي؟

وسكت فترة غير قصـيرة علـى التلفـون، محـاولاً استيعاب ما تقول... تلعثمت ولم أفهم، فأردفت موضحة، أنه لطيف وستحبه... أنه يشبه صور الإعلانات( فيس-كاس) أي صورة القط المرسوم على علب اللحم المفروم المخصصـة للقطط... وما عليك سوى أن تطعمه وتسـقيه وترمـي لـه فضلاته. إنه ينام في سلة كبيرة بجانب الحمام، مـا عليـك سوى أن تفتح له بعض المعلبات التي تشتريها مـن محـل الجزار المجاور في الجزيرة.. اسم العلبة" فيس-كاس". لـو نسيت قل له: طعام قيس. الجزار يعرف قيس ويداعبه وهـو على كتفى دائما عندما أصطحبه معي إلى عنده؟

وبينما كنت أتساءل كيف سأشترى هذه المعلبات وأنا لم أتجرأ مرة واحدة على دخول محل جزار منـذ جئـت إلـى باريس، وخصوصا ذلك الجزار الأنيق فـي جزيـرة سـان لويس، بدأت أفكر بطريقة جديدة. وتلمست طريقي في تلـك المتاهات الخيالية محاولاً أن أفهم من جديد. والحقيقة أن شيئًا واحدا أغاظني وهو إصرارها في حديثها على القول: أعيش مع قيس. ولم تقل مرة واحدة: قيس يعيش معي.

أعطتني موعدا وذهبت إليها فوجدتها تعد حقيبة السـفر بينما قيس، القط، يقفز هنا وهناك ولا يتركها لحظة.

أعطني المفتاح وقبلتني القبلة ذاتها التي هي من نـوع التحية على الطريقة الباريسية المعروفة، قبلـة بـلا طعـم. وقالت لي، وهي تترك لي المكان الجميل الـذي أعجبنـي: اعتبر نفسك في بيتك. كل حاجة هنا اعتبرها لـك. السـرير وبجانبه جهاز الموسيقى... اسطوانات واستعمل البن والسكر والشاي... وأمامك الدوش في الحمام، إلى جانـب السـرير مكتبة صغيرة من كتب الفن... خذ راحتك.... البيت بيتك... سأعود بعد خمسة أيام.

## ليلة مع.... قيس

قفز القط( قيس) في غضب حولي وزمجر وحشرج في أصوات رفض لي.... وخربش باب الاستديو فـي جزيـرة سان لويس، أجمل أحياء بـاريس، حيـث يعـيش مجتمـع" الايليت" أي النخبة من الأثرياء والفنانين والمشاهير. خلفـي على" رصيف انجو" قصر الرئيس الأسبق بومبيـدو وإلـى جانبه بيت جميل تسكن فيه فاتنة الستينات ميشيل مورغـان، بالإضافة إلى وجوه كثيرة أراها هنا وهنالك، فـي الصـباح والمساء. موستاكي وغاسبور والرسام ماتيو والنحات سيزار على سبيل المثال....

إلا أن قيس أمامي ويدور حولي وكأنـه لا يصـدق أو يحتمل غياب سيدته الشقراء التي تركتني معـه وأوصـتني خيرا به، أطعمه وأرمي فضلاته وأسقيه من مـاء" الافيـان" المعدنية.

لقد كان فراقهما مؤثرا، كما يبدو، فقد تمسح بسـاقيها وردائها وحذائها وأصدر أصواتا تقتـرب مـن النحيـب أو الأسى حتى غابت وهي تهبط درجات السلم القديم. وعنـدما هممت بإغلاق الباب خلفها دار أكثر من مرة وخربش خشب

الباب وكأنه يريد أن يهبط الدرجات معها. ثم لم يلتفت إلـي ولم يشعرني بأي حضور وراح يزوم من جديد وكأنه يرثـي نفسه. لقد عرف أن سيدته وهي تحمـل حقيبـة السـفرأنها ستغيب مدة قد تطول.

الليل أقبل وبدأت في تغييـر ملابسـي وأدرت جهـاز الموسيقى. أغلب الاسطوانات لديها لمغنيي أميركا الجنوبيـة تهوى الاستماع إليهم كأغلب الباريسيات.

إنها فرصة رائعة لي لاستعمال( الـدوش). فمرسـمي البسيط ليس ملحقًا به سوى حنفية للشرب وبجانبهـا ركـن مطبخ..." التواليت" على السلم. أما الحمام فلم أسكن في مكان يتوفر فيه مثل هذه" الكماليات" بالإضافة إلى الماء السـاخن والبارد.

هممت بدخول الحمام لآخذ دوشـا محـاولاً نسـيان" أشجان" قيس. هذا القط الحزين لغياب سيدته الشقراء. لكـن قيس اعترضني في الطريق إلى الحمام لأخذ الـدوش الـذي طالما حلمت به. فحتى ذلك الحين ما كنـت دخلـت حمامـا باريسيا بل كنت أذهب إلى الحمام الشعبي في بعـض أيـام الأسبوع. وتذكرت أن السلة التي ينام فيها قيس موجودة فـي

الحمام، وكأنني رغبت أن أؤكد له أنه لن يجد فراشـه مبـتلاً برذاذ الدوش.

استحممت، بالرغم من معارضة" قيس" التي بدت مـن خلال تصرفاته، وعدت لأنام في سرير سيدته، ودخلت وسط الأغطية المندثرة المليئة بأنواع مختلفة من الصوف وجلـود الحيوانات وريش النعام.

وفي اللحظة التي بدأت أشعر بالاطمئنان والراحة بدأت مسرحية جديدة بطلها القط قيس، الذي عاد يتذكر سيدته. فقد دار من جديد حول نفسه وكأنه يقيس محيط الغرفة ثم توقف خلف الباب وكأنه ينتظرها حتى تعود. ثم بدأ يصدر الصوت النحيبي ذاته الذي طغى على صوت الموسيقى. نظرت إليـه فوجدته يلوي ظهره في حركة غير عادية... أما أذنـاه فقـد تصلبتا في خطين عموديين كأنهما أذنا حمـار عنيـد. أمـا نظرات عينيه اللتين تلمعان في ظلام الغرفة فالأفضل لي ألا أتطلع إليهما لأنهما أصبحتا وحشيتين مخيفتين، وكأن الشـر يتطاير منهما، قلت لنفسي سأبادله بالمثل. لن ألتفـت إليـه. سأعاود سحب اسطوانة أخرى جديدة وسأتناول مـن خلفـي

كتابا من كتب الفن الملونة التي خلـف( الأبـاجورة) حتـى أحظى بنوم هادئ بعد قليل.

* * *

## وأخيرا طردني

الاستوديو في هدوء الليل، مـع أسـطوانة الموسـيقى الهادئة هذه المرة( سيبليوس) والنافذة تطل على خلفية منزل قديم وليس على الطريق، أي دون ضوضـاء السـيارات أو صياح المارة، وجزيرة سان لويس تغط في نوم يقترب مـن منتصف الليل... ولكن قلقي الوحيد هو القط قيس الذي أرجو أن يعود إلى فراشه في الحمـام. وقـد خابـت محـاولاتي لاستدراجه إلى النوم. ولو أغلق عليه باب الحمام، ولكنه كان دائما يثور ويخرج.

قلت مرة أخرى: لا بأس... وأطفأت الأنوار وبدأت في مناجاة ملاك النوم. ولم أغمض الجفن إلا بضع دقائق حتـى قفزت مذعورا...

كيف ينام غريب في هذا الاستوديو؟ هذا ما دار في بال قيس، فراح بالتناوب يقفـز قفـزات ثلاثيـة بـين الجـدار والسقف( وأنا النائم بينهما) ثم يهدأ لحظة ثم يعيد الكرة مـن

جديد وقد خرجت أنيابه من أظافره لتثبت بأي شيء. وكنـت كل مرة أخشى أنه سيستقر على وجهي أو على أي جزء من جسمي بمخالبه المتحفزة.

حركات قيس استمرت مدة طويلة وكأنه بهلـون فـي سيرك. أما أنا فانكمشت وأخبأت وجهي بالأغطية، مخافة أن يعمل بي فتكًا. ثم ولما لم يهدأ، لم أجد حلاً سوى أن أترك له الاستوديو.

قمت من نوم ناعس جميل لأرتدي ملابسـي ولأحمـل حقيبتي وأخرج.

عبرت جسر ماري واستنشقت من جديد هواء الواحدة صباحا. عدت من جديد إلى مرسمي البسيط علـى الجانـب الآخر من السين في الحي الرابع.

ورحت أتردد، مرة في اليوم على الاستوديو لزيـارة" قيس" محملا بعلبة" الفيسكاس" التي تحمـل علـى غلافهـا الخارجي صورة قط.... تشبه إلى حد بعيد صورة قيس.

لا شك أن عدم انتقامي من قيس نتيجة حرمانه لي من التنعم بالنوم في الاستوديو، والتمتع بنعيم الدوش، وبالتـالي مواظبتي على" القيام" بالواجب" تجاهه انعكست على حالتـه

النفسية، فأخذ ينتظرني ويتقبلني لأن معي الغـذاء والمـاء. حملت فضلاته من سلته في الحمام في صحيفة قديمة لأرميها في الزبالة في أسفل العمارة وانتظرت بفارغ صـبر عـودة سيدته من رحلتها. وانقطعت علاقتي فترة مع سيدة قيس. لم تعد في نظري تلك الباريسية الشقراء التي كنت أحلم بالعثور عليها في باريس. أصبحت صورتها مشوهة وقبيحة. كنـت أتذكر مخالب قطها كلما تطلعت إلى وجهها الوردي الجميـل وعينيها الزرقاوين بلا تعبير وخصلات شعرها الأصفر حول جبهتها. كل هذا لم يعد له أي مذاق بالنسـبة إلـي... حتـى جاءني صوتها من التلفون ذات مرة تقول لي: جاءتني منحة في نيوريوك لتقديم بحث جديد لي عن تعمير المدينة الحديثة. سأترك المرسم الذي تحبه في جزيرة سان لويس. يمكنك أن تستأجره في الشهر المقبل.( تضحك) ما رأيك؟ هل أترك لك القط قيس؟!

الاستوديو حيث أنا حولته إلى مرسم علـى طريقتـي. وإلى فرشاتي وألواني، أضفت كتـب الهندسـة، وموسـيقى أميركا الجنوبية، وصوت فيروز وأم كلثوم وعبـد الوهـاب والغوالي وعبد الكريم الريس وموستاكي... والشـيخ إمـام، وصديقي حسين المصري وعابد عذرية.

هذه أول مرة أجد مسكنًا تتوفر فيه وسائل الراحة إلـى حد ما... بعد غرفة" الشامبر دي بون" وغرفة الطفل جواندال واستوديو دوفين المشترك مع الفنان التشيكلي السوري غسان عنتابي، ومرسم السان جرمان الذي كنت قد استأجرته.

دق جرس التلفون في الاستديو الجديد. هذه أول مـرة يكون عندي تلفون. صوت سيدة يطلبني. صوت مهذب، بدا أن لصاحبته شخصية جذابة وهي تقدم لي نفسها:

أنا مدام.... دوسولييه مالكة الاستوديو الذي تسـتأجره الآن. أرجو أن تكون مرتاحا في سكنك الجديد... كما أرجو أن ترسل لي قيمة الإيجار على عنواني الجديد هنـا. إنـي أعيش على شاطئ البحر( ساناري سير مير) بـدلا مـن أن تدفعه إلى الوكالة التي نجمت بعض المشاكل بيني وبينهـا...

سأكتب لك موضحة كل شيء في رسالة.... ومع الخطـاب إيصال الشهر الماضي.

وبدأت منذ ذلك الوقت علاقـة طيبـة بـين مسـتأجر وصاحبة ملك... نتجاذب الأحاديث والتحيـات والتمنيـات. مرت فترة طويلة على هذه الحال.. بضعة أشهر تكلمني عبر التلفون أو في رسائل مطولة تروي فيها أمورا عن حياتهـا الجديدة في الريف على الشاطئ.... وتكتب عن جزيرة سان لويس، وتاريخها، وكيف كانت قرية صغيرة ليس فيها سوى بعض القصور والحقول، وكأنها عالمة بتاريخ الفنون.

كانت تحدثنى عن سانت جنفييـف وجسـر تورنيـل وسولي مورلاند، وجسر فيليبي وجسر ماري... وما ارتـبط بذلك من بعد القرن السابع عشر حتى الآن. كيف كان مرسم الفنان الفرنسي الساخر دومييه، وكذلك الموسـيقار العـالمي شوبان... ثم الناقد السينمائي جورج سادول. كل بيـت الآن تعلوه لوحة معدنية خط عليها باللون الـذهبي:" هنـا عـاش الموسيقار وهنا مات...".

كنت كالتلميذ المجتهد أذهب لأكتشـف هـذه الأمـاكن حولي، فأكتب لها من جديد مـع إيجـار الشـهر، بعـض

مشاهداتي الجديدة، حكيت لها مرة عن طابور يحتل الشـارع الرئيسي في الجزيرة، يبدأ من الصباح حتى غروب الشمس. في بادئ الأمر ظننت أنه طابور فراخ الجمعية، كما في بلادنا وفي شارع شامبليون في القاهرة، لكنـي لاحظـت أن كـل فرنسي وفرنسية عندما يخرجان من الطابور يلحسان قطعـة من البسكويت عليها ألوان جميلة على شكل دوائر أو أزهار، هي ألوان فاكهة الليمون والبرتقال والمـانغو والفراولـة... قالت لي في الخطاب التالي: هذا أشهر محل لبيع الجيلاتي أو البوظة... إنهم يأتون بالسيارات صيف شـتاء يقفـون فـي الطابور أحيانًا رغم المطر وأحيانا يعطلون المرور.

وظالت علاقتنا على أحسن ما يكـون بـين مسـتأجر ومالكة، أرسل لها الكارت بوستال من أي بلدة أزورهـا، أو أرسم لها في الخطابات بعض الرسوم الفكاهية الكاريكاتورية عن خواطري مع أهل الجزيرة... مع السياح... مع طـابور البوظة... مع" الكلوشار" الـذين يقبلـون علـى الجزيـرة كالعشرات. كانت تفرح وتهلل لرسومي وترسل لي كلمـات التقدير وتعلن أنها ستضع الرسوم في إطارات.

## صورتها وأحلامي

ومضى عام ونحن على ذلك المنـوال حتـى تخيلتهـا صديقة أحتفظ بها للمستقبل... ربما نلتقي وتتحـول علاقـة المستأجر بالمالكة إلى صداقة ما...

وتخيلتها شقراء كعادتي... ولكن بخصلات مرفوعـة فوق الرأس ومعقودة من أعلى بشينيون مثلاً، وتخيلت وجهها ورديا ضخما كبيرا، ورقبتها عارية طويلة وفسـتانها سـخيا تزخرفه ألوان الزهور و... كانت أحلامي قد أضافت إلـى خطها الجميل في الخطابات وصوتها المميز الجـذاب فـي التلفون، صورة امرأة في الخمسين لا زالت تحـتفظ بسـحر الشباب وعطر الباريسية وثقافتها.

ولا أدري لماذا أصبحت صورتها في مخيلتي هكـذا، ربما كان ذلك بفضل تأثير الأفلام المصـرية التـي كانـت تصور مجتمع الخواجات في مصر قبل الثـورة... وكانـت تقوم بأدوراها ميمي شكيب وزوزو شكيب مع الريحـاني أو زوزو نبيل أو ليلي فوزي.

وفي خطاب جديد ذكرت لي" سأحضر إلى بـاريس". أريدك في موعد مهم... ثمة توقيع بعـض أوراق رسـمية

تجعل عقد الإيجار صالحا لمدة خمس سنوات طالمـا أنـك مستقر الآن في باريس، ولك عمـل ثابـت فـي الصـحف المهاجرة كما تقول... فهذا من صالحك حتى يكون كل شيء على ما يرام من الناحية الرسمية. حددت لي الموعد والمكان في مكتب محامٍ صديق لها. وفي نهاية الخطاب قالت بـأدب شديد: مجرد شكليات لن تستغرق من وقتك الثمـين سـوى نصف ساعة.

## المفاجأة

جاء الموعد... وذهبت... كان بي شغف شـديد إلـى رؤيتها. فهل هي شبيهة بالصـورة التـي تـداعب خيـالي ورسمتها لها من صوتها عبر التلفون. وكان اللقاء.

وصلت إلى العنوان في الموعد تماما... صعدت فـي المصعد إلى الدور السادس كما قالت لي... في الدور عـدة مكاتب لمحاسبين ومحامين... بحثت في الخطـاب( الافوكـا سولال). عبرت الباب... رأيت رجلاً بدا لي أنـه المحـامي المقصود. كان يقلب في بعض الأوراق. ولم يرني ولكننـي ترددت، فأمامي مقاعد وثيرة في مواجهة مكتبـه، بحيـث لا أرى سوى ظهر المقاعد الجلدية الكبيرة. كـان واضـحا أن

السيدة صاحبة الاستوديو غير موجودة، فخرجت على التـو من الغرفة دون أن يلتفت المحامي.

كنت قد فهمت منها كما ذكرت فـي الخطـاب أنهـا ستنتظرني ثم تدخل معي إلى مكتب المحامي. قلت: لا بـأس أنتظر في الصالة الكبيرة المشتركة بين كل المكاتب فاربمـا تأخرت. انتظرت أكثر من نصف ساعة ولم يكن أحد سواي في الصالة. دخلت من جديد إلى مكتب المحامي. هذه المـرة لاحظت ما يشبه طفلاً يجلس قبالته. أراه من الخلف. لا يبدو منه سوى قفا الرأس الصغيرة، والشـعر الأسـود القصـير والرقبة النحيلة.

قدمت نفسى: أنا المستأجر القادم من طـرف السـيدة دوسيولييه. وفجأة وقبل أن أنهي كلامي، جاءني صوتها الذي أعرفه من التلفون.

انبعث الصوت من أحد المقاعد الوثيرة الجلدية المقابلة لمكتب المحامي... ومن ذات المقعد الذي ظننت طفلاً يجلس عليه في بادئ الأمر.

أنا مدام دوسولييه... نحن في انتظارك منذ أكثر مـن نصف ساعة. قلت: عفوا، لقد كنـت أنتظـر فـي الصـالة

الخارجية. ولم أضف شيئًا عما يدور في خيالي من المفاجأة، واختلاف الواقع عن الصورة الكامنة في أعماق الذاكرة.

كان الجسم جسم طفل غير عادي... أقرب إلى القزم... العمر يقارب الخمسين على الأغلب. القامة قصيرة... الرداء بسيط رمادي يميل إلى الأزرق... الوجه لا يحمل تعبيـرات كثيرة.

قدم لي السيد المحامي الأوراق وأنـا أوقـع والسـيدة المالكة تقول عني للمحامي: هذا مستأجر من النوع الكامل... علاقتنا على أحسن ما يكون... ليست بيننـا مشـكلة ولـن تكون.. أضف إلى ذلك أنه فنان متيم يحب باريس.

وخرجنا معا من مكتب المحامي... هبطنا في المصعد. عند الباب أشد على يدها.. مرة أخـرى أحـاول أن أكـون صعيديا كريما... وعلى الطرف الآخر من الشارع مقهـى:" تجيء نشرب قهوة أو شاي"... تشكرني ونفترق.

السنوات الخمس التالية في باريس، وفـي الاسـتوديو نفسه. كانت قد بردت علاقتنا حتى وصلت في بعض الأحيان إلى أن أرسل إليها الحوالة البريدية دون أي كلمة.

اكتشفت السبب بعد الزيارة لمكتب المحامي. لقد وقعت أوراقًا رسمية تجعلني مستأجرا يخضع لكل قوانين ارتفـاع الإيجار السنوية، فكانت ترسل إلي قصاصة مـن الصـحف نشر عليها القانون الجديد، وتملأ الخطابات حسابات وأرقاما، ما بين جمع وقسمة وضرب وطرح، وأحيانا جبر وهندسـة. وفي النهاية تقول لي مثلاً: لقد زاد الإيجار هذا العام عشرين بالمائة.

منذ هذه الزيارة الرسمية... والإيجار يرتفع بجنون... لقد تصاعد إلى الضعف. وأصبحت أدفع إيجار الشهر مقدار ما كنت أدفع في شهرين تماما.

* * *

## معرض مع صديقة الصعاليك

وبشعور خفي دخلت هذا الممر التجاري ما بين السان جرمان وسانت اندريه على سبيل اكتشافه.. إلا أني لم أكـن أعلم أني سأقضي أكثر من ساعة هناك قبل أن أصـل إلـى مرسمي الموجود في نفس المكان ولكن خلف المبنى نفسـه على شارع السان جرمان الكبير.

وكان الإعلان للفنان الفرنسي جيرارد مكدسا بكميـات كثيرة على فترينة زجاجية، نفس الإعلان الجميل الذي كنت قد لاحظته منذ أيام في شارع السين واستوقفني عمل الفنـان في الإعلان البني اللون.. صورة لكل آدمية تتعانق وتتعاطف في حب. وبجانـب الصـورة. لوحـات بـارزة بالنحـاس المطروق..( شبيهة إلى حد كبير بلوحات النحاس المطـروق لفناننا جمال السجيني).

هذه المرة لست واقفا أمام إعلان فقـط، ولكـن بعـد لحظات قصيرة اكتشفت أن خلف الزجاج توجـد اللوحـات النحاسية المطروقة نفسها.. قلت لنفسي هذا مكاني.. أشـعر بألفة شديدة مع هذه القاعة.. فهي متواضـعة.. فـي ممـر تجاري له سمعة الشوارع الخلفية النظيفة التي تعبـر عـن

النبض الحقيقي لمدينة كبيرة كباريس.. مظهرها الخـارجي دائما مزيف ولكن هنا الحقيقية بعينها.

خلف الزجاج وسط الإعلانات، كانت هناك سيدة فـي السبعين.. لها عطر باريس من بعيد. تجلـس علـى مكتـب فقير.. عليه تليفون وأوراق كثيرة وطفايات سـجاير عديـدة تدخن باسترخاء. سحابات الدخان تحوم حولها فتبـدو كأنهـا تطير أو تحلق مع سحب الدخان.. وردة واحدة أمامهـا فـي كوب عتيق أنيق، بجانب المائدة. على الأرض زجاجة نبيـذ أبيض.. تتأمل وهي تدخن.. وكـأن عينيهـا الخضـراوين الجميلتين تريان أشياء بعيدة لا يراها أحد سواها.

على الجدران لوحات النحاس المطروق. ما زلت أقف على الباب أقرأ الإعلان على الباب: الفنان الفرنسي جيرارد رينارد. المعرض الأول في باريس فـي قاعـة فرانسـواز برنار.. هنا.

أتأمل السيدة مرة أخرى.. إنها في الغالـب فرانسـواز برنار.. وهي تبدو كإحدى بطـلات لوحـات" مـاتيس" أو رنوار".

أفتح الباب هذه المرة دون موسـيقى كعـادة قاعـات باريس. ولكن بصوت مشروخ نتيجة ارتطام كعـب البـاب بالبلاط القديم المحطم على الأرض. الجدران مكسوة بنـوع من الخيش واللوحات تخاطب قلبك وتحدث ذلـك الصـراع الشاعري الجميل نحو مواضيع الحب والأمل والجـنس والأم والأسرة والطفل والميلاد والموت وكل شيء بداخلك.

السيدة التي أرجح أنها" فرانسواز" تحيينـى فـي أدب وترحب بي وعلى فمها ابتسامة طيبة كبيـرة. أدور حـول الصالة أتفحص الألوان والخطـوط وكتـل النحـاس. وقـد أعجبني عمل الفنان... وقع بصري وسط لوحاته على وجـه السيدة مرة أخرى فوجدتها تراقبني وتتطلع إلي ببداية ابتسامة أو كلام.

أقدم لها نفسي. تقف ومعطف الفرو خلفها على الكرسي وتبدو من ملابسها دقة الأطراف وأناقة الملابـس وألوانهـا التأثيرية بمعني ذوبان اللون الوردي مع أزرق الفاروزي مع أخضر النبات ويختلط الأصفر البارد في شعرها مع الأخضر المتوحش في قبعتها. يتدرج الأزرق الهادئ في ردائها مـع الأزرق المتوقد بالحمرة كأنه النار التي انطفأت منذ لحظة.

إنها نوع من سيدات باريس التي يختلط فيهـا سـحر الشباب مع سحر الشيخوخة.

في باريس تستطيع أن تتذوق الشيخوخة وخاصة فـي المرأة جمالاً وسحرا معينين تقول:

- هذا فنان صديق يعرض عندي لأول مرة. إني أحب أعماله بصفة خاصة. لا أبالغ إن قلت لك أنه يضـع أقدامـه لأول مرة في باريس ليخطو بعد ذلك نحو الشهرة والمجـد. يعيش في الريف الفرنسي في بلدة صغيرة اسـمها فونتـان بلو.. يحضر هنا يوميا ليلتقي بالناس ويناقشهم حول أعماله. إنه أفضل العارضين في قاعتي هذا الموسم انظر ما كتبـت عنه الفيغار والموند والغاليري دي آرت.

ويطول الحديث لأقدم لها نفسي.. فنان مصري عرض في النادي المصري بباريس.. أرجو أن أعرض مرة أخرى في هذا الموسم في صالتك هذه.. مرسمي على مقربة.. هـل يسمح وقتك بالحضور يوما لزيارتي ومشاهدة رسوماتي.

تحييني السيدة: بكل سرور – تفتح دفتر الأجندة وتحدد لي موعدا – الاثنين صباحا بعد عودتي من عطلـة نهايـة

الأسبوع التي أقضيها خارج باريس. سأعود صباح الاثنين.. سأكون عندك الساعة الحادية عشرة.. أرجو انتظاري.

مرسمى في شارع ضيق في حارة من حواري" السـن جرمان".. شارع دوفين رقم ٤٤ ثاني دور حجرة صغيرة أو استوديو.. خليط من كل شيء من نوم وأكل ومطبخ وحمـام وألوان الزيت تختلط مع ألوان السلاطة والأكل فـي مثلـث صغير من ركن الاستديو... زوجتى تطبخ في نفس المكـان الذي أرسم فيه أيضا.. وفي كل مرة نجلس في مكان واحد... ذلك المثلث الصغير من الحجرة. أرسم أنا وتطبخ هي. أقول لها نفس النكتة القديمة.. لما نشوف مين اللى حيطبخ أحسن.

سقف المرسم مليء بـالألوان. إنـه مرسـم الفنـان الفرنسي( جوجواه) استأجرت المكان منه. كان قد استبد بـه الحال فزهد في حياة باريس وراح يتجول في اسبانيا يبحـث عن جديد. أرسل له كل أول شهر أجرة الحجرة حتى يستطيع أن يعيش بها هناك.

جاءت في الموعد وعلى رأسها قبعة كبيرة وبملابـس الرحلة وأسفت لأنها لم تستطع أن تمر على بيتهـا لتغييـر ملابسها بملابس الصباح.

راحت تتطلع إلى اللوحة الأخيرة على حامـل الرسـم أسقف البيوت الرمادية في حواري الحـي اللاتينـي. نفـس المنظر من النافذة ولكنه في رؤية تختلط مع الخيال ورؤيـة باريس. مداخن البيوت والأسقف تشـابكت والنوافـذ علـى الجدران ونباتات التسلق وأزهار الاوركيد تتسلل حول النوافذ في ألوان مشرقة. والمدينة خاوية لا إنسان ولا حيـوان ولا طير.

جلست تشرب القهوة التركية التي صنعتها لها زوجتي. تتأمل لوحات أخرى. تتوقف عند الملامح المصرية والوجوه السمراء في لوحات الأحياء الشعبية وأطفال الحارة وقالت:

هذه أعمال لها طابعها وشخصيتها. لابد أن أعرض لك بقاعتي في أبريل. تعال غدا نتفق. ونكتب العقد.. عليـك أن تساهم بجزء بسيط لإيجار القاعة.. وأرجو أن أبيـع بعـض لوحاتك.. سأدعو أصدقائي نقاد الموند والفيغارو والغـاليري وأخبار الفن.. من الأفضـل أن يفتـتح المعـرض السـفير المصري في باريس وكذلك المستشار الثقافي.

في الليلية السابقة للافتتاح كانت القاعة قد انقلبت رأسا على عقب.. عامل ينظف المكان.. أنـا وصـديقي الرسـام

إيهاب نعلق اللوحات.. والسيدة فرانسوز تحضـر الأزهـار الجميلة والستائر.

في تلك الليلة تحولت القاعة إلـى خليـة نحـل مـن المدعوين والأصدقاء، ونقـاد الفـن وبعـض الشخصـيات المصرية وقليل جدا من الشخصيات الفرنسية.

في اليوم التالي لمعرضي.. تبين لي الوجـه الحقيقـي للمعرض.. كأن الافتتاح كان حفلة مقنعة.. كأي حفلـة مـن حفلات لقاء الأصدقاء وشرب الأنخـاب ولقـاء الأحبـاب.. كلمات النقاد سطور قليلة.. لوحـة واحـدة بيعـت والبقيـة عبارات إطراء تسمعها في كل افتتاح معرض، هذه اللوحـة تذكرني برنوار.. وهذه تذكرني بماتيس.. وهذه فـان غـوغ وأخـرى غوغـان..( إنـك فنـان أصـيل.. لـه طابعـه الخاص)..( أنت لا تقلد أحدا)..( أنت لست رساما فقط أنـك شاعر أيضا).

في اليوم التالي.. تبين لى وجه السيدة فرانسوز الحقيقي صاحبة القاعة.. لم أكتشف بها أي زيف أو دهاء أو شر.. إلا أنها من فرط طيبتها، صديقة لمجموعـة الصـعاليك الـذين يسمونهم في باريس( الكلوشار).

كانت الوحيدة في المعرض وحولها زجاجتان من النبيذ تشرب منهما.. وهي تحدث في شيء غير منظور.. أحيانًـا تتوقف أمام لوحة من لوحاتي كانت دائما تقول لي أنها تحبها أكثر... تنظر وتضيع النظرة ثم تشرب من الكـأس، ويمـر عليها صعاليك الحي.. يظهرون لها حـبهم للفـن والرسـم ويتكلمون بعض العبارات الرنانة عن الفن مثل..( لا يخـرج فن عظيم إلا من حزن عظيم). ويقولون براڤو.. براڤو.. ثـم يجدون الكأس مليئًا بالنبيذ تقدمه لهم على التوالي فيشربون.

تكرر الحال بعد ذلك كل يوم. جالسة وحدها تنظر إلى شيء بعيد لا نعرفه. حولها لوحاتي تؤنس وحدتها كما تقول لي كل مرة. لا تتصل بناقد ولا تدعو شخصية ثقافية أو فنية أو من معتني اللوحات ومديري المتاحف. لا تتحرك!

هي التمثال الجميل الأنيق. كل يوم ترتدي زيا جديدا له شخصية مميزة في اللون والأناقة. كل مرة تغيـر تسـريحة شعرها الأشقر الطويل. أحيانا تبدو بشعرها المسترسل. أحيانا أخرى بقبعتها الكبيرة تضع الأصباغ كل مرة أدخـل أراهـا وأمامها أزهار جديدة جمعتها بنفسها كل صباح. وزعتها في ذوق رفيع أمامها على المكتب ووسط القاعة وعلى الباب.

إلا أن زجاجة النبيذ كانت دائمـا تحـت مائـدتها أو مكتبها. كأنها شيء هام تماما مثل التليفون الذي أمامها.

كل مساء أجلس أمامها أرسـمها. أصـبحت مـوديلي المفضل. تبتسم وتتحدث بلباقة ولهجة الباريسـيين الأنيقـة. اضطررت أن أعتمد على نفسي وأن أقوم ببعض الاتصالات لدعوة أهل الفن وما أعرفهم من المستشرقين فـي بـاريس والفرنسيين القلائل الذين أعرفهم حتى وفقت أن أبيع لوحة ثم لوحتين بعد مجهود مضن.

أما المساء فأغلب الأمسيات كنت أهرب من المكـان. فهو موعد مرور أصدقائها مجموعة الصعاليك المثقفين الذين يحضرون يشربون بعد فترة مديح وكلمات الإطراء للقاعـة والفلسفة في الفن وبعض الكلمات حول تاريخ العباقرة أمثال اوتريللو ولوتريك اللذين عاشا في باريس ولم يشتهرا إلا بعد مماتهما.

في نهاية المعرض كنت قد اكتشفت وجها من وجـوه الفن الباريسي. رغم وجودنا في نفس الحـي الـذي يسـوق اللوحات والتماثيل للعالم.

في اليوم الأخير جمعت لوحاتي وحملتها إلى مرسـمي القريب فلم أجد صعوبة كثيرة في حملها وخاصة بمسـاعدة الأصدقاء الذين كنت أجمعهم من المقهى المجاور تحت نافذة مرسمي.

أصبحت التجربة منتهية تماما. وإن كنت قـد تعلمـت منها أشياء كثيرة من علاقتي بالسوق الفنيـة فـي بـاريس، ظهرت لي بعد ذلك صفحة في إحدى مجلات شمال أفريقيـة تتحدث عن المعرض وبعض الكلمات الأخرى جمعتها.

عدت أرسم من جديد وألتقي بالأصدقاء القـدامى فـي مقهى البوليه ماجووه.

## وجدتُ مرسما في" فم الكرة الأرضية"

لم أفهم قصة" مدينة الفنون" على شاطئ نهـر السـين وسط باريس في الحي الرابع. إنه مبنى فخم حديث رائع يكاد يكون تحفة معمارية حديثة بنيت على نمط منـازل بـاريس الرمادية القديمة، لكنه كأي شكل تقليـدي يفتقـر إلـى روح الأصالة.

كنت قد زرت هذه" المدينة" مع صديق دعاني هناك إلى مرسمه. فنان بالصدفة، أميركي التقيت به في إحدى قاعـات عرض سان جرمان، وعندما زرته في مرسمه( الفورمايكه) وجدته يلون لوحة زيتية على الجدار طولها أكثر من عشـرة أمتار، وقد ألصق القماش على الحائط وراح، كما يقولون في لغة الرسامين عندنا" يعك.. ويعك"، فاللون معجـون بلـون آخر. الأحمر بالأصفر، فالأزرق فالبني والأخضر، وطالمـا أنه" يعك" بالألوان في تجريدات سخيفة، فإني لم أفهـم مـن لوحته شيئًا. ندمت على وقتي الضائع فـي هـذه الزيـارة، وندمت من أجله لأنه أضاع نقوده في شراء الألوان والقماش رغم أنه راح يحدثني عن لوحته كأنه" بولوك" آخر.

وبالمناسبة بولوك هو الفنان الأميركـي الـذي حـول التأثيرية والتكعيبية والتعبيرية إلى فن تجريدي على طريقـة" الشخبطة" بالفرشاة ولوحاته كانت فـي الخمسـينات موجـة جديدة في عالم الرسم الحديث.

كان لهذه الزيارة أثر كبير في قصة بقائي في باريس، فقد قدمت طلبا في اليوم التالي لحجز مرسم لي فـي مدينـة الفنون.

تناولت مني الفتاة السكرتيرة في" كونتوار" الاسـتقبال استمارة التقديم، وقالت لي باستهتار مع قليل من الإخـلاص: عليك أن تقف في الطابور... ربما سنتين، ثلاث سنوات، أو خمس سنوات حتى تحصل على مرسم هنا.

وذهلت كأني أقول لها لماذا؟ ألست مثل بقية مخلوقات ربنا من الفنانين المشعوذين الذين يملأون هذا المبنـى، مـا عليكِ، فهذه ليست غلطتكِ. سـأنتظر حتـى تصـل لحيتـي الصغيرة إلى منتصف قامتي وتصبح مثل لحية دافنشـي أو لحية" كلوشار" محطة مترو شاتيليه.

وقالت لي السكرتيرة بعد ذلك: مـا جنسـيتك؟ أنـت مصري. إن مصر ليس لها حصة من الأرض أو البناء. إنها

لم تشترك في المزايدة التي قدمناها إلى كل دول العالم. ليس من حقك الحصول على مرسم هنا. عندنا حاليا، وربما كـان ذلك ممكنًا في فترة الصيف والإجازات حين يذهب الفنـانون ويتركون مراسمهم فارغة للاستئجار.

وتمتمت ولم أقل شيئًا، وكأنني أقبل الأمر الواقع... على أي حال أصبح لـي" دوسـيه"( ملـف) يحمـل كتالوغـات معارضي العشرين التي قدمتها في البلاد العربية وأوروبا.

وتركت المكان ونسيت قصة طلبي لمرسم في مدينـة الفنون... كنت ما زلت طالبا للغة الفرنسـية فـي مدرسـة" الأليانس" في بوليفار راسباي، وكان من حقنا أن نبحث فـي الإعلانات اليومية عن بعض الفرص لاسـتئجار حجـرات لبضعة شهور لا أكثر وأحيانًا تصل المدة إلى ستة شهور أو عام بأكمله بأسعار زهيدة.

وتقلبت بين أماكن عديدة، من مرسم في مونبارناس إلى غرفة فوق السطوح أو كما يقولون( شامبر دي بون). وكنت أسهر أحيانًا في مقهى( البوليه ماجوره) وأنام فيه حتى يطلع الفجر.

وجاءتني دعوة من أسرة فرنسية( إيفان وتيانا وطفلهما جواندال) وهم أصدقاء قدامى كنت قد تعرفت بهم في إحـدى المرات بالصدفة عن طريق صديق آخر، واشتروا مني لوحة منذ سنوات وكانوا يدعونني أحيانًا في نهاية الأسبوع للذهاب إلى( الكامباني) أي الريف.

هذه المرة بحثوا عني وقالوا لي: لن ننسى رسومك لنا التي نحتفظ بها بتقدير شديد. نريدك أن تكون معنا في إجازة الصيف. سنذهب إلى بلدنا في" البريتاني"( هي فـي الشـمال الغربي لفرنسا) سنمر على أسرتنا بالسيارة ثم نأخذك معنـا إلى جزيرة صغيرة في المحيط الأطلسي اسمها" مولين".

وأعجبتني الفكرة فلبيت الدعوة. وحين وصولنا، تركنا السيارة على الشاطئ في" بريست" التي يسمونها فـم الكـرة الأرضية، ربما لأنها على الخريطة تشبه فم الكلب الـرابض على شاطئ المحيط. ثم استقلينا مع آخرين سـفينة سـريعة تنقلنا في ثلاث ساعات تقريبا إلى هذه الجزيرة.

"مولين" جزيرة صغيرة لا تتسـع سـوى لخمسـمائة شخص وهي عبارة عن حديقة واحدة رائعة الجمـال، فيهـا مكتب بريد ومقهى ومطعم ومتجر وكشك جرائد وصيدلية..

وكل علاقتها بالعالم هو طائرة هليكوبتر ترسو مرة واحـدة كل صباح أمام مقهى الميناء الذي استهواني وجلسـت فيـه أتأمل المحيط والصيادين وطيور النورس التي تملأ الأفـق، وطبعا شروق وغياب الشمس الملبدة أحيانًا بالسحب.

كراستي معي أرسم مراكب الصيد التي رسمها عباقرة الرسم في القرون القديمة ثم الوسطى حتى عصر النهضـة، إلى العصر الإنكليزي( تيرنر) حتـى التـأثيري الهولنـدي (فان غوغ).

إنها كخفقات قلب تتقلب مع الموج، تفرح بالصـيد ثـم تصمت مع الغروب وتنام مع الشمس ثم تصحو مع الفجـر، هذه المراكب الصيدية البسيطة المتواضـعة كأنهـا إنسـان، تنبض كل لحظة بالحياة وتنقل إلينـا البحـر بكـل طباعـه المختلفة.

استهوتني مواضيع رسم مراكب الصيد علـى شـاطئ جزيرة" مولين" ووجدت على الطاولة المجاورة فنانًـا آخـر فرنسيا يرسم بطريقته التأثيرية كل شيء أمامنا. وكأننا نحـن الاثنين فنانان في مرسم كبير أمام موديل واحد.

ومن أول وهلة التقينا بالرسم وبالكلمـات... وأصـبح لقاؤنا كل صباح للرسم مشجعا كبيرا، يجمعنا الفن الذي نحبه ونحن في بقعة بعيدة من الكرة الأرضية.

انتهت أيام الإجازة وحملنا حقائبنا مع الأصدقاء إيفـان وتيانا والطفل جواندال وسار معنا الفنان الفرنسي( برتـران) حتى يودعنا إلى المركبة التي تقلنا إلى الشاطئ الآخر.

شد على يدنا برتران وهو من أهل الجزيرة، وكأننا كنا في ضيافته ونظر نحوي قائلاً: أنتَ فنان غريب في بـاريس تبحث عن مرسم، ما رأيك؟ سأعطيك مفتاح مرسـمي فـي مونمارتر في باريس. إني أبقى هذا الموسم في بلدتي بريست مع أسرتي في البيت الكبير وأستعد لمعرض كبير فـي أهـم قاعة في بريست. ربما لن أحضر إلى باريس هذا الموسـم. خذ، هذا مفتاح مرسمي وهـذا هـو العنـوان: ٦١ شـارع دامرمون، السلم الخلفي الدور الثـاني... سـأكتب إليـك إذا قررت الذهاب إلى باريس.

ولم أتصور أني قد ذهبت إلى جزيرة نائية على طرف الكرة الأرضية لأعود ومعي مفتاح مرسم في حي الفنـانين

"مونمارتر" حيث رسم عباقرة المدرسة الفرنسية في بداية هذا القرن: موريس أوتريللو، لوتريك، وفان غوغ.

عدت باريس، وبدلاً من النـوم فـي مقهـى" البوليـه ماجووه" أو النوم في غرفة الطفل جواندال مع أسرة صديقي إيفان وزوجته تيانا، وبدلا من التنقل حسب إعلانات المسكن في مدرسة الأليانس، بت ليلتي في مرسم في مونمـارتر... مجانًا.

## الفنان برتران ومرسم الدامرمون

رفع المتشرد العجوز أو كما يسمونه( الكلوشار) زجاجة النبيذ الأحمر ليفرغها في جوفه. سقط بعدها على قارعة رصيف المترو تحت الأرض بتأوه. سقطت معه كلمات كثيرة سريعة غير مفهومة أغلبها مضحك وإن كان يقولها وهو يغني أو يبكي. على الرصيف الآخر وقفْت بين عشرات المتفرجين الذين يتسلون بالمشاهدة حتى يأتي المترو السريع.

المترو يقترب. يدخل المحطة. يصفر يشق بصوته وبجسمه الكرة الأرضية. فوقنا ثلوج وأمطار. نحن هنا في دفء وحرارة معتدلة. يتوقف المترو. تنفتح الأبواب من تلقاء نفسها وهي تُحدث ذلك الصوت الذي يصفق بفزع شديد. نهرول نحن إلى الداخل وسط سكان باريس وضواحيها وسياحها. أجسادهم متلاصقة أحيانًا. لا أحد يرى الآخر. الكل يتحدث في الأسطوانة السوداء التي تحملنا. تجري بنا في الدهاليز المظلمة. تتلوى داخلها كأننا جميعا ثعبان هائل يزحف ويزوم ويزمجر. الأجساد تتحرك بداخلها بحرص. لا أحد يمس الآخر. حتى الملتصقان في حب أو بدون حب هم

أيضا بلا حس غالبا. المتكلمان يكاد لا يسمع أحدهما الآخر. الحديث يموت داخل الأسطوانة السـوداء. صـراخ الآلـة البخارية التي تحملنا يخرس جميع الأصوات البشرية حولنا. نسكت لا نتكلم على مضض يهرول بنا المترو في الظلام في كل فترة تقف القاطرة. تزدهر الألوان فجأة تشعر أنت تعيش مرة أخرى. العيون تتفتح في فضول. ثـم تتـابع خريطـة المحطات المتتابعة في أعلى المقعد. كل محطة باسمها. الاسم غالبا اسم قائد معركة في التاريخ الفرنسي. أو عبقري فـي الطب أو الكيمياء. عبقري شاعر. عبقري أديـب. عبقـري رسام. قديسين في كل مكـان. القـديس ميشـيل. القـديس جرجس. القديس سلباس. القديس جرمان. وهكذا.

نقرأ اسم المحطة رغم أننا نعرفها وقرأناها مـن قبـل فجأة يتوقف المترو. تزمجر الألوان.. تضاء الأنوار. تقـرأ إعلانات كل محطة( اشرب نبيذنا المعتق. البس لباسـنا. ذق جبنتنا، تعلم الألمانية والإنكليزية. عليك بمدرسـة بيرلتنـر. ايفيان ماء الشرب النقية القادمة مـن أعلـى جبـال الألـب المثلجة. أقلام الفيلتر الملونة تجف حالاً. انظر صـدر هـذه الفتاة العارية. إنها تستعمل سوتيان تونيك الذهبي).

تختفى الإعلانات. تنتهي الألـوان. تخفـت الأضـواء الباهرة في لحظة خاطفة تكون قد قرأت كل إعلان رغم أنك رأيته في المحطة السابقة. تخرج مـن الأسـطوانة المليئـة بالأجساد الجافة الصامتة أو المتحدثة دون صوت مسموع.

المحطة هي محطتي. الخروج مـن المتـرو دون أي لمسة الحذر الشديد رغم كثـرة العـدد. اخـتلاف الهيئـات والأشكال والملابس والألوان واللغات. لا لمس. لا صوت. لا شجار صورتك في التليفزيون وأنت تهبط الباب يصفق عندما يغلق من تلقاء نفسه.

رحلة أخرى طويلة مع رائحة عفن تحت الأرض. رغم إعلانات الألوان المبهجة. الإعلان الواحد مكـرر عشـرات المرات حتى تحفظه عن ظهر قلب. غالبا عاريا. جسد رجل أو امرأة عارٍ.إعلان فيلم أو شـراب أو قمـيص أو مـايوه. الشباب يمزق الأعضاء التناسلية في الإعلان العاري. ربمـا يضيفون أعضاء أخرى يرسمونها بسرعة. ربما ينقلونها من نكت رسامي الكاريكاتير في بعض الصحف الإباحية.

تنتهي الدهاليز الطويلة العريقة. تبدأ السلالم الصـاعدة والسلالم الهابطة. الظلام رغم الإضاءة الكهربائية المعفن من

رطوبة الكرة الأرضية التي نحفر نفسنا فيها صعودا أو هبوطًا.

خارج المترو بخار مثلج ومطر. رعد. قشعريرة. الأبدان داخل جلود الحيوانات. خطوات سريعة متوالية. الباب الزجاجي يدفعه واحد أو واحدة. يسلمه مفتوحا للآخر دون أن ينظر خلفه. قال أحدهم: شكرا بالفرنسية. قال آخر دون داعٍ لجاره. عفوا دون أن يراه.

خرج الناس في المطر. لعن أحدهم الجو القذر. متى ينتهي هذا الطقس الحقير. ساروا في المطر. صعد بعضهم الطريق. هبط آخرون طريقًا آخر لا حديث حتى المتعانقان لا يتكلمان.

شارع اللامارك يسقط تحت مياه مستمرة. حركات العربات تخطف البصر. وقْع أقدام تقترب ثم تبتعد. صناديق القمامة على الجانبين في انتظار سيارة البلدية في الفجر. وقف أحدهم يعبث فيها بيديه عثر على شيءٍ. حمله معه.

أصوات قليلة تنبعث من نور أحمر. مقهى صغير به بعض الصخب آخر الليل. صخب مألوف من صندوق الموسيقى الأتوماتيك. شرب أحدهم كأس الكالفادوس

الملتهب. قال للآخر( ميرد).. ما معناه( زفـت) بالترجمـة المهذبة.

أهبط شارع لامارك ثم شارع الدامرمون.. هـذا هـو مرسمي في الدامرمون رقم ٦١، لم يكن لي أي اختيار لهـذا المكان في باريس. كان العثور عليه بمحض الصدفة. باريس المدينة المزدحمة بآلاف الفنانين والأجانب لا تستطيع أن تجد بها حجرة واحدة ولو على السطوح أو في الـدور السـادس تحت السقف المثلث ذي الشباك الزجاجي الذي تطل منه على السماء تتقبل رذاذ المطر الدائم أو هديره كالسيول أحيانًا...

أقدامي تخطو نحو شارع الدامرمون وأنا أعـود إلـى الوراء بعض الشيء متحملاً رذاذ المطر فوق رأسي. كـأن نقرات الماء توقظ ذكريات الصيف الماضي. ولقائي بصاحب المرسم القديم الذي أسكنه الآن.

والقصة تبدأ بصديقي ايفان وهو ينتظرني فـي مطـار أورلي. يتلقفني بترحاب زائد وهو يقول لي حضـرت مـن شمال فرنسا الغربي. قطعت بسيارتي فـي سـت سـاعات متواصلة ما يعادل ستمائة كيلو متر.. تركت تيانا وجوانـدال هناك في بريست على الشاطئ مع العائلة.

حضرت خصيصا لاستقبالك. أرجو ألا ترفض دعوتي للعودة إلى بلادتنا –بريست- والانضمام إلـى أسـرتنا هنـا وقضاء أسبوعا في جزيرة صغيرة نائية سنركب لها سـفينة صغيرة مدة ثلاث ساعات أخرى.. أنا أعـرف أنـك تحـب باريس وقد افتقدتها بعد فترة غياب طويلة. لذلك قد نظمـت لك برنامجا حافلاً. الليلية ستتجول في الحي اللاتيني وشارع دوفين حول مرسمك القديم لتعاود ذكرياتك. الصباح علينا أن نترك باريس بسيارتنا إلى شاطئ فرنسـا الغربـي لنلحـق زوجتي تيانا وابننا الصغير جواندال الذي لم تره حتى الآن.

في الصباح شرعنا رحلتنا وسط مروج الريف الفرنسي ومساحاته المنبسطة بالأخضر الهادئ وبعض بقـع الطـوب المثلثة الشكل لأسقف البيوت الوردية. مع أحاديثنـا الشـيقة ومرورنا على بعض البلاد الصغيرة نتوقف عنـد مقهـى أو أمام بعض الأديرة من العصور الوسطى نتأمـل عمارتهـا الشاهقة ونتلمس أحجارها وقد نبتت عليها بعض الأعشـاب الخضراء والأزهار الصفراء في حجـم قطـرات الأمطـار الصيفية التي تتساقط عليها من حين لآخر لنصل إلى أسـرة تيانا نقضي بقية اليوم ونكمل الطريق بعد ذلك ونحن نخوض

بسيارتنا وكل لوازم الرحلة والتموين وعربة الطفل جواندال لنصل إلى شاطئ المحيط الأطلنطي.

بدت أمواج المحيط أمامنا تضرب الصـخور وكأنهـا تداعبها كأم تداعب طفلها في حب ترميه بالماء في الحمـام فيضحك.

تركنا سيارتنا على الشاطئ في مكان معـد للسـيارات يزدحم بأكثر من مئة سيارة خرجنا مع عائلات كثيرة ننتظر العروسة أو المركب التي ستجري بنا في المحيط بينما يصيح فوق رءوسنا طائر النورس البهيج أتابعه وهو يضـيع فـي الأفق ثم يعود يزغرد.

قال لي ايفان. سنذهب إلى جزيـرة مجهولـة وسـط المحيط الأطلنطي. لنا قريبة هناك نعرفها بالاسم فقط ولكننـا سنبحث عنها سنسأل على مدام( زوجيا) ستعطينا حجـرتين نعيش فيها أسبوعا. نحن لا نعرف الجزيرة ولكننـا سـنراها لأول مرة.

كان لقائي بالجزيرة كأنه حلم جميل.. جزيرة لا يزيـد من فيها أكثر من خمسمائة شخص. ليس بها عربة واحـدة. مقهى واحد صغير وكلهـا أزهـار وشـجيرات الأوركيـد

الصغيرة.. وطائر النورس. الأشجار تقلعها الريح. السيارة لا تفيد. الحياة تعود إلى بدء الخليقة. في نفس الوقت تجد محـل واحد من اخدم نفسك. تجد فيه كل ما يلزمك في البيت مـن أكل إلى ملبس إلى أدوات منزلية ثلاجة بها لحوم وأسـماك ومعلبات في ورق النايلون. زجاجات النبيذ المختلفـة مـن العادي حتى البوردو. من معجون أسنان حتى البدلة والفستان والبيك أب.

لقاء الفطرة الطبيعة مع التقدم العلمي. الشاطئ أمامنـا مليء بمراكب الصيد.

أكتشف المكان المفضل لي. مقهى المينـاء. المقهـى الوحيد في الجزيرة. أجلس أمام البحر. معي كأس الباسـتيس الأصفر ثم كراسة وعلبة ألوان.. عندما عرفـت( برتـران) صاحب مرسم دامرمون ٦١ جاء نحوي ومعه كراسته أيضا: قال لي أنتَ رسام وأنا رسام أيضا.. ما رأيـك نلتقـي كـل صباح على مقهى الميناء هنا. نرسم جميع وجوه شخصـيات الجزيرة. صحت بسرعة: فكرة رائعة فلنبدأ الآن.

اختلطت حولنا الشخصيات. رسـمنا الفتـاة الجميلـة الصغيرة والصياد العجوز ذا الوجه الأحمر في لون النبيـذ.

رسمنا ايفان وتيانا أصدقاءنا المشـتركين. الرجـل البـدين صاحب صفارة المركـب التـي تحضـر إلـى الجزيـرة الاسكتشات السريعة نهديها، الرسوم نحتفظ بها.

بدا برتران لنا شخصية غير واقعية. يجلس أمام البحر يحلم. يدخن بشراهة سـجائر أميركيـة لا يـدخن الغلـواز الشعبي. يميل للوحدة كمـا يميـل أن يصـبح واحـدا مـن الخمسمائة الذين يعيشون في الجزيرة تقفز فتاة خلفـه. مـن حجرة نومها تحمل الرغيف الريفي الكبير تناديـه: برتـران اذهب اشتر لنا بعض البيض واللحم والجـبن. النبيـذ هنـا متوفر. فلنصنع مائدة شهية. سهراته لا تنقطع. ينام الفجـر. يصحو وقت الظهيرة باحثًا عن لقمة وجـبن ونبيـذ لحيتـه طالت. قال سأطلقها لأول مرة. هذه الإجازة أريد أن أتحـول إلى إنسان صوفي يتعبد في الطبيعة. يبحث عن أصدقاء جدد. هذه الجزيرة النائيـة جـذبتني بسـحرها البعيـد وناسـها الطيبين( ميرد) لباريس وأهلها المتسرعين الغاضبين دائمـا. كم أكره باريس بضجيج سياراتها. وسرعة حركتها وزئيـر المترو تحت الأرض. صعود السلام وهبوطها.

انتهت أيام الإجازة الأولى في هذه الجزيرة ذهبنا إلـى مقهى الميناء نحمل حقائبنا الصغيرة.. كنا على موعـد مـع برتران لشرب كأس في صحة أيام الإجازة ولقائنـا الأخيـر وكان بانتظارنا على طاولة قديمة من الخشب البسيط وكرسي ليس له مسند. متطلعا كعادته إلى البحر. مع أوراق وبعـض الألوان. جلسنا حوله ونحن في وداع وهو يقول لنا: سـأبقى أسبوعا آخر هنا أرسم قليلاً وأتأمل كثيرا. يكفيني طيلة العام ما رسمته. سأعود إلى مدينتي على المحيط الكبير( بريست) سأعرض هناك لوحاتي ربما أبقى قليلاً قبل أن أعـود إلـى مرسمي في باريس مونمارتر. هذا هو عنوان مرسمي فـي باريس. ربما نلتقي وتبادلنا العناوين وأرقام التليفونات. كتب لي برتران في نوتة العناوين. برتران لاموان – ٦١ شـارع دامرمون باريس ١٨...

بعد هذا اللقاء بشهر تقريبا. لقاء الجزيرة البعيـدة فـي الأطلنطي اتصل بنا برتران من مدينته على الشاطئ قائلاً أنه لن يعود هذا الشتاء باريس. لقد تعاقد مع قاعة للعرض لهـا بصفة دائمة في بريست وأنه متفق مع بعـض الشخصـيات لعمل رسوم لوجوههم( بورتريه) وأن هذا يدر عليـه ربحـا

وفيرا ومن الأفضل الاتصال بشقيقته في باريس لأن معهـا مفتاح المرسم وكذلك لأنها تعرف بوابة المنزل.

بعد لقاء الجزيرة بشهر كنت أضع المفتاح في البـاب وعليه اسم الفنان( برتران لي موان). أو برتران الراهـب، وهو معنى الاسم. لم أكن أتخيل إطلاقًا وهو يكتب لي عنوانه ونحن في الجزيرة البعيدة في المحيط على مقربة من شاطئ فرنسا الشمالي. لم يطرق خيالي ألبته أنه سـيكون عنـواني طيلة مدة الشتاء في باريس.

توقفنا قليلاً أمام الباب. كانت( أكرة) الباب بـالمقلوب. بمعني أنك عندما تغلقها يفتح لك البـاب. قلنـا أن البدايـة سريالية وضحكنا.. عندما دخلنا المرسم كان شـعورا أكيـدا بأنه مكان مهجور تماما. حامل الرسم القـديم. لوحـة لفتـاة جميلة على الأرض. لوحة منظر طبيعي منقولة مـن لوحـة عالمية( لفلامنك).

كل هذا وأنا أتذكر قصة مرسم دامرمـون. كـان رذاذ المطر قد توقف قليلاً وبدأت في دخول العمارة التي يكمـن مرسمي خلفها. وأعاود مشاعري القديمة مرسم دامرمـون. حي الفنانين. بين ميدان الترتر ورسامي الوجـوه المـزيفين

وملاهي البيكال والسكس شوب ومقـابر مونمـارتر تحـت كوبري مونمارتر أتأمل الموتى. كل صباح ومساء.

في بادئ الأمر خشيت المرور أمام هذه المقابر وبحثت عن طريق بعيد آخر. إلا أني بعد فترة بدأت أراها جميلة. لم أعد أخاف الموت. أصبحت المقبرة أجمل من مرسمي لم يعد الموت يخيفني.

من الداخل يبدو المرسم كأنه مهجور تماما كأن به حياة قديمة ماتت. جدرانه زجاج. سقفه مثلث. ستائره سوداء خلف الزجاج. مدفأة منذ العصور القديمة تحتل ربع المكان بكتلتها السوداء ومدخنتها التي تخترق السقف.. تتوقـف ذكريـاتي وأجلس أمام لوحتي لأتذكر أول مرة حضرت هنا.

كنا قد دخلنا المرسم أنا وايفان وتيانا والطفل جوانـدال وبدأنا في التأكد من توصيلة الكهرباء من حسن حظنـا أننـا عثرنا على الماء والنور وكذلك استطعنا بصعوبة إدارة جهاز التدفئة القديم وإن كان يدخن بطريقة لا تساعد على التـنفس ففتحنا جزءا من شراعة الزجاج بينما خرجت تيانا تشـترى بعض المأكولات الجاهزة كما عثرنا على بعـض الأطبـاق

والأشواك وأدوات المطبخ.. وهيأنا مائدة عليها النبيذ والجبن وبعض اللحم.

شب الطفل جواندال على قدميه حتى ظهـرت عينـاه الزرقاوين في شقاوة خلف المائدة وشعره الأصفر وفي غفلة تناول طبق وطوح به في الهواء فسقط مهشـما إلـى قطـع صغيرة. سعدت والدته بذلك وقالت لي لا تنزعج فهذا خيـر تدشين للمكان.

ودبت الحياة في المكان مع موسيقى من جهاز صـغير ترانزستور وضحكات تيانا وصراخ جواندال بينمـا حضـر ايفان في اليوم التالي يملأ عربته بـبعض العـزال وأدوات المطبخ الجديدة والنوم وجهاز بوتاغاز صغير وسط المرسـم حامل رسم قديم عليه لوحة فتاة جميلة مرسـومة بأسـلوب التأثيرية. لا شك أنه أسلوب صاحب المرسم برتران. علـى مائدة صغيرة صندوق الألوان وقد جفت بمرور الوقت لم يبق منها إلا واحد أو اثنين.

كانت رحلة ألمانيا قد نجحت في بيع كثير من الرسـوم التي باعها لي غاليري كيللر. وكذلك فـي منـزل ادورنـو الريفي في ضواحي دسلدورف ولا أنسى تلك الليلـة وذلـك

الصباح التالي عندما عثرت على رزمة من مئات الماركات ثمنًا لثلاثة رسوم بالحبر الصيني على مائدة الفطار بينما الكا تقول لي وهي تعد القهوة لي وازوجها بيتر لقد بعنا اك ثلاثة رسوم الليلة الماضية ونحن نتحدث بعد العشاء مع صـديقنا المليونير الذي تناول معنا العشاء بينما أنت تغط في النوم بعد أن اعتذرت بإصابتك بالأنفلونزا.

حضرت باريس بعدها ومعي بعض النقـود الألمانيـة التي تكفيني للتفرغ لفني بضعة شهور في باريس. وها هـو المرسم أعثر عليه في أجمل أحياء باريس رغم عدم تـوافر الراحة الكافية... إلا أنه محاط بالزجاج والستائر. به حامـل الرسم وبعض الفرش وأنابيب الألوان. قـال لـي صـاحب المرسم في رسالته... تستطيع أن تستعمل كل أدواتي طالمـا أنني بعيد عن باريس.

حصيلة الثلاثة شهور أصبحت حوالي عشـر لوحـات جديدة بها باريس بألوانها الرمادية وسط مسـاحات شاسـعة البياض سقط الأبيض في لوحاتي كالجليد.. أصبح تعبيرا عن النقاء والصفاء. أول مرة أرسم البيوت والمناظر الطبيعيـة. تركت رسم الأشخاص. إلا أن البيوت الرمادية التي رسمتها

تحولت مع عجينة الفرشاة إلى أجساد وأرواح تبتهـل إلـى السماء البيضاء.

أخرج لحظات لأتأمل شوارع وبيوت باريس من جديد أتسلق شارع الدامرمون حتى أصل إلى بيـت قـديم عليـه رخامة مكتوب عليها بماء الذهب: هنا عاش الفنان غوغ مع أخيه ثيو في فترة ما بين ١٩١٣ – ١٩١٩. أتأمل واجهـات المنازل وقد ازدانت بعشرات التماثيل وتمثال يحمل بلكونـه. فينيس العارية تتسلق نافذة. مدخل الباب وجه روماني ورأس أسد. على بعض النواحي أيقونة للعذراء والطفل. من بعيـد تماثيل كبيرة وقبة الساكركير ترتفع فوق رأسي على هضـبة مونمارتر الشهيرة. كل شيء يرتفع في السماء. القائد علـى حصانه وقد اختلطت ألوانهم بخضرة باهتة. تماثيل القديسين في كل مكان. أهبط شارع موريس اوتريللو وأنا أتخيله يسير في نفس المكان يرسم لوحاته التي دخلت تـاريخ الفـن. إن مونمارتر بأزقتها وشوارعها الصغيرة العتيقة عرفها العـالم من خلال فرشاة اوتريللو. لقد وضع بصماته هنا وهناك. هذه الشجرة وهذا الجدار وتلك السماء الملبدة بـالغيوم. الطبيعـة

تشبه لوحات أوتريللو. كم كان صادقًا. لقـد أصـبحت أرى مونمارتر بعيون اوتريللو.

في بداية كل شهر أرسل إيجار الرسم البسيط بينما أملأ خزان المدفأة كل ثلاثة أيام بصفحة ثقيلة من المازوت أحملها بصعوبة وأجرجرها على السلم في بعض الأحيان كنت أنتهز فرصة زيارة الزميل الرسام إيهاب لي لنخرج نحملها سـويا أدفع فيها ما يعادل في الشهر الواحد إيجار المرسم.

تحققت أحلامي. اختلط الجبن مع النبيذ الأحمر وفرشاة الألوان وعدت أرسم من جديد حتى ضـاعت نقـود ألمانيـا وبدأت في رسم بعض أغلفة كتب الأطفال وتصوير لـبعض القادة ورسوم الشخصيات في بعض المجلات الشمال أفريقية التي تصدر في باريس.

روح صاحب المرسم تشع في المكان بصـفة دائمـة. صورته وهو جالس بذقنه الصغيرة وهي لا تزال تنبت وسط وجهه النحيل. ونظراته الواسعة للبحر ومراكب الصيد تكـاد تعبر القارات في تأملات لا تنتهي.

إلى أن وصلتني ذات صباح دعوة صـغيرة لحضـور معرضه في باريس.

كانت صورته مهزوزة في خيالي. جيراني برنارد وفرانسواز قالوا لي أنهم لم يروه منذ ثلاث سنوات كما لم يلحظوا أي نور في هذا المرسم قبل حضوري. صمت برنارد قليلاً ثم قال: يبدو أنه من أسرة من الطبقة الراقية التي تريد أن تقول فقط أن ابنها الفنان له مرسم في مونمارتر ليس إلا.

إنهم لا يعرفونه. لم يروه مرة واحدة. يعرفون دائما أنه مرسم يملكه فنان من طبقة الذوات.

أما شخصيته كما لمستها في الجزيرة شخصية فنان مرهف لكنه عندما أمسك القلم ليرسم كان أسلوبه مثل عشرات الرسامين في مونمارتر. أذكر أنه قال أنه يتقاضى على رسم الوجه خمسة آلاف فرنك.

هذه المرة سأتعرف على أعماله بشخصيته الفنية. من خلال معرضه. سأحضر الافتتاح مع تيانا وايفان. عندي شوق لمعرفة هذه الطبقة الأرستقراطية من فناني باريس المترفين.

في الموعد مررت على تيانا لأصحبها إلى المعرض بينما يلحق بنا ايفان متأخرا في المعرض.

ركبت المترو تحت الأرض مع تيانا وأنا أداعبها مقلدا حركات شباب باريس في المترو فتضحك.

عندما وصلنا المعرض كنا نبحث بعيوننا عن برتران، حتى عثرنا عليه في أحسن حالاته. واقفًا خلف برميل النبيذ المعتق من أجود الأنواع يبتسم وهو يفتح الحنفية الصغيرة ليملأ الكئوس ويقدمها لنا بينما البوفية به شرائح من الخبز الريفي مع الجبن واللحم.

زحام حول اللوحات فساتين وعطور وكلمات ترحيب ومجاملات وطرقعة ولاعات السجاير مع طرقعة قبلات التحية الباريسية بينما أقبل علينا ايفان لينضم إلى ركننا ونحن نتبادل النظرات بين لوحات الفنان برتران وبين الأصدقاء والأقارب.

اللوحات مجموعة عادية من أسلوب التأثيرين. بعض الشخصيات أغلبها نسائية وأخرى بها زهور وطبق فاكهة وسمكة. اللمسة الطازجة تتذبذب في اللون فالبرتقالي يتدرج في لمسات الفرشاة حتى يصل إلى الأحمر في حرارته أو يقل حتى الأصفر. بينما الأزرق ينتشر وسط الألوان الساخنة حتى ينتهي إلى الأخضر.

في نهاية الحفل تطوع ايفان وتيانا للتوسط لدى أسـرة برتران حول إيجار المرسم المتأخر وعندما عرف برتـران نوع الحديث استأذن للحظة واحدة وهو يقول سـأنادي لكـم سكرتيرة الشئون المالية للأسرة فهـي التـي تتـولى هـذه المسائل. عندما أقبلت علينا امرأة ضخمة الجسم وافرة اللحم كانت رموش عينيها ترتجف أو ترى بصعوبة خلف نظارتها لتتفق معنا على دفع آخر شهرين في الأسبوع المقبل. بينمـا ودعنا برتران شاكرين.

صورة حفل افتتاح معرض برتران لا تفـارق خيـالي وأنا أرى للمرة الأولى هذه الطبقة الأرستقراطية من فنـاني باريس.

إلا أن المفاجأة كانت في منتصف نفس الليلـة عنـدما كنت في طريقي إلى محطة المترو تحت الأرض المجـاورة لسان جرمان عندما رأيته على ناصية( الدراج ستور) يترنح من السكر مع امرأة ليل بينما يحييني بلا مبالاة أو كأنه غائب عن الوعي تماما. يترنح. يضحك في هيستيرية.. وقفته علـى هذه الناصية المشبوهة والمعروفة بالساقطات مـع صـديقته

العابثة تدل بطريقة لا تدعو مجالا للشك على أنهما زميلان في المهنة.

كانت هذه هي آخر مرة رأيته فيها وآخر عهدى بمرسم دامرمون. فقد توالت الأحداث بسرعة بعد ذلك. أرسلت لي مديرة أعمال أسرته وكذلك والدته خطابا تقول لي فيه أن المشاكل تأزمت بيننا وبين صاحب العمارة لأن العقد بينهما ينص على ألا يقطن المرسم ساكن آخر وإلا فإنه يهدد بعدم تجديد مدة بيع جدران المرسم وهو نظام فرنسي لم أفهمه تماما سوى أنه نوع من أنواع التمليك لفترة معينة، كما قالت مدام لي موان في نهاية خطابها أن ابنها ساءت حالته الصحية والعقلية لإدمان الخمر والشذوذ الجنسي وهو يعيش تحت رقابة الأسرة ورعايتها ويعالج بالعقاقير المهدئة ولذلك فهي مضطرة لبيع المرسم بمليون فرنك.

وعدت من جديد أرسم وألتقي بالأصدقاء القدامى في البوليه مأجووه.

* * *

**في مخفر البوليس الفرنسي ما اسم أمك؟**

في كل مرة أرى رجل بوليس يتولاني شعور غريـب بأنني مجرم... وكأنه التعليل الوحيد لوجود رجل البوليس في المجتمع. هذا الشعور يلازمني منذ طفولتي...

هنا في المهجر، ازدادت عندي هذه الفكـرة اللعينـة، وجعلتني أتوجس خيفة من أي رجل شرطة. عندما أراه على الرصيف أعبر الطريق إلى الرصيف الآخر. وإذا لمحته في الشارع حيث أسير أدخل على منعطف أو حارة. أعود مـن حيث أتيت وقد أدرت له ظهري.

على الأقل في بلادي أستطيع أن أتحاور معه، أن أخرج له" قفشة" لنضحك، أسأله: أهـلاوي والـلا زمالكـاوى؟ أو أغمزه بسيجارة" كليوباترة" وأشعلها له أيضا، وأحييـه كمـا أولاد البلد: نهارك أبيض.... .. نهارك فل.

أما هنا في باريس، فهو بوليس خواجه، يرتدي الأزرق السماوي، والقبعة مكعبة زرقاء أيضـا. الشـيء المشـترك الوحيد بينه وبين بوليس بلدنا هـو أنـه يضـع يديـه فـي وسطه( حتى تكون قريبة من المسدس).

على الرغم من ذلك، فعندما ضللت الطريق ذات مرة، تشجعت وسألته في لحظة ثقة بالنفس. فضرب لـي تعظـيم سلام وهو يفتح لي دليل الشوارع وخريطة باريس. إلا أنـي لم أكرر ذلك مرة أخرى، لأنني كنت أتصبب عرقًا وشعرت بركبتي تضعفان، وأنا واقف أمامه ناهيك عن نظرتي الخفية إلى طبنجته، وهو ينظر إلى عناوين الشوارع. وقد قلت فـي نفسي: ربما تكون خدعة، ليسألني بعد ذلـك عـن أوراقـي وجنسيتي ومدة إقامتي في فرنسا، لذلك لم أفهم شرحه لـي، وتركته مسرعا، وقد ضللت الطريق إلى أكثر من الأول.

كنت أعرف منذ مدة طويلة أن الشـرطة فـي خدمـة الشعب. لكن ما كنت أراه هو الشرطي الذي يضرب الشعب، متذكرا تظاهرات المدرسة في الجامعة... وما إلى ذلك.

# أولاد الحلال

اليوم موعدي للذهاب

إلى المخفر الرئيسي للبوليس في باريس. هـذه المـرة سأذهب بنفسي. فلابد أن أطلب الإذن بالسماح لي بالبقاء فترة ما في باريس.

قالوا لي: اذهب على محطة أنفاق مترو( سيتيه) ستجد هناك مبنى كبيرا كقصر قديم. تـدخل قسـم الاسـتعلامات، وتسألهم عن رقم الباب ورقم الدرج والطابق... وإن تعـذر ذلك.. قلت في نفسي: سأسأل أولاد الحلال من العالم الثالـث مثلي.

تشجعت عندما لم أجد نفسي وحيدا بل بين عشرات من أمثالي من العالم الثالـث بوجـوههم السـمراء والبرتقاليـة والسوداء والصفراء... من أفريقيا وآسيا والبحر الأبيض.

دخلت من الباب الذي منه يدخلون. وقفت معهـم فـي طابور غير منظم وسيدة تفتح قمرة صغيرة من الزجاج تتكلم من فوهة صغيرة حتى عندما جـاء دوري انتظـرت حتـى تخرج لي لأرى وجهها. فأنا كعادتي لا أستطيع أن أتحـدث مع أحد دون أن أضع عيني في عينيه. لكنها صرخت مـن

خلف الزجاج: اتفضل... اتكلم... أرني بطاقتـك. وبسـرعة وكأنها آلة تجاوبني، تفـتح الزجـاج الـذي يعلـو ويهـبط كالمقصلة. وقد أعادت إلى البطاقة ومعها ورقة مطبوع عليها عناوين الأحياء الباريسية. وقد وضعت علامة علـى الحـي الرابع، وعنوان قسم البوليس الذي أقطن فيه.

وخرجت أبحث عن العنوان الجديد وقد أصبحت الورقة التي أعطتني أياها هي الملجأ الوحيد لإقامتي فـي بـاريس. قرصت عليها بأصابعي وتشربت بالعرق طول الطريق حتى عثرت على المكان.

دخلت من جديد لأجد الناس أنفسهم. وقفت في طـابور آخر أقل عددا. تفرست في الوجوه لأجدها متعبـة مكـدودة، بالإضافة إلى لوحة شديدة من لوحات الأمومة من بلادنا. أم تحمل طفلها الرضيع وهو يصرخ عندما واجهت السـكرتيرة التي ستعطيني الموعد لمدة إقامتي، قلبت بطاقتي، وأول كلمة قالتها، وهي تنهرني:

- أنت ما تعرفش تقرأ؟!

فقلت لها، بعد تردد: لسه باتعلم في مدرسة الأليانس.

- لقد تأخرت. كان لابد أن تحضر قبل شهر. إقامتـك تنتهي غدا. خذ هذه الورقة وفيها الموعد بعد شهر ابتداء من اليوم.

ترددت من جديد، وتأتأت بفرنسية ركيكة لـم تفهمهـا وهي تقول: ماذا؟ ماذا؟ ثم أزاحتنى بوجهها وهي تنظر خلفي وكأنها تقول: اللي بعده...

**أسرتي الكبيرة**

بعد شهر، وفي الموعد المحدد، ذهبت مرة أخرى إلى المخفر الرئيسي. أدخلوني ومعي هذه الورقة الصفراء بعدما خاطبتني السيدة ذاتها من خلف الزجاج.

جلست بينهم. أسرتي الكبيرة البائسة المعذبة. سـيدات وأطفال وشيوخ وطلبة وطالبات من أفريقيا والبرتغال ولبنان وسورية وتركيا. لكن اللهجة الغالبة من لبنان. هـذه اللهجـة الحبيبة التي أستمع إليها في قلب باريس، وكأنها تسحبني إلى سحر جبل لبنان، إلى ذكريات برمانا وجبيل، إلـى روشـة بيروت والحمراء والهورس شو...

- مسيو أواض أوللاه...( تقصد عوض ا ).

وتصيح مرة أخرى:

- مدام شون... هون.... كوان أونج( تقصد يابانيـة بهذا الاسم).

- هوك.... بيك.... سوك... تام.

وأرى سيدة صينية تتعرف على اسمها بصعوبة وتذهب إلى السكرتيرة المنادية.

أو: مسيو كالاف... موهمد ألي.( تقصد خاف محمـد علي).

وكأننا نستمع في الإذاعة إلى البيان رقم واحد والبيـان رقم اثنين والسيدات السكرتيرات يتحركن جيئة وذهابا لتقلبة الأوراق منهمكات في أعمال مكتبية كأنهن يحضرن لنا عشاء في مطبخ هائل ليس فيه سوى أوراق وأقلام و... دبابيس.

جفت في حلقي آخر سيجارة كنت قـد دخنتهـا منـذ ساعتين، الآن قبل دخولي هذا المكان الذي يحرم التـدخين، ففي كل زاوية صورة السيجارة ملعونـة بخطـين أحمـرين معكوسين.

وها أنا جالس مرة أخرى كأني أثور بطريقتي فـأخرج كراستي وقلمي لأرسم كل ما يدور حولي. وفي قلبي إلهـام لرسم وجوه أهل بلادي من العالم الثالـث الطيـب. أرسـمهم

متعاطفًا معهم في حب وكأني أرى نفسي في مرآة كبيرة بعدة صور مختلفة ولغات مختلفة أيضا... ولكن الصورة في الأعماق هي ذاتها.

## مسرحية

أنا الآن متألق مع كراستي وقد غصت في صفحاتها ولم أعد أفكر في طول الانتظار. خرج أهل الصين وجاء ناس من البرتغال. حضرت طالبة من تونس تقرأ بجانبي وكأنها تستعد لرسالة ما في السوربون وتبدأ علاقات سريعة وحوار وتعارف ولكن الكثيرين ينتظرون في قلق.. وأحيانًا في صبر. والبعض في تذمر. صراخ طفل عربي يعلو من جديد من على صدر أمه والسيدة السكرتيرة الشقراء تحضر إلى الطفل وأمه لتعطيهما الأسبقية.إن له المكان الأول، قلت في نفسي والحل الوحيد هو في النهاية تقليد صراخ الطفل.

أتوقف عن الرسم بسبب عدم التدخين المشار إليه في القاعة وأعود إلى الانتظار بلا أي حراك. ساهما مرة أخرى، قارضا أظافري بفمي بحركة لا إرادية أو تاركًا أصابعي تتلاقى لتقلم الأظافر بعضها البعض إلي أن ينادي صوت واحدة من السكرتيرات:

- مسيو الـ.. . وتسكت.

ثم تكرر النداء مرة واثنين وثلاثًا حتى تكتشف أن هناك بقية للاسم في البطاقة أمامها... فتعود وتنادي.. .

- مسيو الـ.. . بهجوري.

تطلعت نحوي السيدة السكرتيرة وهي تناهز الأربعـين من العمر وفيها عطر باريسي خاص ولها رونق من مظهره يضفي شيئًا ملطفًا على حرارة القاعة وملل الانتظار. إنهـا تؤدي عملها كما تنص عليه القوانين واللائحة والأوامـر... وهي لا تفهم مشكلتنا ولا تعرف مللنا من الانتظار. لا أدري ما يدور في مخيلتها نحونا ولكنها تقوم بأداء دور مـا فـي مسرحية أعتبرها سخيفة، رغم أني أقوم بدور آخر فيها.

تنظر نحوي وتسألني:

- ما اسم أمك؟

... ويتولاني غضب شديد وكأني أريد أن أقفز خلـف الزجاج أحطمه وأحطمها معه. ولكنـي سـكت. لـم أرد... والسكوت عندي هو أقصى حالات الغضـب الـذي يسـبق العاصفة.

وتسألني مرة أخرى ولكن ببراءة( هكذا جاءني صوتها بعكس المرة الأولى).

أرد عليها بحدة وبكلمات مقتضبة وقد ضـاعت منـي التعابير التي تنقذني في هذا الموقف بالفرنسية المحدودة لدي:

- يا مدام.. . ما يصحش... عندنا في بلدنا ما نقدرش نقول اسم الأم... عيب... ولم تفهم وهي تسأل في برود مرة أخرى تريد أن تعرف اسم الأم...

- عندنا أي ست تتزوج ويصبح عندها أطفال لا تنادى باسمها قبل الزواج بل يضاف على اسمها ألقـاب أخـرى. تصبح مثلا: أم فوزي، إذا كان ابنها الأكبر اسمه فوزي أو أم فتحي إذا كان ابنها الأكبر اسمه فتحي... وهكذا.. هذا النوع من التكريم والاحترام والتقديس للأم... في بلادنا... أرجوك أن تعفيني من هذا السؤال

* * *

## مغامرة الدخول إلى مطعم فرنسي

غريب أنا، قادم من الشرق، العيون تلاحقني فـي كـل مكان... على الطريق... في المقهى... في المطعـم... فـي المترو... الباص... البنـك والمتجـر والصـيدلية... و ... تولاني القلق من نظرات أهل الفرنجة بوجهي الشرقي الـذي لفحته شمس صعيد مصر، حركتي البطيئة، تأتأتي بالفرنسية. تأملي الدائم. لا أسأل كثيرا مثلهم ولا أجيب إلا بكلمة فرنسية واحدة من الإجابات العادية التي تنهي أي مناقشة مثل (سـي لا فيه، داكور، باركوا). قررت أن أختـار مقهـى واحـدا ومطعما واحدا ومتجرا واحدا حتى أصبح شيئًا عاديا ووجها مألوفًا واخترت مقهى مزدحما في ليالي نهايـات الأسـبوع يشرب فيه جماعات على البار وأنا وسطهم في ركن صغير، أشرب مثلهم محاولاً أن أبتسم وأتابع هوايتي المفضـلة فـي الفرجة على أهل الفرنجة.

حفظ "البارمان" وجهي بشعري الكثيف الأشـعث وبشـرتي القمحية ولهجتي العفوية في الكلام واعتقد في بادئ الأمر أنني مهاجر من الجزائر أو المغرب أو تونس واعتقد الكثير مـن

حولي على البار أني من أميركا الجنوبية، والمكسيك علـى وجه الأخص.

وبدأ البارمان يعاملني معاملة عطف فاربما أعمل (مرمطونًا) في مطعم أغسل الصحون أو بائعـا لحلـى فضـية علـى الرصيف بجوار متحف اللوفر أو مركز بومبيدو أو طباخـًا للكوسكوس أو غرسونًا في مطعم "بيتزا" أو منزهـا لكلـب أرستقراطي على شاطئ السين المجاور للمقهى مقابل أجـر بسيط.

كنت العربي الوحيد في المقهى وبدأت أتعرف بالصدفة على بعض الشباب من المغرب أو تونس الذين يبادرونني بسـؤال مألوف أثار غضبي في بادئ الأمر:

تخدم في باريس؟

أو أنت خدام في باريس؟

وبالطبع فهمت بعد ذلك أن الخدمة كلمة طيبة تعنـي العمـل وليس التبعية أو الاستعباد. لأننا في مصر كنا قد ألغينا كلمة خدام أو خدامة واستبدلناها بالشغال أو الشغالة.

وعندما حملت مرة كراستي لأرسم في المقهى على البـار، تطلع نحوي أحد الشباب وسألني بفرنسـية سـريعة وكأنـه

معجب: أنت ترسم في مونمارتر ميدان الترتـر؟ فتـولاني الغيظ ولم أعد أحمل كراستي بعد ذلك لبضعة أيام.

كنت قد تعبت قدماي من التردد على سندويتشات "الماكدونالد" من الهامبورغر الصناعي، الرغيف المنتفخ الذي لـيس لـه علاقة بالقمح وكأنه من مادة هلامية منتفخـة كالاختراعـات العلمية الحديثة المسماة "أكريليك" طعمه في فمي كأنه نـوع من اللبان المطاط أو النسيج النايلون. ولكنه ساخن وممتلـئ ويشبع وكنت أبتلعه كما أبتلع اللبان وأنا طفل. أو كما أعض الشمع من الجوع.

وأخذني صديق لبناني إلى محلات منتشرة في أزقـة خلـف "السان ميشال" لنأكل سندويتش "الشاورمة" اللبنانية الشـهيرة، مما جعلني أستعيد ذكرياتي الجميلة على شـوارع الحمـراء وساحة البرج وحي سرسق، عندما كانت بيروت علـى حـد تعبير صديقي الرسام بهجت "قمرا".

وانتقلت أيضا إلى نوع آخر مـن محـلات الساندويتشـات الرخيصة الأخرى المنتشـرة فـي شـوارع بـاريس مـن الساندويتش التونسي المزدحم بالتونة والزيتون والشطة، إلى

الفلافل مرة أخرى ثم (الفيش) أو السمك حتى عدت أولاً وأخيرا إلى قطع البطاطس المقلية بالزيت (الفريت).

وانتقلت من (الفريت) إلى (المارغيز) ومنه إلى (السوسيس) وإلى (الكريب) بأنواعه وما شابه ذلك من مأكولات أهل الفرنجة ورجل الشارع الباريسى وشباب الهيبيز وطلبة السوربون وجيل الأوتوستوب والجينز الممزق وموسيقى البلوز والرولنغ ستونز. حتى فسدت معدتي تماما رغم تعودها على سندويتشات الفول والطعمية والفلافل في شارع شبرا في القاهرة.

كذلك تعبت قدماي. حتى قررت يوما أن أغامر في الدخول إلى مطعم فرنسي.

كنت قد زرت أحيانًا (مدعوا) مطاعم "الكوسكوس" التونسية والبيتزا الايطالية والصيني والياباني والفيتنامي واليوناني وما أكثرها في أحياء باريس.

أما المطعم الفرنسي فهو تجربة تستحق المغامرة. وأعود أتذكر الحكاية.

تثاءب الكلاب الكبير الرابض على مدخل المطعم الفرنسي الصغير وأصبح مانعا كبيرا للدخول. وأنا ينتابني الجوع بينما

يدي في جيب البنطلون تلعب بورقة نقدية من فئة الخمسـين فرنكًا، الخضراء على زرقاء. وحول الورقة المكرمشة مـا بين أصابع يدي في ذلك الكيس القطنـي المسـمى بالجيـب بعض العملات الصغيرة والكبيرة مـن فئـات متعـددة ذات الخمسة فرنكات الكبيرة والفرنك والنصف فرنـك وبعـض السنتيمات "أشخال" بها وتتساقط من بين أصابعي لتعود إلـى قاع الجيب من جديد فينتفض قلبي تبعا لذلك بفرحـة خفيـة. هذا المساء أمني نفسي بأكلة شهية في مطعـم صـغير مـن مطاعم الحي الرابع في باريس الذي أقطنه.

## عند الباب

الموعد مناسب والموائد في الداخل متناثرة أغلبها لا يـزال فارغًا.

والمشكلة هي هذا الكلاب العظيم المغرور الرابض أمامي في لونه المائل إلى لون البرونز الأحمر يلمع جلده الممشط فـي أناقة أكثر من شعري الأشعث المهمل المجعد.

وتذكرت عندما كانت مشكلتي في قريتـي "بهجـورة" هـي الكلاب. إنها تعوي طول الليل وتعض في أغلـب الأحيـان

فتصل إلى حالات خطيرة تضطر بعدها لأخذ حقنة وقائية في البطن، حتى كنا غالبا نضربها بالحصى لتبعد عنا.

أما هنا فالكلاب يبدو واثقًا من نفسه أكثر من اللازم لا يشـعر بأي نقص ولن يرميه أحد من أهل الفرنجة هنا بحصـى أو طوبة أو حتى يهدده مخلوق بعصا. أقصى ما يحدث له هـو أن يشير إليه صاحبه بطرف إصبعه في حالـة أي أمـر أو نهي.

واقتربت قدماي الصغيرتان وأصبحت تماما على حدود الباب على مسافة شعرة لأن تلمس قدمي الكلاب حتى ينتبه لي ولكن دون جدوى.

وأخرجت يدي من جيبي تاركًا نقودي البسيطة "تشخلل" قليلاً وكأني أستعد من جديد لمواجهة حاسمة مع الكلب الكبير.

رائحة المطبخ تتصاعد من الداخل وتداعب أنفـي بحاسـته القوية في حالة الجوع، والموائد جميلة عليها مفارش أنيقـة ومقاعد خشبية من النوع القـديم وبعـض الأدوات الأنيقـة اللامعة من الشوكة والسكينة والملعقة وبجانبها منـديل مـن الورق الملون الجميل. سيدة فارعة الطول تنـادي المطـبخ بطلبيات لأطباق جديدة تحمل أحدها وتروح وتجـيء وقـد

أحدث جسمها ثنيات عديدة في ردائها المحلى بالورود، وتعود مرة أخرى تحمل قنينة مليئة بالنبيذ الأحمر وثمـة أصـوات أخرى من بعض الموائد المشغولة بحركة الشوكة المعدنيـة والطبق الصيني وكركرة نبيذ آخر يصب من زجاجـة إلـى كأس ورجل يحتضن بعينيه طبقه ويلـتهم قطعـة (سـتيك) وامرأة بجانبه تلتقط شيئًا من الطبق وقد بـدت منهـا ذراع عارية بيضاء.

وأنا ما زلت على عتبة باب المطعم أتهيأ للدخول بعد قـرار انتهيت إليه هذا المساء باختيار هذا المطعـم الـذي أعـرف أسعاره من ورقة القائمة المعلقة خلفي والمعدة فارغة والجيب يغطي مصاريفها.

## إشارة مرور

حتى هذه اللحظة لم يلتفت نحوي أي مخلوق، السـيدة فـي الداخل مشغولة بالتقديم والمناداة بالطلبات لما وراء المطـبخ والناس بعضهم جماعات والآخرون اثنان غالبا رجل وامرأة. كنت قد عدلت عن لمس الكلاب بطرف حذائي حتى لا ينزعج أو يهب صارخًا في وجهي. وترددت قليلاً في البحـث عـن مطعم آخر إلا أنني أبعدت الفكرة في اللحظة التـي خطـرت

على بالي وأنا أستبدل حركة حذائي بلمس الكلـب بحركـة بسيطة سهلة تقضتي أن أرفع قدمي قليلاً فلا ألمسـه علـى الإطلاق وأكون بذلك أصبحت في الداخل، في ذلـك العـالم المشبع بعطر ودخان المأكولات الساخنة.

ويبدو أنه في اللحظة ذاتها كانت تراقبني سيدة تجلـس إلـى طاولة عالية أغلب الظن أنها "الباترونة". كانت الباترونـة لا تخفي أنها تراني من وراء زبون يدفع الحساب وهي أيضـا تقوم بتقديم القهوة بعد الوجبة لأحدهم إلا أنها تتعمد إهمـالي. (هذه الأشياء فهمتها بعد ذلك من طول بقائي في باريس).

أولاً أنا قادم بمفردي وسأشغل مكانًا لاثنين والسبب الآخر هو أني لست زبونًا ولم أتردد على هذا المكان من قبل.

كنت قد رفعت قدمي فعلاً وأنا أخطو من فوق جسم الكلـب الكبير عندما فوجئت به متيقظًا وليس نائما أو متثائبـا كمـا ظننت، ولكنه بسرعة التفت نحوي ومد رقبته ودفـع قـدمي بفكيه وقد أطبق على أسنانه وزام في صوت كأنه امتعـاض وقد أصابت مقدمة وجهه قصبة ساقي فوق الحـذاء تمامـا. كانت حركته المفاجئة أقرب إلى اللمسة منها إلى الخبطـة أو الضربة ولكنها على أي حال كانت موقفًا منه تجاهي.

عرفت على أثرها أنه لا يريد أن أدخل وكأن مقدمـة فمـه وصدغيه الطويلان إشارة من إشارات المرور التـي تمنـع دخول شارع أو جسر أو أي مكان.

على الفور أعدت قدمي إلى مكانها الآمن أمامه بدل أن كانت فوقه وكأني أعتذر له. ولم أغضب ولكني أخذت الأمور على طريقتي دائما وكأنها إحدى دعاباته وفهمـت بعـد ذلـك أن الموضوع جدي عندما صرخت السـيدة الباترونـة خلـف الطاولة العالية من بعيد وقد التفت كل الناس الـذين يـأكلون نحونا أنا والكلب وفي ذلك الموقف السخيف.

صرخت إذن السيدة الباترونة بصوت عالٍ ناهٍ ينصفني وهي تناديه باسم رقيق لا أذكره وكأنه اسم أحد نجوم السـينما أو الغناء.

وعاد الكلب الكبير الأنيق إلى حركته الأولى مـن اسـترخاء وكأن شيئًا لم يحدث بعد أن ترك لي مكانًا ما بين ذيله وحافة الباب فدخلت!

## قصتي مع الحيوانات في أوروبا

قصتي مع الحيوانات هنا في أوروبا معادلة صعبة، فنحن في بلادتنا بهجورة نرمي الكلاب بالحصى لأنها ضالة وجربة، والقطط تأتي وحدها من الباب الخلفي للمطبخ تأكل الفضلات ولا تستقر في بيت ولأن قضية الإنسان في بلادنا ما زالت مرهونة بحقوقه في الحياة الكريمة فإن جمعية الرفق بالحيوانات استبدلناها بجمعية الرفق بالإنسان.

ولا أنسى السيدة جارتنا في القاهرة التي أرادت أن تدلل وحيدها فأهدته كلبا من النوع الراقي الذي يزحف على الأرض ويسير كأنه بطة. وفي البيت، شغالة صغيرة من الريف تقوم على خدمة البيت والسوق المطبخ و "البيه" الصغير صاحب الكلب المدلل، تلقى الهوان طيلة النهار من الأوامر والنهي والشتائم، بينما الكلب الصغير المدلل صاحب:البيه" الصغير يذهب معه إلى النادي ويحضر من النادي ويركب السيارات ويأكل ويشرب ما يشاء. يقفز على الكنبة "الفوتيل" والمقاعد الوثيرة... تحتضنه صاحبة البيت وصديقاتها... و ... و .... إنها القصة ذاتها المعروفة عن

الكلبة الصغيرة المدللة وسط أسرة متوسطة الحال تتطلع إلى وضع اجتماعي أفضل.

كل ذلك بينما فتاة الريف المسكينة لا تحظى سوى بالإهانات وإطاعة الأوامر. ووصل الحال ذات مساء إلـى أن قامـت الفتاة الصغيرة الريفية وأخذت الكلب ورمته من الشرفة فـي الدور العاشر.

في باريس كنت أسير مرة في أحد الطرقات الواسعة المسماة بالبوليفار، حيث تـزدحم السـيارات والنـاس والمحـلات وإشارات المرور، توقف كل هذا فجأة وكأن الشارع الكبيـر قد أصابه شلل. ورحت أتطلع إلى السبب، إلي حيث الأنظار كلها متجهة. كان هناك كلب هائل كأنه حصان صغير يقـف أمام باب عمارة قرب باب سيارة فخمة فتح ودخلتهـا سـيدة بعدما ودعت أسرتها وكلبها الذي راح يحدث صـوتًا أليمـا يبعث الحزن والأسى في قلوب المسافرة والمـودعين. هـذا الصوت المشروخ من صدر الكلب – الحصان أمام سـيدته المسافرة آلم المواطنين من المارة مما أحدث خللاً كاملاً في حركة المرور، فتوقفت السيارات تتطلع إلى المكـان الـذي يدور فيه المنظر الدرامي. البعض ظن أن هناك حادثًا، أو أن

الكلاب أصابه مكروه وأنا كشرقي أيضا بدأت أتعاطف مع القصة وظننت أن سيارة قد داست على قدمه أو ما شابه، وفي الواقع لم يكن هناك سوى وداع.

**شماتة طيبة**

الآن صرت أعبر الطريق إلى الرصيف الآخر، ولو وجدت كلبا رابضا يسد الطريق الصغير الذي يمر منه الناس.

ولذلك لم أخف شماتتي من الكلاب عندما رأيت صورته مرة على مدخل أنفاق المترو وتحت الأرض، وقد وضعت على الصورة علامة حمراء عكسية تمنعه من الدخول. ولكن ما أكثر نظرات العطف والإشفاق والإعجاب حين تخالف سيدة هذه القاعدة. إنها تتحول في عربة المترو إلى بطلة من أبطال المغامرات السينمائية. ويبدأ الجميع يلاطفون رأس الكلب الخارج من الحقيبة التي تخفيه أثناء الدخول والخروج.

والجديد في قصة الكلاب والقطط هو الأرنب، فلم يخطر في بالي أنه على صدر جارتي هنا في باريس وهي تصعد الدرج إلى الدور الأول وتدخل حجرتها. إنها جارة جديدة ولم أرها من قبل، من الوهلة الأولى، ظننت أنها تحمل طفلاً رضيعا. وفي المرة الثانية قلت ربما هو كلب صغير. ولكنه

كان أرنبا! هذا لم أكن أرميه بالحصى وأنا في قريتي، ولكن كنت أمسكه من فروته أثناء سلخها لذبحه للعشاء. هذا هو كل ما في ذاكرتي عن الأرنب.

غير أن جارتي الجديدة كانت تلفت نظري، فهي من النـوع الفارع الطول. لها خطوة وحركة من رقبتها تجعل خصلات شعرها الطويل يتحول إلى موجة سوداء حول رأسها الـدقيق الملامح الصغير.

تعددت لقاءاتنا على الدرج مصادفة، حتى أننا كنـا نتبـادل الكلمات القليلة المشتركة التي يتبادلها جاران، كأن نتحـدث بكلمات قصيرة من النوع المألوف بين كل جيران العـالم أو الجو أو الحي...

هذه المرة التقيتها في المساء، بـلا أرنـب، تقفـز كعادتهـا درجات السلم الخشبي العتيق وفيها سحر من نـوع خـاص. تبادلنا كلماتنا القليلة المعتادة ثم أضفت: ما رأيك في جلسـة صغيرة عندي في الطابق الرابع، نتحدث قلـيلاً أكثـر مـن الوقت القصير على الدرج؟ سأقدم لك شايا ثقيلاً صعيديا على طريقتنا.

رحبت بالفكرة وصعدت معي وجلسنا على الأرضية وحاولت أن يكون حديثتى ممتعا بأكثر ما يمكن، وأن أكـون جـذابا أمامها بقدر ما يمكن، حتى تبقى معي أطول مـدة ممكنـة، ورحت أبحث عن قفشة ما لنضحك معا، أو أفكر فـي رأي جديد، أبدو أمامها على جانب من المعرفة.

ولكن كل محاولاتي باءت بالفشل عندما قاطعتني وقد سرحت قليلاً لتقول لي وهي ترمي خصلات شعرها الطويـل خلـف رأسها وتهم بحركة الصعود من جلستها إلى الوقوف.

هل تسمح لي بالانصراف؟ أشكرك على هذه الدعوة... هـذا موعد عشاء الأرنب!

* * *

**اكتشفت... مركز بومبيدو للفنون**

متسكعا وسط بيوت الهال القديمة... وقد ألهمتنـي الجـدران المتآكلة والحوائط المتساقطة والنوافذ المتباكية وعليها أزهار و ورود وبقايا حياة... كانت البيوت تنحني جميعها في اتجاه واحد وأحيانًا في اتجاهات مختلفة كأنها تتساند بعضـها مـع بعض كأخوة وصلوا إلى الشيخوخة الهرمة فراحوا يتذكرون سنوات الشباب وهم ينفثون دخان الأنفاس ودخان الغليون... بيوت الهال تسقط يوما بعد يوم... لابد أن أذهب لأرسـمهم وكأني مسئول عن طمس ملامحهم أو رسام يعمل في بلديـة باريس أو من دعـاة الحفـاظ علـى التـراث... أو أمـين للتاريخ... رحت أرسمهم بيتًا بيتًا... بينمـا معـاول الهـدم وكراكات البلدية تسقط الجدار تلو الجدار والتراب والأحجار تحيط المكان... بعض البيوت لا تزال عليها لافتات وأسماء جزارة وبقالة ومقهى ومطعم... هناك سيدة تقف وفوقها لافتة بالنيون... هوتيل... إنها تبحث عن زبون.... رغـم الهـدم والتراب...

موضوع يلهم كل فنان... هـذه أطـلال... وعنـدنا نحـن العرب... الأطلال هي المناجاة والبكاء... لأنها الوفاء للقديم

والذكرى. لقد دخلت هذا المقهى. وهذا المطعـم للبطـاطس المقلية... ودار السينما القديمة إنهم تحولوا إلـى كـوم مـن التراب... ورغم ذلك لا يزال الكلب صديق صاحب المقهـى رابضا أمام أطلال مقهاه.

... لم أجد نفسي وحيدا... حولي أكثر مـن رسـام... هـذا الموضوع الذي عاش باريس في الهال القديمـة...والميـدان الكبير الذي يتحول كل صباح إلى أكبر سوق للحوم الماشـية (السلخانة) الكبرى....

مرت سنتان. وغابت عني بيوت الهال ونسيت الحي ولم أعد أمر عليه سوى في الأنفاق عندما يعبر قطار المترو محطـة الشاتيليه والهال والهوتيل دي فيل... إلى أن كان لي لقاءات كثيرة في مدينة الفنون التي تطل على السين في ذات الحـي وكنت قد عرجت على حي الهال فلم أجد له أية معـالم مـن البيوت القديمة... حتى الطرقات قد تحولت والشوارع أزيلت وأصبح هناك طرقًا جديدة للمشاة... كلها تتبع أسهما حمـراء وتجعلك في مأزق وأنت تسير... فالمكان لا يسـمح سـوى لفرد واحد في اتجاه وفرد آخر فـي الاتجـاه المعـاكس....

الأرض قد تحولت إلى متاريس وحفر وأنفاق يصـب فيهـا حديد وأسلاك وخراسانة...

لم أفهم في بادئ الأمر شيئًا... لكنني كنت قد خمنـت أنـه محطة أنفاق جديدة للمترو...

بعد شهور أخرى رأيت أشياء تتصاعد في السماء بـدل مـا كانت تحت الأرض... خمنت أنها محطـة بتـرول جديـدة للسيارات وللتشحيم والتنظيف وما إلى ذلك... كل هذا كـان مفهومي البسيط كعربي قادم من بلاد البترول.

مرت شهور أخرى وكنت أسير فـي ذات الحـي فشـاهدت مواسير وأسطوانات ملونة بالأحمر والأزرق والرمادي ترتفع وسط العمارات في ذات الحـي... الأسـطوانات الضـخمة والأسلاك تحيطها من كل جانب... وأحيانًـا تخـرج مـن الأرض بلا ارتفاع كأنها أبواق ضخمة لنشـر الموسـيقى أو أغاني الثورة.

قلت لنفسى مهنئًا... لقد خمنت بذكاء لأني ظننت أنه محطة للسيارات الآن صدق ظني... إنه يشبه تماما معامل تكريـر البترول في بلادنا السويس أو مصانع الحديد والصـلب فـي حلوان. كانت قد ظهرت الأسطوانات وهي تتعانق وتتعقد في

خطوط ملتوية متعرجة كثيرة مـرت فتـرة أخـرى حتـى استوقفتني في الطريق فتاة هيبيز تحمل فوق بنطلونها المرقع زكيبتها وقد تناثر شعرها الأصفر حول وجههـا المسـتدير وبدت عيناها الزرقاوان كحبتين من البنور الأخضـر وقـد فرحت بأنها تستوقفني... لأنها قد اختارتني بالذات مـن دون المارة... سألتني بفرنسية مرتبكـة مـع بعـض الكلمـات الإنكليزية الصحيحة!

- هل تسمح أن تدلني على مركز بومبيدو للفنون...

قلت لها... لا أعرف...!!

لكنها أشارت إلى المكان الذي كنت أظنـه معمـل تكريـر البترول (السويس باريس) وقد ارتفعت الأسطوانات الحمراء وقد ظهرت في وسط العمارات الرمادية كما ألوان اللونابارك ومدينة الملاهي... ونظرت لي باهتمام لتقول لـي وفتحـت خريطة مطوية لشوارع باريس.

- يبدو أنه ذلك البناء المعماري الحديث... وتركتني وذهبت في اتجاهه وأنا لا أصدق.

تابعت بعد ذلك الضجة الصحفية التي أثيـرت حـول مـنح الجائزة لمجموعة المهندسين الذين فازوا وبالتكاليف الباهظة

التي صرفتها الدولة من أجل أكبر مركز للفنون في العالم... كيف أنه مبنى لا يوجد به طوبة أو حجرة واحدة... إنه يسير بالكهرباء... السلم المتحرك وكل شيء بالزجاج إنه عمـارة شاهقة ضخمة جدرانها زجاج أو ورق سلوفان.

وقلت ربما أنه صيحة جديدة في الموضة... وبـاريس بلـد الموضة الجديدة لابد أن أذهب إلى هناك.

الساحة الواسعة حول القصر البلوري الشفاف الجـدران... والناس تصعد في زجاج وتهبط في زجاج غير قابل للكسـر كما قالوا لي... إنهم يصعدون... أراهم وأنا علـى الأرض كأنهم في مركبة فضاء هائلة مستمرة لا تهدأ...

إنه اختراع يبعث البهجة كأنك في ساحة مدينة الملاهـي... لكنني ترددت هل الفن ملهى من الملاهي....

وصلت إلى باب الدخول بعد أن مررت على سيرك من نوع آخر.... لقد التف الناس حلقات يشاهدون عروضـا مختلفـة لأفراد يقدمون ألعابا بهلوانية وآخرين يعزفون على الغيتار أو يقرعون الطبول في حلقات كحلقات الذكر والجن والـزار... بعضها فنون من النصب والاحتيال لجمع بعض الفرنكات في قبعة وأحيانًا عباقرة مجهولون. آخر معه دجاجة يدربها على

حركات معينة ... ولاعب يبتلع النار كالناس الغلابـة فـي بلادنا... وآخر يقرقش الزجاج المكسور... وفقير خواجة ينام على المسامير وفوقه تقف حسناء أقدامها معروزة في صدره. وقرداتي... ولم يبق سوى تقليد ساحر الثعبان فـي سـاحة جامع الفنا في مراكش.

هل هذا المجال يساعد على الدخول في عـالم الفـن الجـاد بعالمه الكثيف وتاريخ الفن الذي يزدحم في قصـر اللـوفر مثلاً.

من الوهلة الأولى عندما فتح باب الدخول الزجاجي من تلقاء نفسه وكأني كعربي قلت له افتح يا سمسم ففتح.. أصبحت أنا في الداخل... هرج ومرج وحركة ومئـات النـاس حـولي البعض افترش الأرض والآخر يدور ويلف ولكن ثمة عـالم من نوع جديد...

أول شيء فقدته منذ اللحظات الأولى هو فقداني لكل الحواس التي كنت اخترتها لمجمع الفنون العالمي الجديد.

وعندما مررت في دهاليز أخـرى حتـى ركبـت مركبـة الفضاء... أقصد الدرج الكهربائي الحلزوني الأتومـاتيكي...

تولاني نوع من الارتباك العصبي والجهد والتعـب جعلنـي أحتاج إلى قسط كبير من الراحة قبل أن أرى أي شيء.

أخيرا عرفت أن بالـدور الخـامس (كافتيريـا) أو مقهـى صغير... جلست على طاولة فارغة لم يقبل أحد لخـدمتي... قالوا لي اخدم نفسك (لقد تعبت من خدمة نفسـي).. اذهـب احضر قهوتك من البار صرخت وصحت... بعـد مجهـود كبير... حصلت على قهوتي بلا طعم... وقد ساءت حـالتي الصحية والنفسية... وقررت الهبوط في مركبة ثم الخـروج بعد ذلك والعودة.

في المرات التالية أعدت المحاولة وأصـبحت أكثـر تفهمـا للشكل الخارجي والداخلي والجو الغالب على المكان كلـه... حاولت أن أكون عصريا مثلهم واكتشفت في كل طابق عالما مستقلاً بذاته... طابقًا للموسيقى وآخر لفن الرسم الحديث وقد انتقل متحف الفن الحديث إلى الطابق الثالث... ومكتبة كاملة بالتلفزيون... كل كتاب عبارة عن فيلم تلفزيوني... قاعـات لأفلام قصيرة وعن حياة المشاهير والأعلام...

مرات عديدة كانت بالنسبة لي تجاربا لفهـم هـذا المجمـع الكبير... تحولت عندي إلى متعة كبيرة... المسرح والسينما والسيرك والكتاب والأسـطوانة واللوحـة والرسـم واللغـة

والطفل.. مجمعا كاملاً لكل نواحي المعرفة من قديم الزمـان حتى يومنا هذا...

فقط احتفظت لنفسي بنصيحة... لابد أن أختار شـيئًا واحـدا أركز عليه لاستمتع به وأوفيه الوقت الكافي حتى أستطيع أن أستوعب ما أريد في وقت محدد.

أما إذا ذهبت إلى هذا المجمع كسائح فلن تأخذ شيئًا ولكنـك ستدير رأسك كما في مراجيح الملاهي...

وإذا ضاق بك الأمر في نهايـة الفرجـة أو فـي منتصـفها وقررت البحث عن دورة المياه فسـتجد (التواليـت) علـى طريقة (البوب آرت)... أنت جالس كمكتب آلة كاتبة... إنها غرفة التواليت التي يمارسـها رجـل الفضـاء وهـو فـي مركبته... ستجد نفسك كأنك في كابينة التلفون كـل شـيء يتحرك أيضا من تلقاء نفسه ولم يبقَ سوى أن تتحرك أجهزة الهضم في جسم الإنسان من تلقاء نفسها... إن مجمع الفنون بومبيدو يحتاج إلى إنسان مثله يستوعب عقله الحضارة وليس حسه.

## معرضي في مطعم محطة مونبارناس

أصبح يعرفني أغلب الطلبة في الأليـانس وخاصـة الطلبـة العرب وشمال أفريقيا. رسومي تملأ حوائط المدرسة. أمـام درجات السلم المؤدية إلى الفصول. علـى بـاب الـدخول والخروج من وإلـى المطعـم. (لا تنسـوا رحلـة قصـر الشاتيرون. برج سان ميشيل رحلة قصر الايلـوار) السـبت ليلة الرقص حفلة كبرى مقنعة وهكذا كتب تحت رسومي في الإعلانات.

أثناء إحدى حصص المحادثة الفرنسية التي تحتـوي علـى أحدث وأسرع طريقة للكلام بأن تدخل المدرسة الفصل تطلب من أحد الطلبة أو الطالبات الجلوس على مقعدها ويدير هـو أو هي الحصة. بينما المدرسة تجلس كأنها ضيفة فقط تصحح الأخطاء في المعنى أو النطق. أثناء إحدى هـذه الحصـص جاءتني ورقة صغيرة. فتحتها وجدت بها موعد مع مـديرة العلاقات الاجتماعية بالمدرسة في مكتبها. ذهبت لأراهـا؟. قالت لي:

أنت مدعو إلى العشاء على مائدة أسرة من الطبقـة الراقيـة الفرنسية. قد اخترت لك بالمناسبة أسرة فنان فرنسي معروف

لنا علاقة طيبة به. أرجو ألا تنسى الموعد وهذا هو عنوانـه في محطة (نوتردام دي لوريت).

عندما صعدت الطابق السادس فـي شـارع النـوتردام دي لوريت على مقربة من ملاهي البيكال. وجدت نفسي في أحد المراسم الواسعة ذات السقف العالي. ذلك الطراز من قاعات مراسم فناني عصر النهضة. الأثاث كله قـديم. ثمـة سـلم صغير في نهاية القاعة يؤدي إلى حجرة النـوم. الحيطـان امتلأت باللوحات والمناظر الطبيعية، إعلانات تحمل اسـمه ملصقة على كل ركن. اسمه بالخط العـريض جـان بييـر ريمون. جلس معه أحد أفراد الأسرة بينما جـاءت زوجتـه الرشيقة الطويلة الجميلة تحييني بينما يسألني هو ماذا يقدم لي من الشراب. نبيذ أم عصير. قلت له نبيذ. وأخرجـت علبـة الغلواز أدخن منها عندما قاطعني قبل أن أشعل عود الثقـاب قائلاً:

- آسف جدا لو سمحت.. أرجوك ألا تدخن فالـدخان يـؤثر على رائحة البيت ورائحة الأثاث ولي حساسية معينة منه.

كانت بداية ثابطة للهمة فأعـدت السـيجارة دون إشـعالها وجلست لحظة أنتظر أن ينهي حديثه مع صديقه أو قريبه كما

يبدو. عندما قام ليودعه حتى الباب ثم يعود لي ووجهه مليء بالترحيب والأسف مرة أخرى عن التدخين.

كنت قد أحضرت معي ألبوم مـن الصـور الفوتوغرافيـة للوحاتي عندما عاد برأسه إلى الوراء وهو يعبـث بلحيتـه الحمراء الكثيفة. كان جسمه ووجهه وذقنه من الشخصـيات القديمة التي تشبه بعض الشخصيات التاريخية أو ربما اختلط في ذهني بشخصية إسماعيل باشا كما أتذكره.

عبث بذقنه مرة أخرى وهو يتفحص صـورة للوحـة مـن لوحاتي في الألبوم في إطراء.

أغلق الدوسيه وهو يقول لي كلمات كلها إعجاب بالأسـلوب وحساسية الفن، سكت قليلاً ثم استطرد:

اسمع. لي صديق مدير مطعم من أفخر مطاعم بـاريس أنـا أعمل بحكم وظيفتي مفتش مؤسسة كبيرة لها مطـاعم فـي جميع أنحاء فرنسا وأوروبا. ما رأيك أن تعرض لوحاتك في مطعم صديقي. هذا مطعم في محطو المونبارنـاس نفسـها؟ تزدحم بالزوار سأتصل به بالتليفون. احضر إلى مكتبي يـوم السبت القادم سنذهب بعد ذلك للغداء عنـده ونتحـدث فـي الموضوع هل عندك بعض الشرائح الملونة للوحاتك.

... عظيم إذن إلى اللقاء.

هبطت السلالم القديمة. عدت إلى حجرتي وأنا أحلم من جديد بمعرض جديد.

في الموعد صعدنا أسانسير في عمارة محطة المونبارنـاس؟ دخلنا مطعم أنيق. فخم. في مدخله فتاة تأخذك من الباب حتى تصل إلى المائدة التي تعجبك. تعطيك قائمة الطعام وتتركـك بينما نكون قد مررنا وألقينـا بنظـرة حـول فترينـة مـن (الاكواريوم) تشبه البحيرة الصغيرة. هـذه الفترينـة التـي بداخلها بحيرة تمتلئ بأصناف الأسماك وجميـع الحيوانـات البحرية التي يمكنك أن تجدها أو تطلبها. على سبيل المثـال الجمبري والاستاكازا والكابوريا وسمك موسى والثعابين وما إلى ذلك.

جلسنا على مائدة قريبة. جرت الفتاة تنادي مـدير المطعـم وكأنها ستقول له.. البيه المفتش وصل.. أقبل علينا المدير.. تماما كما تتخيل أي مدير.. طويل. أنيق. ضخم. نظيف. كل شيء فيه يلمع من شعره وأنفه حتى حذائه قدمني إليه. دخل فورا إلى الغرض من هذا اللقاء. أخرجت من جيبي مجموعة الشرائح الصغيرة الملونة. طلب من الغرسون إحضار عدسة

أو جهاز عرض صغير. وأخذ يتأمل ويتفحص الواحدة من خلال جهازه المكبر وهو يقول جميل. طيب وهكذا بينما وضعت حول مائدتنا أصناف فاتح الشهية من أنواع النبيذ والأكل ثم أصناف الأسماك فنبدأ بالأصناف حتى انتهينا بالحلو والحديث يدور حول فكرة إقامة المعرض على جدران المطعم واختيار الزوايا المناسبة وتركيز الإضاءة ووضع واحدة على المدخل وأخرى بجانب البار ثم لصق بعض الإعلانات الملونة تحت مدخل الأسانسير وإعلانات أخرى أمام المسافرين وهم في صالة الانتظار أو الخروج من القطار. لم يبقَ سوى تحديد موعد الافتتاح وطبع الدعوات وإرسالها. كما تطوع مدير المطعم بفتح البار مجاناً ليلة الافتتاح. كان كل شيء قد دبر بطريقة جميلة وبسيطة ونحن نأكل ونشرب أجود أنواع النبيذ والأغذية وشرعنا في تدخين الغلاواز بينما أخرج صديق الفنان الفرنسي سيجارا أنيقاً وامتلأ سقف المائدة بسحابات الدخان الراقي.

وكأني من فرط سعادتي أردت أن أهديه شيئًا فأخرجت كراستي وقلمي الفلوماستر وبخبطة واحدة من القلم رسمته بروفيلاً بينما أقدم له الرسم مزهوا بموهبتي وريشتي

الكاريكاتيرية التي تشبه سـرعة البـرق إذا بـي أراه وقـد امتعض وأصابه شيء من الضيق وكأني أسأت إليه إسـاءة بالغة. لم يضحك كما توقعت أو يبتسم ولكن عندما عدت ذلك اليوم أفكر فيما فعلت شعرت بخطإ كبير. فقـد كـان مـدير المطعم طرازا من الناس الذين يتباهون بمظهرهم وأنـاقتهم. أما الرسم فقد كان في نظره سخرية بـه وإظهـار بعـض العيوب في شخصيته ومظهره. على الورقة كانـت الأنـف متطرفة أكثر من اللازم بينما انتفخت خدوده وتـدلت شـفته السفلى والتوت ذقنه إلى الإمام وقد تكـورت داخـل رقبتـه السمينة انتفض في وقفة غاضبة أدار وجهه لي. خرج مـن المائدة.. ولم يعد.

... جلس صديقي الفرنسي أمامي وكأنه يعاتبني وهو يتابعني بنظرة جانبية غريبة. قام هو أيضا.. خرج من المائدة وذهب في ذات الاتجاه... ثم عاد الاثنان وكأنه يصحبه غصبا عنه.. بينما شعرت أنا بعرق غزير أو كأن ريشـتي قـد تحولـت مسدسا انطلقت منه طلقة خاطئة إلى رأسي.

إلا أنه في نهاية الأمر اختصر الموقف. أزاح الورقة أمامـه صديقي الفنان المفتش العام مع شعوره بخيبـة أمـل منـي وانتهي الحديث حول مواعيد الافتتاح وما إلى ذلك.

بعد حوالي أسبوع زرت جان بيير ريمون حسب الاتفاق في مرسمه. كان يعد صيغة تقديمه لي في الكتالوج وهو يكتبهـا بخط يده ليعطيني إياها إلى مطبعة يتعامل معها لطبعها بينما بدأنا في تنسيق بعض الإطارات لرسومي الحديثة وقد تطوع بإخراج الكثير من البراويز التي بداخلها لوحات قديمـة لـه ليضع بداخلها رسومي ولوحاتي الجديدة وهـو يقـول لـي: بالطبع ستردها لي بعد المعرض.

فوجئت يوم الافتتاح بالكتالوج الأنيق الـذي يحمـل اسـمى وبداخله مقالة طويلة ليس لها علاقة بعملي ولا بفنـي كتـب بالحرف الواحد: صديقي الرائع مدير المطعم في مونبارناس فتح قاعاته الكبيرة الأنيقة في مطعمه الفاخر على طراز فريد لا مثيل له من مطاعم باريس... أعطاني جدرانـه اللامعـة (الفورمايكا).. في ذات الوقت لي صـديقة رائعـة (يـذكر اسمها) مديرة العلاقات العامة في مدرسة الأليانس طلبتني في التلفون لتقدم لي فنانًا مصريا الذي زارني بعد ذلك.. فعطفت

عليه (هذا المسكين من العالم الثالث).. أعطيتـه إطـاراتي الأنيقة.. وأخذته معي إلى المطعم لأطعمه على الغداء.. فـي هذا اللقاء وافق مدير المطعم الكريم ليعرض لوحات الفنـان المصري.

أصدقائي طلبة وطالبات الأليانس عرفوا بـالخبر.. صـديقنا الرسام المصري يعرض مرة أخرى في باريس وفـي قلـب محطة مونبارناس على بعد خطوات من شارع راسباي حيث مدرستنا. على المدخل فتاتان من فتيات المطعم وقد ارتـدتا ملابس التركواز الأنيقة فوق الركبة واحـدة مسـئولة عـن المعطف.. تأخذه وتعطيه تذكرة والثانية تناول الضيف ورقة الكتالوج بها أسماء اللوحات.

أفواج الطلبة والطالبات زملائي وزميلاتي تقبل نحـو البـار الأميركي الذي فتح مجانًا حتى ازدحم بهواة البيرة والويسكي والعراند مارنييه. ظهرت وسطهم لورين وزميلها جون رسام الإعلانات في "لافاييت".

مرة أخرى يزدحم المكان بأجمل شباب أوروبا القليل مـنهم الذي ينقد ويتفرج ويناقش. الآخرون يفترشون مائـدة البـار حتى فتحت عشرات الزجاجات من كل الأصناف.

اشترى طالب سويسري إحدى اللوحات وهو هاو وعاشق للرسم. له حس وتذوق عميقان بالمتاحف والمعارض يعمل في المساء في أحد الفنادق.

مر أسبوع المعرض وزبائن المطعم يطلبون ما لذ وطاب ولكنهم لا ينظرون إلى اللوحات حضرت مديرة الأليانس ومديرة قسم العلاقات الخارجية وواحدة من الناقدات وكذلك حضر بعض الفنانين المصريين المقيمين في باريس.

جاء موعد نهاية المعرض فأبقيت إحدى اللوحات هدية إلى صاحب المطعم بينما طلب مني الفنان الفرنسي جان بيير ريمون إحدى اللوحات التي أعجبته. عندما ترددت قال لي ما رأيك: ترسم لوحة لزوجتي ومعها طفلتنا وستكون إحدى التذكارات الهامة في مرسمي. بينما يقول لي:

تستطيع أن تحضر بعد غد أثناء النهار. سأكون مشغولاً في بلدة بعيدة يمكنك الحضور وسأعد لك لوحة بيضاء جديدة كما يمكنك استعمال ألواني وفرشاتي على أن تنظفهم مع نهاية اللوحة.

أما اللوحة الأخرى التي أهديتها لصاحب المطعم فقد كانـت الحل الوحيد للأزمة التي كانت علـى بـدايتها عنـدما بـدأ يناقشني لماذا دعوت هذا العدد من الطلبة والطالبات.

كانت فكرة المعرض فـي بـدايتها تبـدو رنانـة وجذابـة. فالمعرض في مطعم كبير بالطـابق الثالـث يمتلـئ عـادة بالزبائن. مسافر سواء في قيام أو وصول. كما أن الجـدران الرخامية أعطت للوحات أرضية جميلة أنيقة.

الموقع هو قلب باريس. المكان يزدحم بالناس، أما الأخطـاء فهي دعوتي لأصدقاء الأليانس الذين أحضـروا أصـدقاءهم أيضا. ثانيا الإضاءة كانت تتركز على المائدة ولـيس علـى الجدران. ثالثًا الذي يأتي ليأكل لا يمكنه أن يفكر في غـذاء روحي. رابعا: لم يحضر أصدقاء الفنان ريمون الذين عقدت الأمل عليهم في الشراء.

كان هناك تناقض شديد بين لوحاتي والمكان. بين شخصيات المترددين من الأصدقاء والصديقات على المعـرض وبـين أصحاب المطعم. مثلاً هاتان الفتاتان اللتان تقفان على المدخل يخلعان معطفي القديم وهما ينظران إليه شذرا فهو من النوع الرخيص ولا يقارن ببقية المعاطف الحيوانية المتـدثرة فـي

جلود الثعبان والنمور وريش النعام وفرو الثعلب الأصـلي. كنت أحاول في بعض الأوقـات الهـروب مـن الموقـف والاختفاء بسرعة في ركن بعيد حتى لا تريانني. لكن المكان مكيف بالتدفئة الشديدة. بعد لحظات قليلة كنت أجـد نفسـي أتصبب عرقا. والخروج بعد ذلك سيعرضـني لنزلـة بـرد شديدة.

في بعض الحالات كنت أدفع لهما البقشيش الذي يوازي أكثر من نصف ثمن وجبة كاملة في مطعم الجامعة وهـو قطعـة الفرنك الفضية. وفي بعض الأحيان لا أدفع فكانا يصـرفان النظر عن تقديم الكتالوج لكل زبون وهكذا.

كانت هناك هوة شديدة بين اللوحات الحزينة والمكان الفاخر الذي يلمع بالفورمايكا والرخام والزجاج والقطيفـة وكـذلك الأطباق الشهية بما لذ وطاب حملت بقية لوحاتي إلى حجرتي الصغيرة في داخلية الأليانس. أعلق بعضها والأخرى أضعها تحت السرير وقد جف حلقي من مرارة الفشل.

وفي اليوم التالي صحوت من نومي أفكر في الامتحان الذي سأقف أمامه. اليوم موعدي مع زوجة الفنان ريمون لأرسمها

هل سأستطيع مجاملته بأن أرسمها أجمل مـا تكـون. هـل ستعجبه اللوحة فلا يطالبني بمصاريف الكتالوج؟

في هذا الطابق الخامس من منزل رقم أربعة وخمسين شارع نوتردام دي لوريت القديم أتأمل مرسم جان بييـر ريمـون أمامي وزوجته لأرسمها. أجلس على نفس مقعـده وأمـامي حامل اللوحات العتيق للفنان الفرنسي الكبير. طويلة رشيقة. رأسها الصغير يحمل خصلات من شعر في لـون الأردواز الرمادي اللامع بالفضة. في عينيها حلم دائم. غطت بشـرتها الناعمة وأنفها الدقيقي وفمها الصغير. جمجمة صغيرة الحجم تحملها رقبة أسطوانية بيضاء تلمع كأن الندى سـقط عليهـا الآن. في ردائها الطويل المزركش بـالورد ويصـل إلـى الأرض سحر آلهات الأغريق وملكات الرومـان وفراشـات الأوبرا.

أجلس أمامها أتأملها قبل أن أرسمها ثم استمع إلـى حكايـة زواجها منه وأنا أبدأ في رسمها بخطوط سريعة ملونة تحدد وضعها في اللوحة البيضاء الكبيرة أمامي:

كنت طالبة أتعلم الفرنسية في الأليـانس فرانسـيز مثلـك. حضرت من النمسا. قرية صغيرة بجانب فيينا. يبدو أن جان

بيير كان يمر بأزمة عاطفية أو فراغ قـاسٍ. اختلـف مـع زوجته الفرنسية عدة مرات. افترقا فضل أن يتـزوج مـن أجنبية هذه المرة.

اتصلت بمكتب العلاقات العامة بالأليانس فرانسيز وفي إحدى المرات كنت مدعوة على العشاء على مائدة فرنسية كما كنت أدعى أيضا إلى مثل هذه الموائد الفرنسية على سبيل جـزء من نشاط اللغة الفرنسية. أن يذهب الطالـب الأجنبـي إلـى منزل أسرة فرنسية ويحاول أن يعبر عن نفسه باللغة الجديدة. دار الحديث ذات مرة مع المشرفة على العلاقات العامة فـي مناسبة ما. المهم أني رأيته وأعجبني. وكما ترى الآن نحـن زوجان منذ عامين ولنا هذه الطفلة الصغيرة التي تنـام الآن في حجرتها فوق هذا السلم الصغير.. أرجو أن ترسمها بـين ذراعي.

كانت لوحتي هذه هدية لهما نظير مجهودهمـا ومصـاريف المعرض في مطعم مونبارناس الكبير.

تعبث فرشاتي ببالتة ألوان جان بيير أضع ما أختار من علبة ألوانه. ثمة شفافية بين الألوان على اللوحة البيضاء الكبيـرة

محاولاً التعبير من خلال هذه الشفافية عـن أعمـاق هـذه الإنسانة الرقيقة التي تجلس أمامي.

تعود لتتكلم: إن جان بيير دائما يسافر إلى الأقاليم. يشـرف على المطاعم التي تشرف عليها شركته كمـا أن معارضـه ولوحاته تُنشر في كثير من جماعات العرض الدائمـة فـي باريس.

تمر فترة صمت مليئة بالصفاء. في نظرتهـا نحـوي دعـة وطمأنينة وكأنها تستشف أعماقي كفنان وكيف أراها.

عندما تعبت جاءت لترى الخطوط الأولية والألـوان القليلـة التي وضعتها حتى ابتسمت وراحت تضع لـي قـدحا مـن القهوة.

أتردد على البيت عدة مرات لتكملة اللوحـة. كانـت دائمـا أحاديثنا البسيطة الهادئة تدخل السعادة في قلبي. عندما بـدأنا في المرة الرابعة تقريبا. وضع اللمسـات الأخيـرة كانـت سعادتها باللوحة فائقة أسألها عن رأي الفنان جان بيير تقـول أنه يرى أنها لوحة جميلة رغم أنك أضفت إليها معاني أخرى وشخصيات أخرى تعيش في ذاكرتك.. كأنك لا ترسمني أنـا فقط مع طفلتي ولكنك ترسم أمهات كثيرة لها نفـس التعبيـر

والمعنى. كما أنك لم تستطع أن تخرج من ذاتـك المنعكسـة بالحزن على وجهي في اللوحة.

في نهاية حديثنا كان الوقت قد تعدى وقت الغداء بكثير عندما قالت لي نكمل حديثنا على مائدة الغداء. سأضع لك طبقًا شهيا لا يحتاج إلا لبضعة دقائق من الانتظار.

انتهت اللوحة ولم أعد أراها بعد ذلك... إلا ذات مـرة فـي الأيام الأخيرة قبل مغادرتي باريس إلى القاهرة ساقتني قدمي إلى منزلها صعدت الدرجات العديدة حتى الـدور الخـامس عندما وضعت يدي على الجرس دون أن أحس بحركة فـي الداخل. انتظرت برهة وأخرى حتى جاءت تلـف شـعرها بفوطة كبيرة وتطوي جسدها الرقيق في بشكير الحمام. عندما نظرت إليها وهي واقفة تتطلع نحوي في ابتسام.

قبلتها مودعا في لحظة دفء في صداقتنا الجديدة كانت تمسح بخدها الناعم خطوط الحزن على وجهي.. في عينيهـا هـذه المرة توقد وإيمان بفني.. كأنها تشجعني على مزاولة الكفاح في باريس مرة أخرى. ثم ابتعدنا خطوة وهي تقول ريمـون أعجبته اللوحة.

رنت العبارة في أذني طيلة الستة أدوار التي أهبطها على السلم الخشبي القديم وعندما عبرت عتبة الباب الكبير كانت ذكريات فشل معرض مونبارناس قد تبخرت ولأبدأ من جديد. وعدت إلى مقهى البوليه ماجووه.

* * *

## أنا و "صديقي" في مونمارتر

البيت في "مونمارتر" شارع يصعد وكأنه جبل والعمارة قصر عالٍ أحجاره مرتبة منظمة كأنها قطع نـادرة مـن النحـت البارز وأسوار النوافذ زهور وفروع نباتـات مـن الحديـد الصلب الأسود والبلكونات كأنها أبـراج خرافيـة لقصـور أسطورية منذ عصر النهضة أو القرون الوسـطى. خلـف النوافذ ستائر شفافة بيضاء مليئة بالمنمنمـات والـدانتيلا غزلتها على النول أنامل جميلة كأنهـا خيـوط الفجـر أو سحابات تمر أمام القمر في سماء ليـل بنفسـجي معطـر برائحة النجوم المتناثرة فوقها كالزهور.

القمر خلف الستارة قنديل حب والصوت موسيقى هامسـة لباخ أو مندلسون. واللوحة خلفها إطار ذهبي مطرز وكتف عارٍ لفينوس أو "الجوكوندة" ذاتها.

وحدي في الطريق أتطلع من بعيد. نظراتـي تتسـلق هـذه الجدران الحجرية الأنيقة وتتأمل فيها النحت البارز والنوافذ الجميلة والبلكونات السحرية.

أنا أسكن هذا البيت منذ زيارتي "الثانيـة" وقـدومي إلـى باريس. مرسمي هنا، كيف أتصور ذلك؟ لا أصدق! ولـذلك

عندما أدفع الباب الكبير مع صوت الجرس الذي أضغط عليه بإبهامي في الغالب، أشعر كأني لمست وترا في قيثارة الباب يفتح من تلقاء نفسه. وأجد نفسـي فجـأة داخـل الجنـة. القطيف حولي وفي كل مكان. صنعت ذلك البساط السـحري الذي أطأه بحذر، فحذائي العتيق تعب مـن مطـر الطريـق وأصبح كعب القدم هو ذاته كعب الحذاء وبينهما طبقة نحيلة من الجلد كورقة السيجارة. حتى الإصبع الكبير تذمر وبـات يخرج أحيانًا إلى العراء.

هذا البيت – القصر أسكن فيه لكن علي أن أتجاوزه تماما. المصعد الفخم إلى يميني وحجرة البوابة إلى يساري وفيـه امرأة تحضر العشاء لطفليهـا الصـارخين غالبـا. بينمـا التلفزيون مضاء بصورة دائمة يزغرد بأي ألوان ويصـدح بأي صوت أو غناء.

لابد أن أدخل من القصر في ممر يكاد يكون سريا ليتحـول فجأة كل ما له علاقة بالقصر إلى ما لا علاقـة لـه بهـذه الحجرات الخشبية الباردة. ينتهي فجأة الدفء المنبعث مـن الأجهزة إلى صقيع يدخل الصدور ويصل إلى العظام. مـن صوت الجرس الذي يفتح الباب الكبير إلـى صـفير ريـح

شريرة وصفقة باب هزيل. والبساط الأحمر يتحول إلى درج خشبي يتألم في كل خطوة، وكأن الأنين متبادل بين صـوت حذائي وصوت خشب الدرج.

في الطابق الثاني مرسمي المونمارتي.

لا أدفع إيجاره، فصاحبه فنان فرنسي أعطاني مفتاحه لأنـه يفضل مرسمه الآخر في منطقة البريتاني، مرسمه أصـبح مرسمي لمدة عام أزهو به وأنا أدفع الباب الهزيـل بكتفـي أولاً، ثم بركبتي ثانيا، ثم بما تبقى من قدمي وحذائي حتـى يفتح.

السقف عالٍ مثلث والجدران زجاج أغلبـه مرقـع والآخـر مشروخ أو ملصق بشريط كاكي والستائر سوداء تحجب كل شيء والماء هناك في زاوية بعيدة على كتف من جدار فيها أدوات الصابون ومعجون الأسنان. وحول صـنبور المـاء أدوات أكل وشرب وما يشبه المطبخ. فمـن الممكـن قلـي سمكة أو تحمير ساق دجاجة أو غلي حساء. وعلى الجانب الآخر أريكة متهالكة تتسع لثلاثة علـى الأكثـر شـرط أن يكونوا على علاقة طيبة لأنهم سيجلسون عليها متلاصقين.

ربما أنتقل إلي الجلوس على واحدة من درجـات خشـبية تصعد إلى "دوبلكس" به لوحات قديمة ومرتبة.

أمامي نقطة البؤرة... أضيء شعاعا فيحـدث فـي داخلـي كفرح كبير... هذا الشعاع الكهربائي يسـقط علـى سـطح لوحتي الأخيرة وهي لا تزال على حامل الرسم الذي يقـف شامخًا بساقيه الخشبيتين ورأسه الخشبية الرفيعة كهامـة نبلاء عصر النهضة، ملوثًا ملطخًا بشتى الألوان التي تعطر مرسمي برائحة الزيت والتربنتينا.

أمامه أجلس منحيا ركنًا من الأركية كأني تركت مكانًا لاثنين بجانبي.

تطول بي التأملات وكأني المتفرج الوحيد على لـوحتي... أغوص فيها فتمر ساعة أو أكثر. أدخن سيجارة تلو أخرى متناولاً في الوقت ذاته جرعة من بقايا زجاجة على المائدة الصغيرة أمامي.

لا تلفون يرن، ولا صديق يقرع الباب، ولا جار يطلب ملحا أو فلفلاً، ولا صوت طير ولا حتى نباح كلب.

دخلت من باب الملوك في هذا البيت الذي يشـبه القصـر، وخرجت منه من الباب الخلفي (باب الخـدم سـابقًا) إلـى

هنا.. لكنني على أي حال أكتب عنواني على عنوان القصر وتصلني رسائلي على ذات العنوان الأنيق الرقم ٦١ شارع دامرمون مونمارتر.. باريس رقم ١٨، السيدة البوابة مـن العالم الثالث مثلي تتحدث البرتغالية بما يشبه الفرنسـية... وفي كل مرة تحاول إقناعي أنها تتحدث بالفرنسية. تحضـر كل صباح وعلى كتفها رضيعها الصارخ أو الـدامع أبـدا. غالبا تبتسم والحمد وتعطيني رسالة أو أكثر.

في الصباح أصنع قهوتي وأشرع في لوحة جديدة حتى يأتي الظهر، فأصنع لنفسي طبقي الشهير مـن البـيض المقلـي لفترة كاملة أسميتها (مرحلة أومليت). وعندما تقـدم بـي الحال وبعت لوحة أو رسما تطور "الأومليت" وأصبح معـه إصبعا من السجق أسميتها مرحلة (الأوملـيـت مـارغيز). وانعكست هذه المراحل في طبق اليوم إلى مراحل أخرى في الرسم متشبها بعمنا الكبير معلمنا بابلو بيكاسو. المرحلـة الوردية. المرحلة الزرقاء. المرحلة التكعيبية... وهكذا.

لحظات الملل الناتجة عن الوحدة والتعب من اللوحة جعلتني أخرج بين الحين والحين إلى المقهى المجاور أحتل مائـدة صغيرة على ناصية لطيفة ما بين (دامرمـون وماركاديـه)

أتناول قدحي الجديد من القهوة مصـحوبا أحيانـًا بكـأس صغيرة جدا نصفه زجاج والنصـف الآخـر (كالفـادوس) ملتهب... يشع في جسدي الدفء ضد البرد المخيف ويجدد الحماس في روحي للعمل من جديد

* * *

## صديق

هناك التقينا دون أن نتكلم. نحن الاثنان المكرران في كل يوم بعد كل ظهر... قلت أنه صديق جديد وأنا أهلا له في أعماقي.

إلى المائدة في جواري هو الجالس كل يوم... شاب فرنسي في الأربعينات عادي الملامح والملابس. الشعر فضي والبشرة محمرة... أحييه ويحييني أو العكس.. ننضم كل بعد ظهر إلى مائدة واحدة أدفع الحساب مرة ويدفع هو مرة أخرى، يشعل لي سيجارة وأشعل له (غلوازا) وحديثنا في البداية... عن الحياة في هذا الحي.

أصبح صديقي نديم المقهى هو مقصدي كل يوم للدردشة لأعود أكثر نشاطًا للرسم من جديد.

أمام المقهى في تلك الناصية يوجد فرع لأحد البنوك الشهيرة (كريديه ليونيه)، وقد كنت أتعامل معه أحيانًا عندما أبيع رسما أضع شيئًا أو أصرفه. لكن هذا البنك لم يكن مثيرا لأي انتباه مني. فهوايتي دائما هي تأمل المارة والفرجة على الحياة.

إلا أن صديقي كان أثناء حديثه الطويل يتابع بعينيه الاثنين باب البنك عند الدخول وعند الخروج، وكأنه يلتقط بعينيه

صورة شخصية لكل داخل وخارج... الباب الزجاجي يفـتح من تلقاء نفسه ويغلق والحركة مستمرة.

وقد لاحظت أنه أصبح ميالاً للاستمرار في الحـديث وكأنـه يريد قتل وقته... ووقتي أيضا. بما جعلني أفكر بأنه ربمـا كان عاطلاً عن العمل. حتى سألته ما بين رشفة وأخرى وقد تعمدت أن تكون الرشفة من فنجاني على طريقة أهل بلدتي في الصعيد الريفي معبرا عن المتعة من الرشفة ومن نـوع البن ودرجة السكر المضبوط سائلاً صديقي بعد ذلك بصوت هادئ بسيط:

- اعذرني... بالمناسبة... في كل مرة أنسى أن أسـألك... ماذا تعمل؟

لم يفاجأ صديقي من السؤال، أخذ رشفة من فنجان قهوتـه ولكن على طريقته دون صوت وقال لي بهدوء أيضا وهـو يشير إلى البنك المقابل أمامنا:

- أنا أحرس هذا البنك من اللصـوص وعمليـات السـطو المفاجئة.. أنا بوليس.

رسامة ميدان الترتر تلميذة جمال كامل

وأصبحت أتردد على ميدان الرسامين المزيفين غالبـا مـن قبيل الفضول.. وأحيانًا أخرى بالصدفة.. لأنـي كنـت قـد عثرت على مرسم فـي مونمـارتر مجانـًا علـى مقربـة خطوات.. وهي خطوات صعبة مرتين.. مـرة لأن عمليـة الصعود لجبل مونمارتر المرتفع كـأني أتسـلقه.. والمـرة الثانية لأني كنت أعود إلى تعاليم الرسـم المباشـر الـذي يحاكي الأصل... الرسم بلا روح وبلا إبداع. هـذه المـرات التي كنت أزور فيها هذا المكـان كانـت مجاملـة لـبعض الأصدقاء العرب الذين يقرعون الباب لزيارتي وهم يقولون: مش تأخذنا إلى رسامي مونمارتر...

كان أصدقائي المصريون يستمتعون بالفرجة علـى ميـدان الرسامين المزيفين.. أما أنا فقد كنت أراقب كل شيء فـي ملل.

ميدان الترتر الشهير بأفواج السياح القـادمين رأسـا مـن المطار في عرباتهم السياحية الكبيرة.. يلتفون حول لوحات الرسامين. كل واحد حوله عشـرات الرسـوم واللوحـات الصغيرة. أحدهم ارتدى معطف القرون الوسطى. آخر وضع

ريشة في شعره. الآخر أطلق لحيته الحمراء حتى سـقطت على صدره.. واحدة قفزت أمامي ببنطلونها الضيق تحمـل صورتها بريشتها وهي تغمز لك وتبتسم وقد طار شـعرها الطويل في الهواء تقول لك فجأة: أرسمك بثلاثين فرنكًا.

في بضعة سنوات زادت نسبة الفتيـات الرسـامات حتـى أصبحت الموضحة الرائجة. ثمة سعادة من بعـض أنـواع السياح أن يختارها لترسمه لأنها تعطيه أكثر من الصورة.. ربما حديث طويل أثناء الرسم ينتهي بموعـد أو بإعطائهـا كرت للرجل الثري الذي يعيش في أميركا يدعوها لقضـاء إجازة عنده... وهكذا.

بينما وقف رسام تعرفت عليه اسمه روبيـر أمـام حامـل لوحاته و (بالتة) ألوانه يغمس فرشاته في اللون الأحمـر. يسبله مع كمية كثيرة من الزيت والتربنتينا. يخطف البصر نحو اليمين. يرى مجموعات السياح تقترب منه وهي تهبط من سيارات السياحة الكبيرة.. يقف بعضهم خلفـه. يحـس بهم. يتوهم بأنه أحد رسامي مونمارتر الذين خلدهم تـاريخ فرنسا. تعبث فرشاته باللون الأحمر لرسم شكل لـيس لـه معنى. تتأوه سائحة عجوز خلفه. يا سلام. كم هـو رائـع.

يضع وسط القبعة الحمراء بقعة أخرى زرقاء أو خضـراء. رسم يبدو بشكل برج ايفل أو شارع أو بيت أو أي شيء.
تختفي مجموعة السياح خلفه. تجذبهم الأنظار نحو جـاره الذي يعرض لوحات رسمها من قبل ويضـع فيهـا بعـض الفوسفور التي تبرق وتتوهج. يتطلع روبير مرة أخرى نحو نهاية الأتوبيس السياحي يراقب مجموعة أخرى تقبل عليـه يمسح اللون الأحمر الذي رسمه منذ لحظات بقطعـة مـن القطن أو فوطة صغيرة يترك بعض آثاره ويضـيف ألـوان أخرى جديدة.. وهكذا تتوقف المجموعة الجديـدة خلفـه.. تتفرج مع كلمات الانبهار بلمساته. تلتف مجموعة أخـرى حول رسام آخر. يقولون هذه تشبه لوحات أوتريللو. هـذا يشبه لوتريك. تصرخ فتاة أميركية من الخلف لمجرد أنهـا رأت صورة لواحدة عارية.. هذا رنوار.
كنت أتابعه وقد فهمت الصنعة.. إنه يكـرر المشـهد ذاتـه عشرات المرات كل يوم أدور حول الميدان تاركـًا صـديقي روبير يقوم بلعبته كأنه في سيرك يكرر اللعبة فـي حفلـة الماتينيه والسواريه حتى منتصف الليـل. يسـقط المطـر عليه.. يتدثر تحت معطفه الثقيل. أقام بعضهم مظلة للوحات

حتى لا تفسد من ماء المطر. قال لي روبرت أخيرا.. تعـالَ نشرب كأسا.. لقد بعت لوحتين فقط حتى الآن. مررت منـذ عام على هذا المكان.. لقد تغيرت وجوه الرسامين... إنهـا حرفة مؤقتة.. لأنهم عندما يجمعون بعض المال يشـترون سيارة ومنزلاً ريفيا ويغـادرون للأبـد مونمـارتر. لـذلك أسميتهم "الرسامون الرحل" تماما كالباعـة المتجـولين أو التجار الذين يعرضون بضاعتهم على مدن وقرى مختلفـة يتنقلون إليها.

هذا المساء الميدان خالٍ تماما من الرسامين. لقد انهمـرت أمطار الشمال.. أصبح المكان مقفرا. انعدمت فيـه الحيـاة فجأة. توارى الرسامون خلف مظلات المقـاهي والمطـاعم القديمة.. تحول الميدان إلى ساحة مهجـورة غارقـة فـي المطر بينما نقرات الماء علـى الموائـد الخاليـة وبعـض الكراسي الحديدية الملقاة هنا وهناك وبقايا حامل الرسـم. كأنه ميدان قتال في نهاية معركة هزمت فيه الطبيعة العنصر البشري. وكأن الموائد الباقية والكراسي الحديدية الملقـاة هي خوذات الجنود التي بقيت من المعركة.

دخلت المقهى الكبير صـالة كبيـرة مزدحمـة بالرسـامين والموديلات وأقلام الفحم وكراسات الرسم. انتقل كل شـيء داخل هذا المقهى والمقاهي والمطاعم التي تحيط بالمكـان. التدفئة التي تشع من الجدران وحركة الغرسونات وصـياح بعض الشباب حول البار وجهاز "فليبرز" وقد تنافس حولها مجموعة من عشاق اللعبة.

افترش الرسامون موائد المقاهي. تحولت إلى خلية نحـل. يتصيدون الزبائن من الأتوبيس إلى الداخل مـرة واحـدة. يستسلم السائح فطالما سمع وقرأ عن رسـامي مونمـارتر والمهم أنه سيحكي القصة لكل صديق عندما يعود إلى بلده ويقول في تياه:

- هذه الصورة رسمها لي أحد رسامي مونمـارتر عنـدما زرت باريس العام الماضي. أو رسمتها لي رسامة فرنسية شقراء في مونمارتر أو اشتريت هذه اللوحة مـن ميـدان الترتر الشهير وقد طلب مني في بادئ الأمر خمسمائة فرنك ولكن بعد مناقشة طويلة وصل الثمن إلـى النصـف. فهـم يضعون أسعارا عالية في بادئ الأمر ثم ينخفض السعر أكثر

مما يسعد السائح لأنه يشعر أنه استطاع أن يتغلب عليه في الإقناع.

أغلب الرسامين لهم مظاهر الفنانين القدامى بملابسهم ووجوههم. الشعر الطويل والذقن وطريقته في مسك القلم الفحم ودوسيه الأوراق تحت إبطه مغلف بصورة مرسومة لنفسه غالبا أو لفتاة جميلة كعينة أو إعلان على طريقته وإجادته في محاكاة الطبيعة لاجتذاب الزبون، الرسم غالبا بالفحم على ورقة رمادية لتسهيل مهمته. فهو يضع الخطوط الرئيسية بالأسود والظلال ثم يضع أخيرا بعض اللمسات البيضاء على الوجه فتظهر على الورقة الدرجات الثلاث بسهولة وبأقصر وقت ممكن الأسود والرمادي والأبيض. الأبيض غالبا لمعة في العين وعند الأنف وعلى الخدود مما يعجب السائح عندما يرى أنفه تلمع أو خدوده تبرق. كذلك يزيدون من تكحيل العين قليلاً عند الفتيات الألمانيات أو الأميركيات مما يثيرهم أكثر فيدفعون أكثر أو يقبلون السعر من أول وهلة.

دخل رسام إيراني وسيم كفرسان القرون الوسطى، معه أدواته. على وجهه بشرى وسعادة فائقتان حتى كادت ذقنه

تهتز كذيل كاب. جميل سعيد. اكتشفت سر السـعادة فـورا عندما دخل خلفه خمسة من السياح مرة واحدة ثلاثة مـن النساء ورجلان اللهجة المتداولة بينهم هي الألمانيـة. روح المرح صبغت المكان بمظهرهم على الباب. حيانا من بعيـد وكنا ثلاثة رسامين نجلس في نهاية المكـان علـى آخـر طاولة. بحث عن مائدة خالية بصـعوبة وأحضـر بعـض المقاعد. قام الرسام بمهمة الغرسـون والترحيـب ولكنـه كالعادة ينتظر حتى يطلبوا لنفسهم وله بعـض المشـروبات الكحولية غالبا.

السائحات الألمانيات ألوانهن فاتحة زاهية وبشرتهن الوردية وكتل اللحم تظهر من بعض الملابس الشـفافة كـالغلالات الرقيقة عندما خلعن معاطفهم الحيوانيـة الثقيلـة. بينمـا تناثرت عبارات ألمانية سريعة مرحة فهمت منها كما يبـدو أنهم سيبدأون بإحداهن ثم الأخريات والبقية لا تزال مترددة تنتظر.

بقية الرسامين أغلبهم فرنسيين على بقية الموائد مشغولون في العمل عيونهم تنتقل من وجوه الزبائن الخواجـات إلـى الورقة الرمادية وقلم الفحم في يدهم. لكن في إدراكهم مـا

يحدث تماما في المقهى.. عرفوا أن الرسام الإيراني الـذي يتفوق في أغلب الأحيان في رسمه للوجوه وفـي اجتـذاب الزبائن المحترمين الأثرياء.

على مائدتنا رسام إيطالي ينتظر فهو بلا زبون وكأنه يجلس على حافة السين وسنارته في الماء كان وضعه على المائدة قد أعطى لكراسته الكبيرة المكان الواضح حتـى يراهـا أي واحد يدخل المقهى وعلى غلافها صورة فتاة جميلة بريشته ومغطاة بكيس من النايلون الشفاف خوفًا من ماء المطـر. يمسك بقلم الفحم ويعبث به في أي ورقة أمامه وعينه على الباب لالتقاط زبون جديد.

على نفس مائدتنا رسام مصري هاوٍ اسمه حسن لم يدرس الرسم ولكنه يدرس الجيولوجيا ويحضر يومين في الأسبوع لكسب بعض النقود وهو يحاول تقليد الأسلوب المتبع هنـا وله بال طويل في مطاردة السائح حتى يرضخ وقد صـحب معه واحدا من هؤلاء من ليل ويشرع فيرسمه بعد أن أنقص السعر كثيرا وطلب منه عشرين فرنكًا بدلاً من أربعين. لـه مشاكل أحيانًا لأنه لا يحمل ترخيصا بالعمل، وقـد حضـرت "كبسة" من البوليس ذات مرة متخفية على الميدان لتحصـر

عدد الرسامين الأجانب الذين يرتزقون هنا، وخاصة بعد أن تكررت شكاوي السياح من مضايقة بعض الرسامين الـذين لا يتركون الزبون على حريته على طريقة (تمسح يا بيـه) عندنا فتعطي قدمك مضطرا إلى ماسـح الأحذيـة وتعطيـه القرش هي نفس الحكاية عندما يضـطر السـائح لإعطـاء وجهه للرسام ويرمي له بالفرنكات الثلاثـين أو الأربعـين غالبا.

عندما حضرت كبسة البوليس المتخفية ذات مسـاء جـرى (حسن) وهذا اسمه إلى واحد مـنهم وقـال لـه كالمعتـاد (أرسمك بعشرين فرنكًا) قال له رجـل البـوليس المتخفـي ويني أوراقك وكاد أن يصحبه إلى قسم البوليس لولا أنـه أهداه الصورة وضحك معه حسن بطريقة ابن البلد الظريف على وعد أن تكون آخر مرة.

صديقي حسن على مائدتنا يرسم زبونًا جديدا أغلب الظـن أنه شيلي أو برازيلي وهو يعاود شقاوته في الرسم بـدون ترخيص. الغرسون لا يريد أن يحضر له كوب البيرة لأنه لا يرحب به ويمنعه من الرسم فـي المقهـى وشـغل مائـدة ساعات طويلة. بعد إلحاح طويل ومداعبة منه يـأتي إليـه

بكوب البيرة ويفاجأ بأن ثمنها سبعة فرنكات ضعف الـثمن لأنه أحضر له نوعا خاصا من البيرة وهو ثمن يعادل ثمانين قرشًا مثلاً.

أقوم أنا وسط هذا الجو الخليط بكل شيء بالفرجة والتأمل. عندما اتجهت الأنظار نحو مائدة الرسام الإيراني وقد أقبـل صاحب المقهى نفسه. قام من أمام خزينته والآلة الحاسـبة ليدق مائدة الرسام الإيراني يخطف كراسته. يكسـر قلمـه الفحم. يرمي الكراسة على الأرض تتصاب يده وهي تشـير إلى الباب وهو يصرخ فيه اخرج.. بره.. بره!!

يقوم الرسام الإيراني ويشتبك معه في ألفـاظ نابيـة وهـو يكسب بعض أصوات مجاورة من زبائن المقهـى القـدامى الذين يجلسون على البار وخلفه. تـدخل بعضـهم لفـض الخناقة. اختلطت الأصوات. بينما بهت السياح الألمان وقـد تسمروا في مقاعدهم ينتظرون ولا يسـتطيعون التصـرف سوى أن يدفعوا حسابهم استعدادا للرحيل.

هدأت قليلاً الزوبعة بعد تدخل بعض الناس. تـرك الرسـام طاولته التقط كراسته من الأرض. ذهب إلى البار. تحدث مع زوجة صاحب المقهى تداول معها.. أخرج بعض النقـود..

عاد إلى مكانه ليرسم من جديد وهو يعتذر للسياح الألمـان فهمت أنه لا يدفع الفدية.. وهي نسبة توازي الثلث من ثمن كل رسم. كانت المناقشة كما فهمت أنه يدافع عن نفسه بأن المقهى ينتفع أيضا لأن زبائنه هم زبـائن المقهـى وهـم يطلبون ويدفعون.

خرجت من حي الرسامين أهبط الطرقات إلى شارع أوتريللو إلى مرسمي في دامرمون.. بعـد أن عرجـت علـى بـائع البطاطس الساخنة أشترى كيسا مع الموسـتارده والملـح ألتهمه في الطريق وقد تصاعد منه دخان يدفئني حتى أصل. ميدان الرسامين في مونمارتر على بعد عشر دقـائق مـن مرسمي إلا أنني لا أتردد عليه إلا نادرا. فهو بمثابة سـوق المومسات في (البيكال) أو (سان دينـي) وبعـض هـؤلاء الرسامين الذين يعرضون بضاعتهم تماما كفتاة الليل التـي تجتذب السياح. وتقف تحت غرفة الفندق تقول لك قبـل أن تنطق. ثمانون فرنكًا ربع ساعة تعطيك جسدها. بـلا روح. كذلك الرسام هناك يرسمك كأنك قطعة من الجماد بلا روح. وهو كيف يتوصل إلى أعماقك وهو لا يعرفك. كل ما هنـاك أنه يجيد صناعة الشبه. وهي صـناعة تجعلـه باسـتمرار

واستهلاك العمل آلة صماء وكأنه يضغط على زرار فيضـع الخطوط الرئيسية.. يقيس النسب والأبعـاد وينقـل مكـان العينين والأنف والذقن ثم يقوم ببعض اللمسات الهسـتيرية خاصة في الشعر مما تعجب السياح.

بعد تجربتي الأولى السابقة كنت أكتفي بالفرجـة. إلا مـرة أخرى كانت كراستي معي كالمعتاد جالسا على أحد المقاعد الطويلة في أحد مقاهي هذا الميدان عندما أقبل نحو مائدتي واحد من الرسامين ضخم الجسم متدثرا في جلود الحيوانات ووجهه الكثيف اللحية والغليون في فمه عندما جلس علـى طرف المائدة ومعه سيدتان ورجل يتحدثون الإيطالية. شرع الرسام في إخراج أدوات الرسم وهو يرسم إحدى السيدتين أما البقية فكانت ترفض أن ترسم. إلا أن الرسـام المحنـك صار يغريهم ويحدثهم وعينيه في الرسم الذي يرسمه للمرأة الإيطالية وهو يقول مثلاً:

سأرسمكما بعد ذلك حتى أطلب ثمنًا أقل لكني لـو رسـمت واحدة فقط فسيكون الثمن مرتفعا أني عادة أطلب أربعـين فرنكًا على الوجه الواحد لكن لو وافقتما لأرسـمكما أنتمـا أيضا فسأطلب من الجميع تسعون فرنكًـا فقـط أي بمعـدل

الواحد ثلاثون فرنكًا. هيه ما رأيكم.. لكنهما رفضـا لثـاني مرة.

في هذه الأثناء كنت أرسم مجموعة من الرسامين كما أراهم بأسلوبي وليس لي أي فكرة تجارية فما أصـعب أن يرسـم الرسام وهو يفكر في البيع. لاحظت الإيطالية الأخرى التـي تراقب صديقتها المرسومة أني أرسمها دون وعـي منـي. كانت عيونها الصغيرة الحالمة وسط وجهها النحيل وشعرها الأسود تشبه كثيرا الجمال الأغريقي المخـتلط - بمسـحه روحية من الشرق. بدأت أعبث بالقلم على ورقة بيضـاء. لأضع التعبير الذي أعجبني في عينيها ثم بدأت أكمل الوجه على مزاجي الخاص بالغت قليلاً في الرقبة واستطالة الأنف. عندما انجذبت أنظارها نحوي وقد أحست أني قـد لقطـت التعبير الجميل في عينيها.

تطلعت نحوي فجأة على طرف المائدة بينما الرسام الآخـر مشغولاً في وجه السيدة الأخرى وقالت بكـم؟.. أريـدك أن تكمل الرسم لأشتريه.. قلت لها ثلاثون فرنكًا..

وفجأة توقف قلم الفحم في يد الرسام الفرنسي الضخم وقال لي دون أن ينظر نحوي:

أعد القلم إلي جيبك. أغلق كراستك ولا ترسم شيئًا.

صعد الدم في رأسي وقمت وأنـا لا أدري مـاذا سـأفعل.. وأخذها فرصة سريعة عندما وقع الصورة الأولى وبدأ فـي رسم السيدة التي كنت أرسمها بعد أن أقنعها مـرة أخـرى بالثمن المخفض.

لاحظ أني غضبت وضع يده على جيبه وشعرت وقتها أنـه يتحسس مطواه يهددني بها لو تماديت في الغضب أو رميته ببعض الشتائم.

لكني كنت قد تركت المقهى بلا رجعة.

وفي إحدى جولات المساء مع الأصدقاء المصريين الـذين يطلبون مني أن أفرجهم على هذا المكان تشبثت بـي فتـاة تلبس قفازا أسودا طويلاً حتى الكوع مثلما يلبسه عسـكري المرور وهو قفاز كنا نلبسه أحيانًا في حصة الرسم بـالفحم في كلية الفنون.. وهي صغيرة قصيرة تحمل الدوسيه الكبير عندما نادتني وقالت لي بالعربية: مش فاكرني.. أنا تليمذتك وتلميذة جمال كامل وصلاح جاهين ورجـائي وهبـة التـي كانت تحضر عندكم في روز اليوسف مـن عشـر سـنوات تقريبا وأنا أحلم بدخول الفنون الجميلة. سـرحت بخيـالي

سريعا عندما تذكرتها تماما طفلة صغيرة كانت تتهتـه فـي الكلام لها ما يقرب من اثني عشر عاما تحضر مع أمها إلى المجلة لتقول لنا الأم:

- اعملوا معروف مرنوها لي وعلموها لي الرسم عاوزاها تطلع رسامة زيكم.

وأتذكر أني أعطيتها مرة ورقة وقلما وقلت لها ارسـمي أي شيء على بالك. وكنت أراها بعد ذلك في صحبة أمها وهي تتردد علينا نحن ورسامي روز اليوسف في ذلـك الوقـت جمال كامل وصلاح جاهين وبهجت وإيهاب ورجائي.. وأنا.

بعد أكثر من عشرة أعوام نلتقي مرة أخرى فـي بـاريس. تخرجت في كلية الفنون الجميلة. احترفت الرسم. جاءت مع وفود الطلبة في الصيف. تريد أن تكسب لتغطي مصـاريف الرحلة.

نظرت إلي ولا زالت تحمل تعبير الطفولة وقالت:

أني أكسب في اليوم أحيانًا مئتي فرنك وأحيانًا خمسمائة وقد أصبحت صديقة لهؤلاء الرسامين والرسـامات ورغـم أن البوليس يطاردني أحيانًا.. إلا أني أهرب في الوقت المناسب وأخفي دوسيه الرسم.

وفي كل مرة كنت أودعها متمنيا لها التوفيق وأنا أنصـحها بالحذر رأيتها بعد ذلك مرتين كانت جالسة وسـط حـوش الميدان وسط عشرات الرسامين والرسامات وأمامها زبون أو زبونة.

إلى أن انتهى الصيف وقابلتها مرة أخرى بعد أكثر من عام ترسم على ضفاف السين وحكت لي بقية الحكاية.

بعد شقاء ثلاث أو أربع سنوات اقتصدت مبلغ عشـرة آلاف فرنك كنت أثناءها أتغذى على البطاطس الساخنة والسجق. كنت سأطير من الفرحة لأني سأحقق حلمي وأشترى سيارة جديدة (رينو) أعود بها إلى القاهرة.

ذهبت إلى معرض السيارات سألت الثمن تمامـا وحجـزت واحدة أعجبتني عندما خرجت من المحل كنـت أقفـز مـن الفرحة وأنا أفكر في السيارة التي سأقودها في مصر. فجأة أحسست بوقع أقدام خلفي مستمرة منذ وقت غيـر قصـير بدأت أحس أني مراقبة من أحد. نظرت خلفي وجدته أحـد الرسامين الذين كنت أراهم أحيانًا في ميدان الرسم.

وفجأة وكل هذا حدث في لحظات لم أستطع أن أفكر ولكنـي وجدت نفسي واقعة على الأرض وحقيبتي التي بها النقـود

ليست معي. كان الطريق صغيرا ليس به أحد. الوقت بعـد الغروب بقليل. لم يكن به أحد لينقذني. وأفقت. وقفت علـى قدمي مرة أخرى وأنا أقول الحمد    أني بخير. جريت هنـا وهناك كالمجنونة. لم أعثر على أي أثر. تولاني حسرة وندم شديدان وأنا أقول لنفسي يا خسارة.. لـو كنـت دفعـتهم وخلاص. عدت إلي بلادي وأنا لا أحمل سوى بعض الذكريات وسط هؤلاء العصابات من الرسـامين.. عصـابات مافيـا الرسم.

الأمسيات الجميلة التي ألتقي فيها مـع الرسـامين العـرب الآخرين كلما أقيم معرض لفنان عربي في أحـد المراكـز الثقافية التابعة لبعض السفارات العربيـة فـي بـاريس أو لبعض الدول النامية في العالم الثالث، كالمكسيك والبرتغـال وأسبانيا، هي بالنسبة إلي لحظـات ممتعـة وسـط غربـة باريس.

أنفض غبار ألواني الترابية في مرسمي، أمسح بالتربنتينـا فرشاتي وألقي بلوح ألواني (البالتة) جانبا وأخلـع ثيـابي الملطخة بأصفر الشمس وأحمر صبرا وشاتيلاً باحثـًا عـن جوربي المفقود منذ شهر تقريبا، ساحبا "فانلتي" وقميصـي

عن حبل الغسيل على النافذة، مرتديا البذلة الوحيـدة التـي أدخرها للمناسبات الرسمية أو الغرامية.

أنا أتفرج الآن على نفسي في جلسة التنكر هذه في مرآتـي المشروخة التي عثرت عليها يوما بجانب صندوق قمامـة. الآن أستطيع أن أشد على يد السفير في افتتـاح المعـرض هذه الليلة. أقف أمام الفنان القادم إلى بـاريس لأول مـرة فيراني على أحسن ما أكون. أبتسـم لسـكرتيرة المركـز الفرنسي ذات الشعر الأحمر والنمش على وجهها الـدقيق. تبتسم لي كعادتها، وربما تحييني على الطريقة الباريسـية فأقول لها كعادتي: أنت مـارلين جـوبير (نجمـة السـينما الفرنسية) "الخالق الناطق"، فتضحك في خجـل، أو تخجـل ضاحكة وهي تزيح وجهها إلى الجانـب الآخـر. وسـوف أشتري علبة سجائر "سوبر" وأستعمل ولاعتي "الكـاليبرى" التي خصصت لها في حلتي الموسمية صديرا خاصا، وأقوم بتلك الحركة البسيطة الرشيقة، من حين إلى آخر، عنـدما تزيح أصابع يدي اليمنى طرف الحلة لألتقط بهـا الولاعـة الصغيرة وأشعل بها سيجارتي الرشيقة. وربما أدعو محدثي

في الحفل، أو صديقي الفنان العربي إلي سيجارة أشعلها له أيضا.

## قصير القامة!

توقفت الخيالات... وأخذت بطاقة الدعوة وكنت قد شـبكتها بدبوس على حائط المرسم وسط اللوحات. إنه زميـل لـي، فنان عربي وصديق قديم لي معه ذكريات ولقاءات كثيـرة، بين القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد. هذه المرة نلتقي فـي باريس، مدينة العباقرة من رسامي عصر النهضة وزعماء مدرسة الفن التأثيري الفرنسي في مطلع هذا القـرن. قـد يكون هذا الصديق منافسا جديدا لأحلامي، فكل فنان يحضر إلى باريس من بلاد بعيدة يتخيـل نفسـه فـان غـوغ أو موديلياني أو جياكوميتي أو شاغال أو بيكاسو أو دالـي أو ميرو.

يفتتح "البوفيه" الأنيق وعليه ما لذا وطاب مـن مشـروبات ومأكولات وتمتد الأيدي ومن خلفهـا يـدي. تبتسـم لـي السكرتيرة (شبيهة مارلين جوبير) وهي فـي رداء جديـد. تبرق على رقبتها وعلى ذراعيها بعض أدوات "الاكسسوار"

التي تشبه المجوهرات. تفقع زجاجات الشمبانيا وتفور على الأكواب والكئوس الرشيقة كأنها موجة صغيرة من بحر عارم زحفت على شاطئ نحن مستلقون عليه فغمرتنا في لحظة خاطفة ولم تترك سوى الزبد.

## ثالث بيننا

دخلت إلى القاعة نساء ومعهن رجال من كل الجنسيات، وعج المكان بمجتمع "الايليت" التف بعضهم حول لوحة فقال تعليقًا ردده كثيرا في مثل هذه المناسبات:... هذه لوحة تذكرني بماكس أرنست، أو هذه خطوط تشبه خطوط ميرو. وبعد أن التقطوا لنا الصور الفوتوغرافية وأصبح الافتتاح حفلاً لائقًا، وزعت علينا بعض النشرات الملونة عن حياة الفنان والجوائز التي نالها في بلاد كثيرة من العالم: جائزة في مدغشقر وأخرى في كيبتون وثالثة في هيينغ وون كونغ في اليابان. بعد ذلك، التقيت الزميل بحرارة. تبادلنا الذكريات. أثنيت على أعماله المعروضة وانسحبت من الزحام حوله قائلاً له: أتركك مع جمهورك على أمل أن نلتقي في يوم آخر. والتفت. هذا فنان فرنسي يحضر أحيانًا لزيارة المعارض. وقفت معه نتحدث ونقوم بجولة حول

الجدران نصل في نهايتها إلى المائدة. نتناول بعض فـواتح الشهية وقد وقف خاف المائدة عملاق فرنسي هو "البارمان" في حلة بيضاء وربطة عنق وردية بشكل فراشة. انحنى لنا العملاق ورآني وأنا أمصمص أصابعي وقد تلوثت بالحلوى، ثم امتد الحديث بيني وبين الرسام الفرنسي فثمة حوار بيننا وصداقة قديمة نستعيدها الآن في حديث قصير.

فجأة وقف بيننا شخص ثالث. لا أدرى كيف أصبحنا ثلاثـة، والأصح أنه التقط حديثنا. وقف في لحظة نهاية جملة فنيـة قالها لي الفنان الفرنسي: "الفن القادم من الشرق هو فـن التصوف والأصالة". أضاف هذا الغريب دون تقديم نفسـه: "صحيح" الفنون القادمة من الشرق هي الحرارة والـدفء، هي الصدق والعمق". نظرنا نحوه باستغراب فاعتـدل فـي وقفته وكوب الشمبانيا في يده. تأملناه. يبدو من مظهره أنه من عباقرة الجيل المبشر بعصر النهضة. سترته غاية فـي الأناقة حتى أن خيوط النسيج الصوفي تبدو فيها، وربطـة عنقه كأنها من أشهر محلات الأزياء. الوجه حاد الملامـح يحمل كل مؤهلات الفنان المظهرية. اللحية كثيفة في مثلـث أسود والعينان غائرتان. أما الشعر فداكن غزير والحاجبان

غليظان وعظمة الجمجمة تحت العين بارزة. كلماته منتقـاة بدقة لغة عصر لويس الرابع عشر. قال بأدب شديد جعلنـا نرتاح نوعا ما إليه: "اعذروني... لتطفلي". ثم أضاف: أقدم لكم نفسي: فلان... أحد هواة الفنون الفرنسية، في تكملـة الحديث. إننا في حفل والتعارف سهل، حتى أننـا أظهرنـا بعض الحماس لكسب صديق جديد. قدم له كل منا نفسـه، وكالعادة بدأنا بالجنسية، فقال: "أنا فرنسي أيضا ولكني من أصل أسباني وبرتغالي. جدتي برتغالية وأبي أسباني وأمـي فرنسية"... واكتشفنا في اللحظة ذاتها سخافة الكـلام عـن الجنسية (هي دائما بداية التعارف في باريس) فعـدنا إلـى موضوع الفن بسرعة. عندها أضاف "صديقنا" الجديد:

كنتما تتحدثان عن صفاء الشرق في الفن. هـذا صـحيح. الغرب يريد أن يخترع. أن يبحث عن صيحة جديـدة، عـن موضة يروجها ويشهرها وينشرها على صفحات المجـلات والتلفزة والسينما. لكن الأمر لا يطول كثيرا فسـرعان مـا تفتر الصيحة وتخفت. الغربي يعود الآن إلى تراث العـرب مثل ابن خلدون أو .... الحريري أو الواسطي. انظر إلـى الفلسفة والحكمة. ما أروع فلسفة طاغور من الهنـد... أو

جبران خليل جبران من لبنان وسنغور من السنغال. جـائزة نوبل منحت مرة ليوغسلافي، ومرة أخرى لمكسيكي ومـرة ليوناني... ومرة لأفريقي... و........

تحمسنا في النقاش وأصبحنا نتحدث بفكـر واحـد ولكـن بأساليب مختلفة تخدم النتيجة نفسها. وامتد خيط الحـديث وانصرف المدعوون فلم يبقَ سوانا. حينذاك، أنهى الصديق الجديد بصوت رقيق:... لقد شعرنا بالجوع. ما رأيكما لـو نذهب نلتهم طبقًا من الكوسكوس في الحي اللاتيني، لا سيما وأن معنا فنانًا عربيا، فلم أجد ما أقوله وقد راقت لنا الفكرة وخرجنا في اتجاه مطعم تونسي قريب.

## أهرام الكوسكوس

إلى مائدة المطعم جلسنا نحن الثلاثة نستعيد أفكارنـا عـن الفن وكأننا في سباق أو ندوة تلفزيونية أو إذاعيـة. كـل واحد منا يضيف شيئًا. الفنان الفرنسي يتحدث عن سـوق لترويج لوحاته. قد يذهب إلى أميركا. نيقولا دو ستيل رحل إلى نيويورك ولمع هناك. المتحف الوطني في نيويورك هو الذي صنع بيكاسو عملاقا حينما اقتنـى لوحتـه الشـهيرة "غرنيكا"... على الرغم من أن باريس أعطـت الكثيـر لـه

ولأمثاله من الفنانين القادمين من بلاد أخرى. غير أن الدور الأكبر الآن تلعبه أميركا. وأضاف الصديق الجديد: لا أخفيكم القول أن مجتمع الفن في باريس أصبح معقدا، من الأسبان بشكل خاص. عباقرة الرسم: بيكاسو... دالي... ميرو، ثلاثة يتربعون على عرش الرسم في العالم وهم أسبان.

أضفنا، الفنان الفرنسي وأنا، بعض الملاحظات والتعليقـات بينما حضرت أطباق الكوسكوس بأشكالها الهرمية فـاختلط مذاق الحديث بمذاق الطعام بينما راح ثالثنا يضـفي بعـض اللمحات الفكاهية للتخفيف من جدية الحديث، كـأن يقـول وهو يشير إلى طبقه بعد أن تحول إلى فضلات: انظرو. هو الآن لوحة تجريدية. وسألته من باب الفضـول: مـا هـذه الصدفة التي جمعتنا في المركز الثقافي؟ هل أنـت صـديق الفنان العارض؟ أجاب: إطلاقًا. إنني أتردد علـى المراكـز الثقافية دون أن تصلني بطاقة دعوة.

قاربت السهرة النهاية ورحنا من جديد ندخن السـجائر ذات اللون الأزرق الرخيصة ثم جاءت فـاتورة الحسـاب. قـال صديقي الأول، على الطريقة الفرنسية: الأفضل هذه المـرة أن يدفع كل واحد حسابه وأخرج مبلغًا يكفي لعشائه وحده.

وافقت أنا على الفكرة وأخرجت بدوري حسابي. أما صديقنا الجديد المثقف، صاحب الفكرة وصاحب الحديث الطويل عن الفن فلم يتحرك ولم ينطق بكلمة.

نظرنا إليه كعلامتي استفهام كبيرتين فقال مباشـرة وكأنـه فهم نظراتنا:

ليس معي فرنكًا واحدا في جيبي. أرجـو أن تعـذراني لـو دفعتما لي ثمن عشائي هذه الليلة.

جمعنا ما في جيوبنا، صديقي وأنا، ونحـن بالكـاد نغطـي الحساب. شعرنا بغيظ شديد وخرجنا لنفتـرق فـي فتـور وضيق وسكون أنسانا الحديث عن الفن.

مرت شهور وذهبت إلى حفل آخر لافتتاح معرض جديد في أحد المراكز الثقافية المنتشرة في باريس. وبالصدفة لمحته هناك في السترة الأنيقة ذاتها وربطة العنق واللحية المثلثة والحديث الطويل عن الفن. يضغط على نهايـات الكلمـات بدقة، يدخن، يفكر، يشرب ثم يناقش، وحوله حلقة جديـدة من المدعوين المعجبين. قلت في نفسي: أيهم، يـا تـرى، سيدفع له ثمن عشاء المطعم هذه الليلة.

## الفنان (جوجواه) اسم يشبه (غوغان)

(جوجواه)

قال لنفسه ذات صباح. أنا فنان. عظيم. عبقري. تماما مثل مايكل أنجلو. لماذا لا أرسم سقف مرسمي... سأستاف سام جاري... أبدأ الآن بالفرشاة العريضة أني أعيش قرنًا آخـر لو رسمت مثل مايكل أنجلو. أصبحت لا شيء. إني لا أقلد. إني عبقري من نوع جديد. سأستاف سام جـاري. ومعـي الألوان وبالفرشاة العريضة. سأجعل هـذا السـقف إحـدى روائع تاريخ الفن الحديث. أقول الفن الحديث لأني أعـيش قرنًا آخر غير عصر مايكل أنجلو الآن الفن التجريدى هـو اللغة. هو الحديث. سأجعل السقف لوحة تجريدية من طراز جديد. لمسات فرشاتي الثائرة ستدون كل ما في قلبي مـن عواطف. من خواء من عذاب. من شقاء. من حـب. إنـي ما زلت أهوى المرحلة التأثيرية. سأرسم بطريقتـي. مثـل لوحاتي المتناثرة هنا في كل مكان حولي الآن. كما رسـمت صديقتي كلودين أمس. سأرسم الآن ولأبدأ وستكون النهاية شكلاً جديدا لا أخطط له ولا أحدده.

جاس بيير جوجواه يملأ بالتته بالألوان من أنابيب ألوانه المتزايدة. يملأ أيضا وعاء الزيت والتربنتينا. وقد هبط يستاف السلم المثاث. حتى لو نام على ظهره. هذا ثمن المجد. حتى لو تلوثت ملابسه ووجهه بالألوان التي ستسقط عليه. هذا هو كفاح الشهرة سيوقع باسمه. جوجواه. هذا الاسم الموسيقي الذي يجعلك تتذكر غوغان. وإن كان لا يعجبني كثيرا. أنني سأكون أهم من غوغان. جوجواه سيخطو خطوات أوسع وأبعد من غوغان. ولنبدأ الآن المخاطرة والحدث العام في تاريخ المتاحف والفن الحديث في العالم وليكن شارع دوفين. الحي اللاتيني. باريسي رقم أربعة وأربعين. ملتقى العشاق والسياح من كل مكان نحو هذا السقف الدوفيني الشهير.

طار في خياله فجأة حلم سريع كأنه سحابة وردية سائح يسأل زميله: هل رأيت سقف جوجواه في شارع دوفين رقم اربعة وأربعين. إن لم تره فأنت تعيس فقدت الكثير.

اليوم يمضي والفنان جوجواه ذو الأربعين يخطو خطوات كثيرة بفرشاته العريضة. يخبط بها في السقف. يلوثها أحيانًا أخرى بالأخضر. الأصفر. الأزرق حتى أصبحت (أي

ما بين السخف والصخب بعينه). الضوضاء. الألوان تتنافر تتجاذب تتشاجر. كأنه في معركة مع نفسه. النهاية لا شيء ألوان وألوان دون نهاية. دون تخطيط. دون شيء.

هبط وقت الظهيرة من السلم يلتهم الرغيف الطويل ومعـه قطعة الزبد والجبن. شرب كأس النبيذ الأحمر الذي يملأهـا من الزجاجة الكبيرة بجوار علبة الألـوان وحامـل الرسـم العتيق يعود إلى ملحمته الكبيرة كما يتخيلها. والنبيذ يجور برأسه. ثمة مجد قريب. نجاح أكيد. يتشجع. ينسى التعـب. يواصل الألوان الطائشة. كل خيطه لا يدري إلى أين. يريـد أن يملأ السقف. حتى لا يبقى مكـان فـارغ دون امتلائـه بالألوان.

تعود صديقته في المساء من يوم طويل متعب وقفـت فيـه أمام عشرات آلات التصوير. كل مرة ترتدي فستانًا جديـدا. هذه المرة عارية تماما مـرة أخـرى بالقبعـة الباريسـية العريضة والجسد عارٍ. مرة أخرى بالروب الطويل الأسود. مرة أخرى بالشرابات الطويلة المزركشـة. يكـاد جسـدها النحيل الطويل يسقط من الوقفة الطويلـة وحـرارة أشـعة الإضاءة وكلكسات الكاميرات في أيـدي مصـوري مجلـة

(لويه) أو (هو) ولقطات أخرى لمجلة (هي) أو "أل" تسمرت كلودين على الباب بقامتها الطويلة الممشوقة وسط ملابس. ومعطف الحيوانات الثقيل يلف جسدها الرقيق. تنظـر إلـى السقف الملون ووجه صديقها جوجواه النائم علـى الأرض في إعياء شديد. حوله كـل الألـوان واللوحـات القديمـة والجديدة التي يرسم بها مناظر طبيعية وبعض الشخصيات.

كانت علاقتهما في سبيل النهاية. الشقاق يدب منذ أكثر من عام. ثمة ذكريات قديمة. ذكريات حب أيـام كليـة الفنـون الجميلة. كانت زميلته ترسم معه الموديل العاري في حجرة الكروكيات. أحلام وآمال لم تتحقق منذ سنوات طويلة مليئة بالفقر والبطالة حتى عثرت على العمل كموديـل لمجلتـي (هي) و (هو).. تنشر لها المجلتان صورتها كل أسبوع في لقطة جديدة. في أعماق كل واحد منهما حب عظيم. ولكنـه حب للذات فقط. هي تحب نفسها حتى العبادة. وهو يحـب نفسه حتى العبادة هذا لم يكتشفانه إلا بعد سـنوات. كانـت تعبد صورها في المجلات. عارية أو بالسوتيان الجديد آخر موديل كإعلان وهو كان يتوه في لوحاته. لا يراها. لا يشعر معها.

هذه المرة قد أحبت أحد المصورين الذين يعملون معها كان يحقق لها بعدسته عشقها لنفسها كانت لقطاته مـن طـراز فريد، يتمتع بعدسة من آلته وعدسة أخـرى مـن عينيـه. تجمعهما اللقطة فتبدو في صفحة المجلـة الملونـة علـى الورق اللامع الكوشيه كأنها أفروديت. قالت له ذات مـرة، وقد سقطت قطرات العرق على جسدها العاري. أني أريدك. كان حديثهما والتحام جسديهما بعد ذلك نهاية تامة لصديقها الفنان الذي يحمل اسم يشبه أحد أعلام الرسم فـي تـاريخ الفن. جوجواه مثل غوغان وكأنها تخاطب نفسها جوجـواه لم يعد شيئًا بالنسبة لي.. كم أكرهه .إنه تائه دائما مهمـل لكل شيء لا يعرف كيف يعيش . كيف يتعامل مع النـاس والحياة. إنه يسقط من قلبي كما يسقط أيضا في أعماقه. مع عبثه اليومي في لوحاته التي لا تحمل أي روح ولا معني.

هذه المرة تعود وقد قررت أن تتركه. تـراه منهـارا بعـد رسمه المفاجأة الكبرى. السقف الملون. ثمة عطف نحـوه ولكنه العبث. هذه الألوان التي في السقف لا تعبر عـن أي شيء إنها الغثيان.

تتوقظه من نومه وقد سقطت زجاجة النبيذ الأحمر الفارغـة بجواره. تنام معه دون إحساس. قلبها مع صديقها. تسأله. ما هذا الذي لوثت به السقف الأبيض الجميل. إنك مجنـون ضائع. إنني أبحث عن الهدوء هل تنسى أن تحـت نافـذتنا ضوضاء السيارات وهي تتشاجر في الطريق إلـى كـوبري نيف القديم عنق الزجاجة والسكارى والشواذ وملاهي الليل حتى الصباح. إنني لا أستطيع أن أعيش هذه الحيـاة أنـي أتركك.

بعد هذا التاريخ بشهرين أو أكثر كان لقاء بالصـدفة بـين الفنان جوجواه وبيني. يقدمني له جاره الفنـان السـوري عنتابي الذي يدرس الفن الزخرفي والحفر مسيو جوجـواه أقدم لك صديقي الفنان المصري الذي يبحث عن مرسم فـي باريس. هل يمكنك أن تؤجره له يقول لي ببسـاطة. خـذه وادفع لي خمسمائة فرنك كل شـهر. إنـي أملـك الطـابق الأعلى. سأرسم فيه طالما أن زوجتى كلودين تركتني. هـذا عشنا القديم، تستطيع أن تستأجره.

كان حديثه بسيطًا. ليس به أي مبالاة ولا أوراق ولا عقـود ولا التزامات. ولكنه توقف فجأة وأنا أدفع لـه أول إيجـار

وهو يعطيني المفتاح – قائلاً في شدة بعض الشيء شـرط واحد فقط.

سألته بلهفة ماذا: قال تفعل ما تشاء بالمرسم.. إلا السـقف لا تمسه.. تتركه كما هو.

تطلعت بسرعة إلى السقف وقد أحسست بالغثيـان.. وقـد أدركت بسرعة بشعور الفنان عندما يرسم أي شيء.. وهو يريد أي مشاركة أو مجاملة. قلت له على الفور وأنا أكذب:

- دي تحفة جميلة رائعة. هذا من حظي أن أعـيش تحـت سقفك وعالمك الجميل الملون سأتذكر كل لحظة أصحو فيها في الصباح وعيني تبحلق في السقف في ألوانـك الجميلـة ولمساتك التأثيرية الرقيقة.

كانت كلماتي قد أشعرته بسعادة غامرة وهـو يتـرك لـي المفتاح ويصعد إلى طابقه الأعلى.

جوجواه -٢-

كانت خطوات أقدامه الثقيلة فوق رأسي. يدق بهـا جيئـة وذهابا بالطول والعرض. خطواته قوية مزعجة قلقة معذبة. فوق رأسي. إنني جالس في مرسمه الذي استأجرته منه ٤٤ شارع دوفين بباريس ٦ أنه الآن يعيش ويرسم في الطـابق

الأعلى.إنه حائر دائما. وحيد معذب مع ألوانه وفرشاته. إنه لا يخرج من حياتي. سقفه الملون المـزعج أراه فـي كـل لحظة. مع أول نظرة أفتح بها عيني عنـدما أسـتيقظ مـن النوم. وآخر نظرة قبل أن أغلقها لأنام. أثناء النهـار يـدق السقف بأقدامه الثقيلة.

لقاءاتنا السريعة على السلم أثناء شراء الرغيـف والنبيـذ والجبن صباح الخير. كيف الحال. لحظة أهميـة أو أهميـة ماشية، أسأله. بترسم حاجات جديدة؟ يقول أبدا مش عارف انفعل. لازم أسافر. أترك باريس بعض الوقت.

كان غالبا هو الحديث بالفرنسية سريعا على السلم العتيـق في هذا المنزل القديم الذي يحمل قطعة من الرخـام علـى الباب تحكي تاريخ هذا البيت منذ وقـت نـابليون والممـر السري الذي استعمله الجنود والذي يؤدي إلى الجانب الآخر من نهر السين.

أخطو بقدمي خطوة السلم العالية وأنا أسـتند بيـدي علـى الجدار الحجري العتيق وأعمدة الخشـب السـوداء تكسـو الجدار.

أعود إلى لوحتي أرسم مواضيعي المصرية. أم تحمل طفلاً. طفل يلعب بطائرة ورق. آخر يجـري بـالطرق. جوجـواه يتطلع إلى لوحاتي من طرف الباب ينظر إليها بـلا مبـالاة. أدعوه إلى كأس. يجلس أمام لوحتي لأراه. نشرب في صحة الفن ينظر إلى السقف الذي رسمه. تنتهي الكأس. سلام. ثم يختفي صاعدا سلالمه القديمة إلى الطابق العلـوي. تعـود دقات قدميه من جديد. جيئة وذهابا فوق رأسي.

كان دائما ساخطًا كلما رآني أرسم بحرارة وكثرة يقول لـي أحيانًا. أنت تستعد لعرض لوحاتك في باريس. هذا عبث. لن يقدم ولن يؤخر. سأتركك تفعل ما تشاء وستفهم أخيرا مثلي أن العرض هنا تجارة، سلعة، ليس لها أي علاقـة بـالفن. عصر التأثيرين انتهى الذي درسته في تاريخ الفن في كلية الفنون مجد سبرزان وفان غوغ وغوغان وبيسارو ومونيه وسيراه ورنوار. هذا عصر ذهبي لباريس مضى وولى. لن يعود. باريس تعيش على بقية رائحة هذا العصر.

كانت أحاديثه دائما هكذا عن فن الرسم. لكني كنت أعـرف أعماق جوجواه. هذا الفنان الفرنسي الذي نجح في بدايـة حياته الفنية. كان الحب مع الفن يسيران جنبا إلى جنب في

خطوات سعيدة. هذا حدث له منذ سنوات. لم يحك لي هـذه الفترة ولكني ذات مرة وبطريق الصدفة عرفت الحقيقة.

عندما ترك لي هذا المكان كانت هنـاك بعـض الكراكيـب القديمة متناثرة في كل مكان. تحت السرير خلف الـدولاب مع بعض المجلات القديمة والأسطوانات في إحدى المـرات عثرت على ألبوم صور فوتوغرافية. كان هذا النجم اللامـع الأنيق في حلله السوداء اللامعة وربطة العنـق الحمـراء. حوله مصورو التليفزيون وعدسات الأصدقاء معـه سـفير ووزير يفتتحان معرضه في بروكسل. بجانبه حبيبته كلودين في أحلى فستان للسهرة. رشيقة طويلة جميلة. لوحاته على الجدران. يتطلع إليها النقاد والأصدقاء والزوار. كتب تحـت كل صورة. هذه لقطة مع الناقد.. هذه ليلـة الافتتـاح مـع الوزير الفرنسي. مع السفير الفرنسي.

عندما التقيت بجوجواه في اليوم التالي بعد رؤيتـي لهـذا الألبوم. ناديته من على السلم وأنا أناوله الألبوم. عفوا كنت شغوفًا لرؤية ما بداخله وقد سمحت لنفسي أن أتفرج عليه. أعجبتني اللوحات والصور الفوتوغرافية وتعليقات النقـاد. لابد أنه كان نجاحا هائلاً.

قال لي جوجواه وهو يحاول ألا يبالي. لقد بعت كل لوحاتي. حضرت هنا إلى باريس.. بلـدتي وقـررت أن أرى هـذين الطابقين في قلب الحي اللاتيني بباريس. ري دوفين. وقلت لنفسي طالما أني حصلت على مرسم لى هنا وشقة لي مـع كلودين فلابد أنها بداية جديدة للشـهرة والمجـد والنجـاح والحب أيضا.

عادت خبطات قدميه فوق رأسي وهو يروح ويجـيء فـي طابقه العلوي وأمامه لوحة فارغة غالبا لم ترسم بعـد. أو لوحة بدأها ولم يكملها.

الأيام الباردة لشتاء باريس تمر وثلوج يناير تتساقط علـى حافة الشباك أمامي والحال كما هو بين مرسمي ومرسـمه ولقاءات السلام وأحاديث سريعة لا معنى لها. كان زميلنـا الثالث في نفس المبنى الفنان السوري عنتابي صديقي الذي قدمني إليه كان بين الحين والآخر يطرق بـابي بطريقتـه الشرقية ليقول لي: أن جوجواه رمى كـل لوحاتـه التـي رسمها في صندوق الزبالة. تعال نحضـر اللوحـات فهـي مرسومة على قماش ثمين جدا. ويمكننا بسهولة تحضيرها بالأبيض مرة أخرى فتعود كأنها جديدة ونرسم عليها.

كان جوجواه يرسم ويمزق. ويشـتري القمـاش الأبـيض ويشرع في لوحة ثم يغير رأيه فيرميها في سـلة الزبالـة. تحت بير السلم. إننا أنا وصديقي الفنان السـوري عنتـابي نرسم على لوحاته القديمة بعد أن نمسحها باللون الأبـيض ثار واعتبرها أهانة شديدة له ولفنه.

ذات صباح هبط من طابقه نقـر بـاب حجرتـي بطريقتـه الفرنسية المهذبة كان يحمل حامل المناظر الطبيعية الخشبي وقد تشابكت فيه أكثر من خمس لوحات لـبعض المنـاظر الطبيعية كان قد رسمها في الصيف. بحر ومراكب وميناـاء وبلاج. قال لي جوجواه: سأغيب أسبوعين في نيويـورك. سأجرب بيع لوحاتي في أميركا. لم تعد تفيـدني بـاريس، باريس ماتت في نظري. هل أستطيع أن أسـتلم منـك الآن إيجار الشهر القادم حيث إنني أحتاج إلى نقـود فـي هـذه الرحلة. أعطيته بعض النقود. شكرني وسافر. وقلت لنفسي الحمد سأستريح من خبطان أقدامه فوق رأسي سأرسـم في هدوء الآن.

بعد ذلك بأسبوع جاءت إلي سيدة فرنسية طويلـة رشـيقة عرفتها فورا. هي نفسها كلودين في الألبوم الملـون وفـي

أقاصيص صحف (هو) و (هي) التي كانـت تظهـر فيهمـا كموديل أو مانيكان أحيانًا للإعلانات وأحيانًا للمجلة نفسها.

كانت أقل جمالاً من الصور. وظهر خلفهـا شـاب أفريقـي طويل ررشيق جميل كأنه مانيكان أسمر وقف خلفها لا يتكلم ولكنه يحميها بوقفته العملاقية الثابتة. قالت لي أنا زوجـة جوجواه أو مطلقته. إننا شركاء في هذا المرسم يمكنـك أن تدفع لي الإيجار هذا الشهر كما أن لي حقيبة تركـت فيهـا بعض ملابسي.قات لها تفضلي يوجد حقيبة فعلاً مغلقـة لا أعرف عنها شيئًا. أما الإيجار فقد دفعته لجوجواه لأنه قـال يحتاج إلى هذا المبلغ في رحلته. ثم أنه لم يذكر لي شـيئًا عنك وعن زيارتك لي هذه وطلبك للنقود.

أخذت تتوعد وتهدد وتقول عبارات شرسـة حتـى أشـعر بالخوف وأدفع. ولكني تماسكت بأعصابي وقات لها سأرسل خطابا إلي جوجواه. لقد ترك لـي عنوانـه عنـد صـديقه الأميركي في أي حالة مثل هذه. ويمكن أن أرد عليكِ بعـد ذلك. عندما لم تجد مني ضعفًا خرجت بعد أن أخذت بعـض الملابس من حقيبتها وخرجت مع صديقها الأفريقي.

لم أفهم ماذا يحدث بينهما، أنهما يتشاجران حتى على البعد. لا يوجد ثمة لمسة أو بقايا عاطفة بينهما. وعدت للرسم من

جديد محاولاً النسيان حتى لا تضيع رأسي في أفكار جديدة .
عادت كلودين في الأسبوع التالي وحدها هذه المـرة أكثـر أناقة وجمالاً. عندما فتحت لها البـاب. شـعرت بمشـاكل جديدة. وأنها ربما أحضرت معها المحامي وأوراقًا لتطردني وتأخذ المرسم إلا أنها كانت رقيقة هذه المـرة. كانـت قـد خلعت قناعها القديم وارتدت قناعا جديـدا عنـدما تأملـت لوحتي على حامل الرسم وهي تقول: هذا جميل. إحسـاس مرهف وبدأت في أسئلة عن حياتي وإقامتي فـي بـاريس ومدى حصولي على النجاح كفنـان فـي مدينـة مزعجـة كباريس. كنت قد أعددت لها كأسا صغيرة لأقدمها لها وهي تحكي القليل عن حياتها الجديدة. تركت جوجواه كنت أعمل عارضة أزياء. إلا أن ازدحام الفتيات الجديدة دفعنـي إلـى الخارج فحاولت العمل في أسبانيا كعاملة مونتاج في فـيلم فرنسي يصور هناك. الآن لم يعد لي مكسب كثير. فكرت في العودة إلى باريس والمرور على جوجواه. إن بيننا مسـائل عادية بعض الشيء كنت أظن أنه أحسن حالاً الآن من بيع لوحاته إلا أنه لا يبدو كذلك. وهل تستطيع أن تعطيني مئتي فرنك من إيجار ستدفعه لجوجواه ولو بعد شهر.

كنت قد تسمرت في مقعدي لا أدري ماذا أقول. فالحياة في باريس ترتفع في الأسعار يوما بعد يوم... وبالكاد أبيع بعض اللوحات لتجار الصور أو الرسوم لبعض الصحف لنشتري ما يلزم وندفع مصاريف الكهرباء والتدفئة وأحياناً الملابس والمقهى وأدوات الرسم.

عندما رأتني صامتًا لا أرد. دخلت الحمام الصغير خلف حامل الرسم وهي تقول لي عن إذنك. لي ذكريات كثيرة.... دفعت باب الحمام لتبحث عن مرآتها الصغيرة في ظهر الباب. مرآة قديمة لها إطار زخرفي أثري قديم.. كنت قد عثرت عليها في المرسم. قالت لي كلودين وهي تحاول أن يكون صوتها أكثر دفئًا.. أجمل لحظاتي وأنا أتأمل نفسي في المرأة الصغيرة هذه. لا تؤاخذني فأنا أشعر أني في بيتي.

كانت ترفع ذراعيها أمام المرآة لتنظم شعرها القصير حتى منتصف الرقبة الطويلة العارية وتخيلت نفسي كلقطات السينما أطوقها بذراعي أمام المرآة. إلا أني تذكرت المئتي فرنك التي تطلبها عندما فقت بسرعة من الحلم الخاطف.

لاحظت ترددي في هذه اللحظة السريعة فاقتربت منـي وقبلتني بسرعة واختفت ولم أرها بعد ذلك.

**جوجواه -٣-**

يعود( جوجواه) من أمريكا حاملاً لوحات جديدة تحـت إبطه. مهللاً لي على السلم القديم فـي ري دوفـين بـبعض كلمات إنكليزية لها لكنة فرنسية فنضحك معا. وهـو يقـول بعت بعض اللوحات هناك كما رسمت بعض الوجوه للعائلـة الأميركية الصديقة أصبحت تزين الشقة كلها. الرحلة كانـت موفقة لا شك. أنت لا تزال ترسم للعرض يا صديقي الفنـان المصري ليست باريس كما كانت في الثلاثينات.. أقولها لـك مرة أخرى. كما ترى. أني فنان – فرنسي أترك بلادي لأبيـع في أميركا. الفرنسيون الآن يفكرون في منزل فـي الريـف ويشترونه يقضون فيه إجازة أعياد( الكريسـماس والبـاك) وشهر الصيف تحت الشمس. كيف يشترون بعد ذلك لوحات. كما أن الشقق في باريس أغلبها قديم ضيق. الجدران مكسوة بالورق المزخرف الساحر الجمال. الرخيص الثمن. تليفـون بسيط إلى( سامارتين) أو( بروزينيك) أطلب كسوة لجـدران حجرتي. يحضر العمال ومعهم الألبوم به مئات من الأشكال

الجميلة أختار منها ما أريد. أدفع شيئًا بسـيطًا لا يـذكر ولا يساوي ربع لوحة من معرضك القادم مثلاً. كمـا أن بعـض هذه الشقق القديمة الباريسية تحمـل لوحـات قديمـة علـى جدرانها كان قد اشـتراها جـدي منـذ وقـت سـيزان أو ديلاكروان.

إنني لا أريد أن أثبط همتـك وأنـت ترسـم عشـرات الاسكتشات واللوحات يوميا. على فكرة سأترك باريس مـرة أخرى. هذه المرة إلى أسبانيا والآن فلنهبط الشارع نشـرب القهوة سويا ونكمل حديثنا الذي أرجو ألا يكون عن الفن مرة أخرى. فقد مللناه كحديث معاد دون جدوى. باريس فعلاً لها مذاق خاص وسحر خفي وقد وحشتني فعلاً. هيا بنا. تركـت الفرشاة أمام لوحتي وهبطت السلم في سأم مع جوجواه نبحث عن فنجان من القهوة السوداء وبجانبنا صـندوق الموسـيقى الصغير ولعبة البنغ بنغ التي يلعبها الصـغار عـن طـرق التلفزيون. انتهى حديث الفن وأصبحنا نتأمل داخـل أنفسـنا أفكر مرة أخرى في كلامه. أحيانًا أقول معه حق. وأحيـان أخرى أقول أنه فنان ضائع وهي وجهة نظر يائسة من فنان في باريس.

بعد شهر كنت بدأت أصنع الإطارات للوحاتي يساعدني في ذلك صديقي الفنان السوري( عنتابي) نذهب سـويا إلـى مخزن الخشب في المحلات الكبيـرة مثـل( البريزونيـك) أو( الساماراتيني) نشتري الخشب بالمتر نقصه بزاوية حتـى نستطيع أن نصل إلى إطار من صنع أيدينا لا يكلـف علـى الإطلاق.... كنت قد قررت أن أغامر وأن أتصل بمطبعـة متوسطة الحال عن طريق صديق فرنسي آخر اتفقنـا مـع المطبعة على طبع أفيشات المعرض وقد كتبت اسمي بالخط العريض ووجه مصري يحمل وجه طفل. والمسـاحة كلهـا بيضاء ما عدا الوجهين السمراوين. بعد أسبوع كانت أوراق الإعلانات تحت إبطي أحملها وأصل إلى مرسـمي أعطـي ربعها لصديقي( عنتابي) السوري ليوزعها علـى محـلات الموضة الأنيقة في شارع السان جرمان ومقـاهي الباليـت والري دي سين الشهير بالمعارض الكثيرة أو سوق الرسم.

أما أنا فقد كنت قررت أن أشتري جردلاً أملأه بـالغراء أو الصمغ واخترت فرشاة قديمة عريضة وهبطـت شـارع سانت اندريه ديزارت ألصق على الجـدران بمعـدل كـل خمسين مترا إعلانًا عن المعرض حتى انتهى الشارع الطويل

الضيق المزدحم بالمارة وبشباب الهيبز ليل نهار حتى كنـت قد وصلت إلى ميدان( سانت اندريه ديزارت) جلست علـى مائدة المقهى أشرب فنجانًا من القهوة لأستريح.

لم يكن قد مر على مشواري في هذا الشـارع الطويـل أكثر من نصف ساعة قلت لنفسي أكتفى اليوم بهذا الشـارع غدا أكمل في شارع آخر. في طريق عودتي وددت أن ألقي نظرة على الإعلانات التي ملأت بها الشارع وهي في طريق العودة إلى مرسمي بشارع دوفين. لم أكد أصدق ما حدث لم أجد إعلانا واحدا سليما على الجدران من حـوالي الثلاثـين إعلانا الذين لصقتهم. كان الإعلان الواحد ممزقًا في قسـوة شديدة لم يبقَ منه سوى بعض الحروف أو الأطـراف مـن الاسم أو من الرسم. كان البعض الآخر قـد اختفـى تحـت إعلانات أخرى ملصوقة لتوها.

في فترة بعد الظهر خرجت مع صديقي( عنتابي) لنقوم بجولة جديدة في السان جرمان الشهير كنت قد التقيت به وقد وزع بعض الإعلانات. وعندما مررنا في الشارع مرة أخرى كانت بعض الإعلانات جميلة ملصوقة وسط فساتين الموضة

والبعض على باب محل نظارات والآخر على زجاج مقهـى أو محل غسيل أوتوماتيك.

إلا أن الحال لم يدم طويلاً. كانت الفتاة ذات البنطلـون الأزرق الضيق التي تقف على باب محل الموضـة أو كمـا يقولون هناك( البوتيك) تأخذ الإعلان تلصقه أمامـك علـى الباب حتى تختفي عن النظر فتنزعه من جديد و ترميه في الأيام التالية لم نكد نرى الإعلانات تماما.

كانت دائما فلسفة جوجواه اليائسة تدور بخيـالي كلمـا اعتراني شيء من ثبوط الهمة. كنت أصعد الدرجات القليلـة العالية بيننا لآراه أقول له على طريقتهم بالفرنسية( بونجور) أو( صباح الخير).. هذه المرة كان يجلس على مائدته وحيدا وأمامه رقعة الشطرنج وقد تبقت عليها قطع قليلة من الأسود وقطع قليلة من الأبيض. قلت له. جوجواه ماذا تفعل؟.. أشار بيده وهو منهمكًا في مباراة حامية تستغرق كل تفكيره وقال: ألاعب نفسي أنها لعبة ممتعة جدا ولولعبتهـا كـذلك فإنـك ستتخلص من جميع المآزق التي يمكنها أن تجعلك تأكل الملك أو تكشه.

كان منظر جاري الفنان الفرنسي جوجواه وهو يلعـب الشطرنج مع نفسه يتكرر مرات كثيرة كانت حياتـه مليئـة بالنساء ويحضرن في ليالي السبت والأحد وفي كل مرة نوع جديد من الأصدقاء. لم يكن له صديقة معينة. يبدو لي أنه فقد الحب لأي واحدة منهن. كانت علاقته دائما بدون إحسـاس. تماما كلوحاته التي يموت فيها الشعور والإحساس الذي هـو نبض استمرار الفنان الحقيقي بداخله. كان جوجـواه فعـلاً يعيش بلا روح بعد أن باءت علاقته القديمـة مـع زوجتـه كلودين بالفشل بعد سنتين من الزواج تقريبا كنت أفكر هـل يمكن لفنان مثله يعيش في مرسم شـارع دوفـين المـزدحم بالسياح وعلب الليل والمقاهي ومحلات بيع الجـبن والالـبن والخمـور والسندويتشـات ومطـاعم البيتـزا الإيطاليـة والاسباكيتي. والمطاعم الصينية واليابانية والكوريـة. ذلـك الشارع الضيق المزدحم بالهيبز يتاجرون بالمخدرات علـى ناصيته يفترشون الرصيف الليل والنهار. وغالبا في الصباح تتعثر أقدامنا في أنابيب زجاجية صغيرة فارغة أثر استعمالهم لها كمخدرات. هل من المعقول أن يعيش وسـط كـل هـذا إنسان يعيش وحيدا.

فرنسي في باريس يلعب الشطرنج مع نفسه أغلب الأيام وأوقات فراغه عندما يمل الرسم.

من العجيب أن أمر تحت بيته بعد عامين كنت قد تركت المرسم له يؤجره لصديق آخر وغادرت باريس إلى القاهرة سنتين عندما صعدت إليه وكان بالصدفة بصحبتي صـديقي النحات المصري آدم حنين لأراه بعد عـامين وأكثـر مـن مغادرتي المرسم والشارع وجدته تماما – بنفس الصورة التي تركتها يجلس أمام لعبة الشطرنج يلاعب نفسه.

* * *

## الناقد والبوظة

رن التلفون في مرسمي المتواضع لأسمع صوت صديق ناقد في صحيفة عربية مهاجرة في باريس قـائلاً: مبـروك ستبيع لوحة من لوحاتك عندي زبون لك.. وهو أحد الزملاء المثقفين. إنه المدير الفني للمجلة التي أعمل بها... لقـد رأى الموضوع الذي كتبته عـن معرضـك الأخيـر... اسـتمتع بالصور الفوتوغرافية للوحاتك المصاحبة للموضوع.. أفـرد له صفحتين وأخرجها إخراجا جميلاً بالإضافة إلى نيته لشراء اللوحة... لقد أعطيته رقمك وهو سيخابرك الليلة لتتفق معـه على موعد لزيارة مرسمك طالما أن المعرض انتهى وقد فاته رؤيته.

وجاءني صوته فعلاً في ذات المساء:... ها.. الأعمـال الجميلة... تسلملي هاالأيادي... يعطيك العافيـة... وتبادلنـا التحيات هو بلهجته اللبنانية وأنا بلهجتي المصرية. ا ينـور عليك.. فرصة سعيدة... موعدنا غدا بعـد الظهـر خلـف كاتدرائية النوتردام.

وجاءت سيارة فاخرة وذراعه تخرج من النافذة تحييني قبل أن أرى وجهه... ترك السيارة بجوار الرصـيف وشـد

على يدي بحرارة وقد تسلقت على كتفه طفلـة جميلـة فـي السنوات الأولى هلل لها هو يشير إلى الكاتدرائية الكبيرة من الخلف حيث تمثال العذراء وسط الحديقة ونافورة الماء ممـا أعطى لجو شهر تموز بعض الترفيه عن الحر.

كنا اتفقنا على الموعد في هذا المكان علـى أن نعبـر الجسر وبعض خطوات من الطريق، نصل إلى المرسم فـي الحي الرابع حيث مرسمي في جزيرة القديس لويس.

يقابل باب البيت القديم الذي أسكنه أشهر بائع جيلاتـي في باريس... يحضر له المعجبـون مـن شـتى الأنحـاء المعمورة بالسيارات والعجلات والموتورات... ولذلك يقفون طابورا يمتد عشرات الأمتار يحتلون الرصيف المقابل.

صعدنا إلى الطابق حيث مرسمي فتحت الباب وجلسـنا ومعنا الطفلة تقلب بعض اللوحات وهو يسألني... أريد لوحة من هذا النوع. هذه تعجبني. هـذه لا بـأس بهـا... هـذه أفضل... وهكذا وهو يؤكد لي، لابد أن أحصل على لوحـة من هذه اللوحات.. ثم يسكت قليلاً ويقول... الموضـوع قـد أخرجته في المجلة إخراجا جميلاً.. صفحتان كاملتان.. ولكنه

لا يسأل عن الثمن... ولا يبدو منه أية ملاحظة لأن يدفع ثمن اللوحة التي أعجبته.

لم أفهم... هل يريد لوحـة هديـة... أم سيشـتريها.. الواضح تماما أنه جاء لاختيار لوحة دون أن يدفع ثمنهـا أو يسأل عن ثمنها... إلا أن الصغيرة صاحت فجأة:

– بوظة يا بابا... بدي بوظة من تحت.. لم أفهـم فـي بادئ الأمر معنى كلمة بوظة فهي بالمصرية تعني نوعا من البيرة المعتقة التي يشتريها أهل النوبة في بعـض المقـاهي القديمة في الأحياء الشعبية في القاهرة.. فضحكت للمقارنة.. هذه هي البوظة الشهيرة التي يحبها أهل باريس في المحـل المقابل للبيت حيث يقفون طابورا يحتلـون شـارعا كـاملاً وناصيتين وأحيانًا يعطلون المرور حيث تقوم سـيدة مـرور معروفة في الحي بتنظيم حركة سير ووقوف السيارات.

المنظر أصبح مألوفًا بالنسبة لي... هؤلاء أهل الفرنجة يخرجون من المحل بعد الوقوف في الطابور ساعات وهـم يلحسون قطعة الجيلاتي المعلقة في نهاية قرطاس البسكويت. أحيانًا لونها أحمر أو أصفر أو أخضر... تعودت على رؤية لسانهم متدليا في غبطة وهم يلتهمون أعلى القرطاس.

ولكنه منظر جديد على صديقي الـذي توقـف فجـأة وطفلته تصيح مطالبة بالوقوف في الطابور والحصول علـى قطعة من جيلاتي الفاكهة.

واضطررت أن أقتنع بفكرة الصديق الضيف وبصـياح طفلته ووقفنا نحن الثلاثة في الطابور.

ومرت ساعة والطابور يتحرك ببطء حتى وصلنا إلـى مكان الثلاجة حيث تلهفت الطفلة على قطعة البوظة الحمراء.

وطال حديثنا عن البوظة ووصلنا إلى مكـان السـيارة حيث ركنها صديقي الجديد مع طفلته، ولا يـزال قرطـاس البسكويت على شكل برج إيفل المـثلج والملـون بـالألوان الحمراء والصفراء يزهو من قمته.

ولم يعد لحديثنا عن الفن وعن اللوحات وعن المقال أي مجال. كما لو أننا قد نسيناه أو تناسيناه تماما.

وصدرت الصحيفة العربية في الأسبوع التالي وقد ظهر المقال الفني عن معرضي.. ولكنه كان قد تحول إلى صفحة واحدة.

**العثور على صلاح عبد الصبور وأمل دنقل في باريس!**

اليوم رسمت لوحتين. قلبت أوراق كراسة قديمة وقفت أمام صفحتين استوحيت من الرسمين اللوحتين الجديدتين.

في قلبي فرحة غامرة.. لقد تغلبت على الحزن الرسم دائما هو وسيلتي للخلاص. منذ شهور عديدة وأنا لا أصدق فقدان عزيزين. تموج بين الذكريات حتى عثرت على هاتين الصفحتين من كراستي القديمة أنهما دراستان من الطبيعة لوجهي صلاح عبد الصبور وأمل دنقل.

لحظة صباح مشرق على مائدة محددة في مقهى (لاباس) في القاهرة. المائدة تضمنا نحن الثلاثة بلا موعد. فقط بالصدفة. صلاح عبد الصبور وأمل دنقل وأنا.

بالترتيب حضرت أنا أولاً. اخترت المائدة في ذات الركن الذي نجلس عليه غالبا. جاء صلاح بعد ذلك ثم جاء أمل. طلبت قهوة ثانية لأشارك صلاح قهوته ثم أقبل أمل فشرب صلاح قهوته الثانية ليشارك أمل قهوته بالتالي بينما كنت انتقلت أنا لمرحلة التدخين حيث بدأت أرسل بعض المداعبات نحوهما. تلك المفارقات الصغيرة التي تضفي على مائدتنا جوا من المرح كأن ابتساماتنا وضحكاتنا الصغيرة

الصباحية تتصاعد من حولنا مع بخار القهوة الساخنة ودخان سجائرنا. لم يبد لنا حديث أو موضوع محدد نتجاذب أطرافه واربما تنتهي الجلسة بسرعة وينصرف كل منا إلـى مكـان عمله. ولكن هذا الصباح بالذات كأنه شيء مكتوب أو لقـاء نظمه القدر. كأن الصوت يأتي من داخلي يرشدني. سـتكون لحظة تاريخية لا تكرر. وقال له يا إبراهيم اذهب إلى هنـاك حيث تجد كبشًا صغيرا فاذبحه.

المكان في ذلك المقهى يزدحم بالناس خاصة كل صباح تموج الحركة ما بين البار والموائد رغم تباطؤ النـادل مـن بعيد نسمع حركة مرور السيارات وصفارة رجل المرور ما بين شارع قصر النيل وممر بهلر ونحن خلف عمود يصل ما بين الأرض والسقف وهو الذي جعل من مائدتنا ركنًا وكأننا نحن الثلاثة في ريف قريتنا نستند إلى شجرة ظليلة تنوعـت بيننا العبارات القصيرة المرحبة كالصباح أشعلنا نحن الثلاثة سجائرنا. وبدأنا نتحمس قليلاً لحديث ربما يطول أو يثور أو يصول.

المقهى وسط البلد أقامة خواجة اسـمه لا بـاس منـذ سنوات بعيدة كان أفخم أماكن العاصمة حيث يحتل زاويتـين

جميلتين ما بين شارع قصر النيل واستمرار ممر بـالبواكي لخواجة آخر اسمه بهلر. المدخل سـتائر والـدرج رخـامي والباب زجاجي والأرض بلاط لامع والموائد مختلفة عليهـا مفارش مزركشة وإناء زهور. الإضاءة خافتة مسـلطة مـن أركان عديدة من السقف نحو كل مائدة ،أكبر جدار عليه أهم سجادة من عمل أطفال الحرانية المشهورين في الكتب الفنية العالمية الملونة. لوحة الشجرة أبعادها خمسة أمتار مربعـة تقريبا ألوانها برتقالية تزغرد على فروعها عصافير وفاكهة. لون الشمس الساقطة أعلى اللوحة يتدرج ما بـين الأحمـر فالبرتقالي فالأصفر ينتشر ما بين الفروع والأوراق الخضراء والثمرة تتدرج في اللون أيضا مثل الشمس ما بين الأصـفر والبرتقالي والأحمر. الغرسونات من أهل النوبة يلبسون زيا واحدا ما بين الرمادي والأخضر حـركتهم كانـت سـريعة متحمسة وابتسامتهم أسرع وأصدق بينمـا رئيسـهم النـوبي الكبير يتمخطر هنا وهناك يشرف ويساعد يسير في سرواله الأفريقي الواسع المحلى بتطريز عصر الأتراك.

كل هذا بينما يحضر الشاي أو القهوة في أوانٍ فـاخرة من البورسلين الزخرف والأكواب اللامعة البياض الموسيقى

تخرج من ثنايا الستائر تعـزف سـمفونية أو كونشـرتو أو مقطوعة الفصول لرحما نينوف.

لم يبق الآن شيئًا من هذا نحن الثلاثـة جالسـون فـي ضجيج تعودنا عليه وكأننا لا نسمعه ما بين حركة الزبـائن بالداخل وصياح البارمان وأنين آلة عصير البرتقال البدائيـة وبين ضجيج الطريق وصفارة رجل المرور والشـمس قـد سقطت وتسلقت الزجاج البابي وانعكست في عيوننا فلم نعـد نعرف ما بالداخل، الفترينات تحولت إلى بضاعة رخيصة بلا ذوق ولا ستائر ولا مفارش ولا سجادة حتى كوب الشاب أو فنجان القهوة فقد تحول إلى نـوع رديء اسـمه الميلامـين يعلنون عنه كل يوم على شاشة التليفزيـون. علـى البـاب الخلفي زحام وضجيج فقد أعلنوا عن شواء فـراخ والـدفع مقدما من الكيس حيث يستلم الواحد رقمـا والاسـتلام مـع الغروب.

كنا قد فرحنا بالتأميم ولم يبقَ من الخواجة لا باس سوى اسمه أصبح للمكان رائحة ثقافية وفنية خاصة فهـو مقهـى الباليت والسلكت في باريس وهو الهورس شو بيروت كنا قد تحولنا نحن أبناء المكان إلى خليـة حـب مـن الأصـدقاء

والصحاب وفي بعض الأحيان نتبادل الموائد ونتناقل المقاعد ما بين أهل السينما والمسرح والكـرة والكتـاب واللوحـة والصحيفة بالإضافة إلى البطالة والصعلكة.

غمرتني سحابة الماضي عدت اللحظة التالية إلى جلستنا الثلاثية وقد تطور الحوار بين صلاح وأمل وكعادتي انتهزتها فرصة وسحبت كراستي لأرسم وقد رأيت مصر وقتها على وجهيهما. كان صلاح عبد الصبور وقتهـا حـديثًا للنـاس والمسرح القومي يقدم كل ليلة رائعته الشعرية مأساة الحلاج وأمل دنقل انتهى من قصيدته الكعكة الحجرية.

ولم أرسم كما رسمت في حياتي في مثل هذا الصـباح كان حديثهما مشوبا بحب مصر لدرجة أنني كنـت لا أنظـر إليهما وأنا أرسمهما وكأنني أسـتلهم لمسـاتي مـن حـرارة الحوار. أو كأنني أراهما بأذناي خاصة وقد انضم إلينا طرف رابع هو الساخر علي سالم.

الرسم منشور مع هذا الكلام.

اليوم جلست في صباح آخـر مبلـل بنـدى وضـباب باريس. عبرت جسر ماري فوق السين وكأنني أتذكر النيـل فأقول كوبري قصر السين بدلاً من كوبري قصر النيل.

دخلت مرسم فن( الليتوغراف) في مدينة الفنون المواجه للجسر.. أمامي على المائدة قطعة حجرية( أتذكر من جديـد الكعكة الحجرية). أرسم عليها اللوحتين من وحي رسمي في الكراسة القديمة.

وكتعاليم فن الليتوغراف ثبت الخطوط بالصمغ العربي ثم تركت الحجر يجف وأزلت الصمغ ثم وضعت الحامض ثم الحبر ونقلت قطعة الحجر إلى المطبعة وأدرتها فأخرجت لي نموذجين على الورق الخاص المبلل تركته يجـف ونجحـت العملية الفنية.

تذكرت موعدي في الصـحيفة الباريسـية فوضـعت اللوحتين في قلب كراسة كبيرة لها ذات الأبعاد وضعتها تحت إبطي وهبطت درج الأنفاق أستقل القطار( المتـرو) تحـت الأرض.

فرحا كما طفل أبله ألبسته أمه قميصا جديدا أو أعطتـه قطعة من الحلوى، جلست في قمرة القطار على مقعد وثيـر خالٍ بالصدفة في تلك القمرات الجديدة التي يوجد بها ما يشبه الصالون في غرفة الجلوس أيام زمان.

حافة المقعد لها كتف أستطيع أن أريح عليـه ذراعـي المتعبة من الرسم على الحجر وحمل الحجر وإدارة ذراعـي المطبعة. المجلد الكبير الجديد ذو غلاف كرتـون برتقـالي اللون والمقعد والمسند لونهما برتقالي أيضا سـمك الملجلـد الذي بداخله لوحتي الليتوغراف يسد تجويفًا صغيرا ما بـين حافة المقعد والمسند بحيث إنني بحركة صغيرة من ذراعـي غاص قليلاً في هذا التجويف فأصبح دون أن أدري جزءا من المقعد الثلاثي الكبير حيث نجلس نحن ثلاثة مقابـل ثلاثـة آخرين. بالإضافة أنني أحمل على كتفي حقيبتي التـي هـي أقرب إلى الزكيبة بها أدوات رسم وأوراق ونقود جلست في مقعدي وسط ركاب متنوعي الأجناس ما بين محطة جسـر ماري ومحطة القصر الملكي مزهوا بنفسي أحلم بـاللوحتين. كأنني أُطَمِئن صديقي صلاح وأمل سـيدخلان الخلـود. لقـد وفيت بالوعد مع نفسي. ما زلت أرث جدي فرعـون الـذي صنع حياة ثانية رسم ونحت وحنط وصنع التـابوت وجعـل المقبرة غرفة حياة جديدة.

الحزن أصبح غلالة على جسدي بعد أن كـان معطفًـا ثقيلاً في يوم قيظ. سأعرض اللوحتين أنهما قصـيدتنا وفـاء لأني لا أحب الرثاء.

جاءت محطتي القصر الملكي( باليه رويال) أفقت مـن الحلم هرولت أفتح الباب التلقائي، هبطت صفق الباب خلفـي بعنف زمجر قطار الأنفاق الباريسي بـدأت أصـعد الـدرج لأبحث عن اتجاه( بوابة النيية) تسمرت أقدامي فـي الأرض تحت الأرض. عمود من الملح الأبيض لا تنس مثل لا تنظر خلفك.

تذكرت اللوحتين وهما في المجلد الكبير البرتقالي وكيف تحول إلى جزء من ديكور المقعد في ذلك المكان الذي يشبه الصالون حتى أن جيراني في قمرة المترو لم يلحظـوا أنـي نسيت شيئًا ليلفتوا انتباهي كما أني ركزت على حمل زكيبتي التي تحمل الأشياء الخاصة بالإضافة أن المجلد جديد به أكثر من عشرين ورقة بيضاء من نوع خاص للرسم بالإضافة إلى اللوحتين ،حافته معدنية حيث يتلوي سلك دقيق ظهـر علـى حافة نهاية المسند المعدني فلم يعد شيئًا يثير الانتباه.

كل هذه العوامل السيكولوجية جعلتني أنسى أهم شـيء وتذكرت بسرعة قطعة الحجر في مرسم الليتوغراف وكيـف أن أحد زملاء المرسم قي مدينة الفنون طلب مني الإذن بأن يمسحها ليرسم عليها لوحته الجديدة وقد أذنت له فعلاً كعادتنا في هذا المرسم المشترك بين فناني العالم.

صرخ في أعماقي الندم وتحولت أمعائي إلى تجويـف ملتو. إلى أنفاق مثل هذه الأنفاق الطويلة المعقـدة وتحولـت رأسي إلى كعكعة حجرية وأصبحت أنزف كما الحلاج فقدت شرف تكريمي البسيط لأعز صديقين.

قررت أن أعود إلى المحطة التي ركبت منها القطـار إلى محطة جسر ماري على مقربة ثلاثة محطات فـي ذات الخط والاتجاه( ماري دي فري):

على النافذة الزجاجية الكبيرة لناظر المحطة نقرت على مقربة من فتحة التذاكر. انتبه له اتجه بنظره نحـوي خلـف زجاج آخر على عينيه سألته بفرنسيتي المجتهدة.

من فضلك لقد نسيت شيئًا هاما في المترو الذي غـادر المحطة منذ نصف ساعة تقريبا هل من الممكن أن تساعدني في البحث والحصول عليه. هادئًا كعادة أهل الفرنجة وكـأن

الأمر يحدث كثيرا.. أجاب ووجهه المطمئن نوعا ما يريحني انتظر قليلاً.. ثم أضاف:

ماذا كان معك.. وفي أي مكان من العربات نسيته.

أجبت بلهفة:

مجلد لونه برتقالي الغلاف به لوحتين ليتوغراف نسيته على مقعدي في إحدى القمرات التي تشبه الصالون.

ثم سكت قليلاً وقصدت متعمـدا أن أضـيف: لوحتـان لشخصين أسود وأبيض هامتان من شعراء مصـر الكبـار صلاح عبد الصبور وأمل دنقل.

بيده الثانية التليفون يعيد ما قلته بفرنسيته الحـادة مـع بعض التلخيص السريع.

... لوحتي حفر مع كراسة كبيـرة برتقاليـة اللـون، اللوحتان لوجهين أبيض وأسود. ويطلب مني الانتظار مـرة أخرى.

جلست كما الطالب الذي نسى بعد خروجه مـن لجنـة الامتحان أن يكتب في أهم سؤال. بارقة أمل فالعناية بالأشياء المفقودة هنا لها اعتبار واهتمام كما أن الكراسة واللوحتين لن

تفيد أحدا لابد أن أحدهم وجدها وأعطاها لموظف في نهايـة الخط على الطرف الأخر.

بعد حوالي خمس عشرة دقيقة دق جرس التليفون فـي مكتب موظف المحطة المواجهة أمامي ورأيتـه يـرد فـي إجابات مطمئنة سريعة حازمة بلهجة واثقة.

– حاضر.. وهو كذلك تمام سأرسله لك هذه المرة هـو الذي نقر بقلمه على زجاج نافذته وهو يناديني:

مسيو.. مسيو.. من الممكن الآن أن تذهب إلـى هـذه المحطة( كتبها على ورقة صغيرة) هناك عثرنا على مجلدك وفيه المجلدان.

شكرته بفرنسية أنيقة جدا( فجأة اكتشـفت أنـي أتكلـم الفرنسية بطلاقة في تلك اللحظة فقط).

هرولت إلى الداخل إلى الأنفاق من جديد.

هناك في ذات المحطة لمحت وسطها علـى الرصـيف الكشك الزجاجي الصغير وبداخله الموظف بقبعته الزرقـاء المثلثة ولمحت من بعيد اللون البرتقالي يصرخ يصرخ. كأن كل المحطة لونها بلون المجلد أعطيتـه بطـاقتي أعطـاني

استمارة صغيرة مكتوب عليها قسم الأشياء المفقودة وقعـت عليها.

وهتفت في داخلي بفرحة يعيش صلاح عبد الصبور... يعيش أمل دنقل.

* * *

## رسالة من مصري... إلى قنصل مصر

السيد الفاضل قنصل مصر في باريس

بعد التحية...

(اسمح لي أن أرد لك جواز سفري المصري الذي جددته لي منذ شهور مع فنجان قهوتك الكريم... سأحمل بدلاً منه حفنة من تراب مصر في كيس من النايلون أضعه في حقيبة يدي الصغيرة).

أرجو أن تعذرني إذا طلبت منك عكس ما يطلبه كل المصريين المقيمين في الخارج من قنصليتهم ودعني أروي لك أسباب انفعالي فأبدأ الحكاية من أولها...

أشترك كل عام في مسابقات دولية تقيمها بعض الدول في الرسوم الساخرة( الكاريكاتيرية) بالمراسلة... هذا العام وصلتني برقيتان. واحدة من انكونا في إيطاليا والأخرى من سكوبيا بيوغسلافيا. الأولى تزف لي خبر فوزي بإحدى الجوائز الكبرى في رسوم الشخصيات وهم يخيرونني بين إرسال الدرع الفضي بالبريد وقيمة الجائزة أو الحضور في ضيافتهم حيث الاحتفال وعلى حد تعبير منظم مهرجان الكاريكاتير... نسلمك الشيك مع كأس من الشمبانيا وسط

آلاف رسامي الكاريكاتير من أنحاء العالم.. البرقيـة الثانيـة يخبروني بأن أحضر مدعوا كواحد من لجنة التحكيم ووضع لوحتي خارج التحكيم.

في أغلب المرات السابقة كنت أسافر بالطائرة اختصارا للوقت وقد صحبت آخر مرة زميلي الرسام اللبناني حبيـب حداد حيث نلتقي غالبا بزميلنا الرسام المصري نبيل السلمي. وحيث يكون هناك دائما حضور مصري عربي على الصعيد العالمي.

هذه المرة اخترت القطار... رحلة واحدة حيـث يمـر القطار على إيطاليا ليصل بي إلى يوغسـلافيا... حجـزت التذكرة... قالت لي عاملة التذاكر... جواز سفرك مصري... لا يحق لك المـرور بالقطـار علـى سويسـرا وإيطاليـا ويوغسلافيا دون( فيزا) لكل بلد منهم بالإضافة إلى التأشيرة الفرنسية للخروج والعودة...

قضيت خمسة أيام لا عمل لـي سـوى انتظـار هـذه التأشيرات ما بين البوليس الفرنسـي والقنصـلية الإيطاليـة والسويسرية واليوغسلافية.

بعد ساعات في القنصلية الإيطالية ومعي رقمي قالت لي السيدة" القنصلة"... عليك بترك جواز السفر والحضور غدا لاستلامه... لن أستطيع أن أعطيك سوى خمسة أيام كتأشيرة ترانزيت.... رجوتها... أعطيتها برقية الجائزة.. تحايلت بالرسم رسمتها فضحكت... قلت أنني محتاج لجواز سفري لأخذ تأشيرات أخرى ولابد أن أصل إلى موعد الحفل الافتتاحي. بعد الرسم وعدتني بتسليمه باكرا وبه التأشيرة لمدة أسبوعين للبقاء في إيطاليا بدلاً من الترانزيت القصير.

أصبحت أجري من الثامنة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر... استطعت أخيرا وقد انقطعت أنفاسي أن ألحق بقطاري الذي يصل في موعد احتفال مهرجان الكاريكاتير اليوغسلافي في مدينة سكوبيا... أما إيطاليا فموعدها الأسبوع التالي في طريق عودتي قبل الوصول إلى باريس، وحيد أنا في قطار يشق الجبال ويخترق أوروبا من وسطها، من غربها إلى شرقها... يركض كحيوان أسطوري كأنني أركب ديناصورا بخاريا وتذكرت اعتذار الرسام حبيب وكذلك نبيل السلمي... لكني قلت حسنًا... لابد أن يكون هناك حضور عربي على أي حال.

على كل حدود... يتفرسون ما بين وجهي في الطبيعـة وصورتي في جواز السفر... يقلبون صفحاته في ريبة وسوء ظن. نظراتهم تصفعني... شعري الأشعث يستفزهم... حادث الطائرة المخطوفة يثيرهم وكأني العربي الوحيد في القطـار المسئول عن خطف الطائرات... بالقطار شباب أوتوسـتوب وطلبة من جنسيات مختلفة ولكنهم، لأنهم أوروبيـون فهـم يسافرون ببطاقتهم العادية... يندهشون حولي ويثرثرون فـي استغراب... لماذا هذا المسافر يتوقفون عنده... وكأني أقول لهم... أنا مصري... ابن الحضارة الأولى... التـي علمـت الأجيال والعصور... حتى يومنا هذا... يصل بي الأمر اليوم أن يصبحوا هم المكرمين على الحدود من كل بقـاع الأرض أما أنا المصري( كريم المعشر بنيت المجد فوق الهرم) وكأن الأغنية الشهيرة" لسيد درويش" تصرخ في أعماقي. أصبحت اليوم المتهم الأول والمشبوه الأول... لص. إرهابي. مجرم. مهرب. متسول!

وصلت بعد ليلتين بالقطار سالما إلى أهلى وأصـدقائي اليوغسلاف فاستقبلوني بحرارتهم المعروفة كشعب عريـق، ونمر بليالٍ ملاح كلها فن ورسم وغناء ورقص شعبي حتـى

الصباح لقاء مع نخبة مـن أروع الرسـامين مـن بولنـدا تشيكوسلوفاكيا. ألمانيا. بلغاريا. المجر. اليونـان. أسـبانيا. البرتغال.

وينتهي الحفل على خير ما يرام. خمسة أيـام وخمـس ليالٍ حافلة، نتبادل الرسوم والهدايا والأنخاب. وأعـود مـن جديد رحلة العودة الصعبة... بعد ساعات طويلة.

يغادر القطار الأراضي اليوغسـلافية ويـدخل قريـة إيطالية على الحدود. يتوقف أكثر من ساعة. يصعد القطـار رجال مسلحون طليان يضربون بأقدامهم الممرات الضيقة... أسمعهم قادمون... أستعد لملاقاتهم بجواز سفري الأخضـر كأرض بلادي الحبيبة. يصفعون الأبواب خلفهم ويقتربون... وحدي في صالون صغير... أتعمد فتح كراستي لأرسم حتى لا. ألتفت إليهم.. بينما بيدي الأخرى أعطيهم الجواز.

وفجأة يأمرني الضابط الإيطالي بثقة وغطرسة: بإيطالية فهمتها وهو يشير إلى حقيبتي... هات حقيبتك وانـزل مـن القطار حيث مكتب البوليس في المحطة..

قلت له لماذا: هل تريد تفتيش الحقيبة... افتحهـا لـك الآن... ليس بها سوى ملابسي ورسومي. لكنه قال بشدة...

بسرعة... اهبط من القطار... هناك رجل بوليس في نهايـة الرصيف ينتظرك.

هبطت من القطار كأني مشرد مبعثر بعـد أن لملمـت أشيائي الصغيرة المتناثرة حولي... وأصبحت الراكب الوحيد على الرصيف حيث طلعت من النوافذ وجوه أهل الفرنجـة يتفرجون... كأني بطل فيلم قصير بوليسي تلفزيوني.

رجل في ملابس رعاة البقر... خنفس شعره... أصـفر وأحمر كأنه يرتدي باروكة... يأمرني ويشير إلـى غرفـة ويغلق الباب خلفي... لا أحد... سواي بدون جواز سفري... وبدون قطار... صوته يغادر المحطة بدوني ساعة تمر... لا أحد... صمت مخيف... وأنا في منطقة لا أعرفهـا وسـط رجال مسلحين من جنسية أخرى.

لم أجد حلاً سوى أن أدخن وأدخـن وأدخـن... حتـى احترق زوري وتحشرج صوتي... يوم كامل في القطار بلا قطرة ماء ولا حتى ساندويتش ماكدونالد الذي لا أحبه...

يفتح الباب ويدخل الضابط... ويقول انتظر مرة أخرى ورأيتهم من خلاف الباب يصورون الجواز ويكتبون على الآلة

الكاتبة عريضة ومحضرا وتقريرا... لا أدري... التجأت إلى حيلة الرسم لأرسمهم حتى يبتسمون... بلا فائدة...

يمر وقت طويل مرير. وينادونني... اخرج من الغرفة... على الرصيف قطار في عكس الاتجاه الذي جئت منه... يغادر إيطاليا إلى يوغوسلافيا...

المشهد الأخير.. أصعد درجات القطار بلا جواز السفر... أشاهده في يد واحد منهم... أنهم ثلاثة يتحدثون في أي شيء وكأنه ليس لي وجود... أمد يدي إلى الجواز الأخضر... الجندي لا يعطيه لي... يرفض تسليمه لي باليد ولكنه ينهرني.... العجلات تحتي تدور والقطار يزوم...

من طرف أصابعه كأنه يلمس شيئًا قذرا... يقذف البوليس الإيطالي بجواز سفري إلي موقعي في القطار المتحرك فيسقط تحت قدمي... يتلو الحكم... عليك بالذهاب إلى( زغرب) في يوغسلافيا مرة أخرى والحصول على تأشيرة جديدة لدخول إيطاليا.

* * *

سيدي القنصل المصري في باريس:

اسمح لي أن أرد لك جواز سفري المصري الذي جددته لي ذات صباح مع فنجان قهوتك الكريم... لم أعد أحتمل أن يهان في كل مرة على الحدود... سأحمل بدلاً منه حفنة مـن تراب مصر... بها عطر الوطن الحبيب.

**"ويك اند"... وبندقية!**

لم أر وجوههم الأربعة. مسحوها بأيديهم كأن ملامحهـا مكياج وأصباغ ولم يعد هناك بروز للأنـف ولا انخفـاض للعين ولا التواء في الذقن.

الأربعة تحولوا أمامي إلى أربع بزات عسكرية سـوداء مع القبعات والمسدسات( فـرق الصـاعقة المدربـة ضـد الإرهاب) والأهم هي البندقية الغريبة المصوبة نحوي..

بندقية عجيبة معقدة كأنها متصلة بالكومبيوتر تتدلى منها أشياء كثيرة كالأجنحة وبوزات من كل طرف أمـا القاعـدة فهي مخفية بين الكتف والذراع ومتعمقة داخل جسم حاملهـا حتى أصبحت جزءا منه، كأن عظامها المعدنية هـي ذاتهـا عظامه.

هكذا رأيتهم أربع بـزات عسـكرية سـوداء وبندقيـة حديثة( ربما سريعة الطلقات أيضا) موجهة نحوي لأني على موعد غرامي بريء( ويك اند) مشمس في باريس التي كانت ولا تزال مدينة الهوى والعشق.

تحدث أحدهم في رسالة شفرية مقتضبة... بين جملـة وأخرى.. حول: هل تسمعني عثرنا على شـخص غريـب،

عربي ومعه سيارة صغيرة حمراء تصدح من كاسيت فيهـا أصـوات عربيـة وأنغـام فجـة مـن الربابـة والطبلـة والمزمار.( كاسيت أصدقائي قناوي ومتقـال مـن قريتـي بهجورة).

هذا الشخص الآن أمامنا نفحـص سـيارته الحمـراء الصغيرة الملطخة بألوان كثيرة رغم أنها حمراء( كالألويـة الحمراء). ضبطناه يصعد بسيارته المزعجة على رصـيف نهر السين، ليس بعيدا من محافظـة بـاريس،( هوتيـل دي باري).

الحديث في جهاز اللاسلكي وقد رفع الإيريال ووسـط أصوات صفارات صغيرة يتحدث رجل البوليس رأسه غريبة ونظرات عينيه حائرة رغم ابتسامة ساخرة غيـر مفهومـة. وكلمات لا نرد عليها يطلقها مع ابتسامته. أنا رسام كاريكاتير أبعث الضحكة من رسومي الكاريكاتورية( ضد العنف) أنـا مشترك هذا الأسبوع فـي احتفـال مهرجـان الكاريكـاتير الفرنسي العالمي المنعقد في قرية شمال بوردو اسمها سـان جوست انظر إلى علامة مهرجان الابتسـامة علـى زجـاج السيارة.. أريد أن أثبت لهم أن وظيفتي هي البسمة.

رأسه غير عادية مريبة. فوهة بندقية زميلنـا موجهـة إليه، يبدو أنه يخفي شيئًا ما في سيارته. نحـن الآن نـدخلها حتى عمود الكردان.. أمرناه بفتح أبوابها من الخلـف ومـن الأمام، وجدنا الموتور ما زلنا نبحث في سيارته من الـداخل وتحت المقاعد. وجدنا آلات حادة من الممكن أن تكون قاتلـة شوكة وسكين ومقلاة بيض وقطعتي ستيك لحم بقرية، عثرنا أيضا على خمسة أكياس من النايلون البلاستيك وجـدنا فـي واحد منهما نصف زجاجة نبيذ من ماركة( محجوز للباترون) الزجاجة نصفها فارغ بما يثبت أنه يشرب في الطريق، وفي أكياسه الأخرى عثرنا على أسطوانه معدنيـة بخاخـة مـن الممكن أن ينبعث منها غاز غريب وعندما تأكـدنا وجـدناه غازا يجفف الألوان على اللوحات.

ما زال هذا الشخص أمامنا يبتسم مـرة أخـرى فـي سخرية تغيظنا أعطانا كل أوراقه ونحن نفتح أكياسه المتعددة من البلاستيك واحد واحد....

شعره أشعث طويل كأنه كلوشار أو عبقري أو مجنـون أو أبو الهول، لحيته مهملة تبعث على الإرهاب، مـا زالـت فوهة بندقية زميلنا مصوبة إلى وجهه... لو فاجأنا بأي شيء

سنطلق النار عليه فورا... يبدو عليه على أية حال نوع مـن الغموض.. أو الخطورة. نحن أربعة حوله ولن نتركه بأيـة حال.

(تذكرت صديقي الشاهد اللي ما شافش حاجـة عـادل إمام... سيبوني دانا غلبان!).

مفاجأة... نفتح أوراقه وجدنا اسمه غير عادي، جورج عبد ا .. ربما يكون له علاقة بالاسم الإجرامي المعروف.. إلا أن اسم العائلة بهجوري.. أما اسم الأب عبد المسـيح... وهو يشبه عبد ا .

سألناه ونحن نفتح بطاقته. اسمك؟ مكان الميلاد؟ عنوان الإقامة؟ اسمك الأول؟ والثاني والعائلي. لم يخطـئ. إجابتـه تطابق البيانات في بطاقته. ما رأيك هل نتركه. هل هو فـي القائمة الخطرة أخبرونا حالاً..

لحظة واحدة.. زميلي عثر في المقعد الخلفي على ملاءة سرير بيضاء في كيس نايلون ومعها منسوجات أخرى مـن الممكن استعمالها كقناع للوجه وعليها رقم محـل التنظيـف بالبخار. كما عثر أيضا على محاول ترابي يقترب من لـون

الجير أو مسحوق الطباشير الآن نقرأ التعليمات على العلبة. وجدنا للأسف أنها تستخدم لتحضير اللوحات.

إنه يفاجئنا من جديد بعبارات اعتباطية.. أنا على موعد غرامي هنا... وحبيبتي زمانها جية، حتخرج حالاً من تحت الأرض. محطة مترو أنفاق جسر ماري،( بون ماري) أنـه يعود في قلق وعصبية جعلتنا نشك فيه أكثر. بل أنه ينظـر إلي ساعته في قلق وكأنه على موعد أو ربما محاولة ولحظة الصفر اقتربت. فوهة بندقية زميلنـا اقتربـت أكثـر، أنهـا مصوبة إلى رأسه..( تذكرت أن رأسي لا تحمل إلا الأفكـار الطيبة ولا تستحق أن تهدد هكذا) تمنيت أن أقول لـه: لـو انطلقت طلقة لن تسقط قطرة دم واحدة ولكن ستتناثر وريقات زهور مزدحمة في رأسي جاءت اللحظة المقتربة.. خرجـت سيدة من محطة المترو واقتربت نحو موقفنا في سهولة تحمل أيضا أكثر من حقيبة بلاستيك تقترب منه ومنا كأن ابتسامتها ترحمه الآن تقبله.. وكأنها لا ترنا.. ربما هنا فخ.. توجهنـا إليها وأمرناها بفتح حقيبة اليد الجلدية عثرنا علـى عطـور وزجاجة تجميل وعطور في حبـات تشـبه حبـات اللؤلـؤ

الفضية. أما حقيبتا البلاستيك الأخرتان وجدنا بهما حاجيـات دانتيلية خاصة.

ما زالت كل أوراقي بين يدي الآخر الذي يحرك جهاز اللاسلكي بين يديه.. أوراقي جميعها في محفظة جلدية حتـى فـواتير شـراء الألـوان مـن محـل الألـوان سـينلبييه بتخفيض( بطاقة خاصة).

انتظرت وتذكرت عندما أخذوا أوراقـي علـى حـدود إيطاليا – يوغوسلافيا وقالوا لـي اصـعد القطـار( بـدون أوراق)... صعدت القطار زمجر وصفر وتحرك في كركرة وأنا مرتعب... رمى لي رجل الحدود بمهارة كأنـه يلعـب بأوراقي على أنها كرة سقط جواز سـفري بجـواز حـذائي وتناولته وأنا في لحظة نهاية الفزع رغـم أن القطـار كـان يعيدني إلى زغرب في يوغوسلافيا وليس إلى باريس.

هذه المرة أعطوني الأوراق في لحظة كانـت الرسـالة الشفرية قد وصلت إلى الجهاز المعلق ما بين يـدي الرجـل الآخر البعيد قليلاً وما بين إحدى أذنيه. في لحظـة خفـض الإيريال الذي على الشمال والإيريال الـذي علـى اليمـين وناولني أوراقي فهدأت وعادت شبه ابتسامة إلى وجهي الذي

كنت أتمنى أن أراه في أية مرآة لأنه كان قد تحول إلـى لا تعبير رغم أني فهمت أني كمغترب وكعربي لابـد أن أدفـع ثمن ما يفعله الآخرون من عنف في بـاريس التـي أحبهـا وأعشقها منذ حوالي ربع قرن.. حتى شارع رين له ذكريات وقد كنت في الثلاثينات نخرج مجموعة من شـباب مدرسـة الأليانس لنقضي أمسيات جميلة على رصيفه.

سمحوا لي بالانصراف.. وانحنيت في أدب ياباني لأنه أكثـر مـن الأدب المصـري. وأدرت موتـور السـيارة وكذلك( كاسيت) أصدقائي من بهجورة الذين يعزفون الحـب والسلام على المزمار والناي والربابـة وابتسـمت أخيـرا بجواري صديقتي.. وانطلقنا لنهرب من باريس الساحرة التي تحولت هذه الأيام إلى غابة حمراء مـن العنـف... حتـى سيارتي الصغيرة( شانتال) كنت أحس بانينها وهي تخرج من بوابة( اورليان) في الجنوب.. إلى الغابة الخضراء.

* * *

## عودة" الأخ الضال" إلى مطبخ" السبع"

في هذا العالم الأميركي توزع أشقائي المهاجرون فـي أماكن بعيدة متفرقة. وعندما وصلت قفز كل منهم إلى جهاز التلفون الموجود في المطبخ وتحدثوا من بعيد معي. ومـثلهم كنت أنا في نيويورك، مقيما في مطـبخ صـديقي الرسـام المصري سمير السبع أنتظر هـذه المكالمـات وأرد عليهـا تباعا، موضحا ومعتذرا لاختياري صديق العمر وزميل الفن منذ سنوات الفنون الجميلة في القاهرة أقيم معه.

لم أقل لهم أنه الوحيد الذي يستطيع أن يفهمني، فكلانـا مصارع من مجتمع قاسٍ كاسر يتكون من عصابات" مافيـا" تجار اللوحات وأصحاب الغاليريـات التـي تمـتص دمـاء الفنانين. همومنا واحدة وأحلامنا واحدة.

التليفون يرن في مطبخ صديقي الرسام العربي المهاجر في نيويورك. إنها مكالمة من" مطبخ بوسطن" حيث يقطـن واحد من الأشقاء المهاجرين وهو محامٍ يدافع عـن مشـاكل المهاجرين أمثالنا. ومكالمة من مطبخ منزل أخي في بتسبرغ الدكتور في علم النفس الذي يعالج المتعبـين مـن سـنوات الشيخوخة. ومكالمة أخرى من شقيقة تعيش في ريف فرجينيا

وتعمل مديرة" كافتيريا" في فنادق" هوليداي" المنتشـرة فـي أنحاء العالم، ومكالمة من شقيق آخر يسكن فـي ضـواحي واشنطن حيث يعمل في مركز أبحاث زراعية... ثـم مـن صديق طفولة من تورنتو هو كمال شلبي الذي صـاح فـي أذني مهللاً كعادته وقد أصبح رجلَ أعمال ناجحا. رحب بي بطريقة" بلادنا" في نورث أمريكا... تعال إلى كندا. سـنريك شلالات نياغارا!

كل هذه الكلمات جاءت من أنحاء بعيدة في أميركا إلـى نيويورك وأغلبها من المطابخ، المطبخ الحديث يتحول فـي هذه البلاد إلى حجرة جلوس لاستقبال الزوار فيها كل وسائل الراحة والرفاهية، من جهاز التلفزة إلى اللاسلكي إلى أفران صغيرة وكبيرة كهربائية وتصدر منها أصوات موسيقية تعلن نهاية الطبق المحمر بينما تتحرك وأنت جالس تتحـدث فـي التلفون غالبا.

الصوت بين المحبين من الأخوة والأصدقاء هو الطريقة الوحيدة للاتصال، أما الرؤية فعليك بقيـادة السـيارة مئـات الأميال لتحظى بها( الطرق بالميـل وليسـت بـالكيلومتر). وبالمناسبة، في كل سيارة لمهـاجر مصـري فـي أميركـا

كاسيت" مدرسة المشاغبين" و" شاهد ما شـافش حاجـة" و" رسالة من تحت الماء" و" أنت عمرى" و" حبيتك يا بيروت".

**في انتظار الشقيق**

كل هذا وصديقي الرسام( السبع) المهاجر يجلس يدندن على العود لحنًا لعبد الوهاب وهو يتمتم:" مفيش فايدة" أنهـا ذات الطباع العربية لكل أسرة مصرية في أي مهجر. كـأن التلفون يرن ما بين الزمالك وغاردن سيتي وشبرا والجيـزة ووسط البلد في القاهرة.

وبدأنا نخطط لبرنامج زيارة المتاحف فـي نيويـورك وقاعــات العــرض والجــولات فــي حــي الفنــانين الرسامين( وغرينتش فيلاج) وبدأنا نحن الاثنين نتبادل رؤيانا التشكيلية في الرسم بعد سنوات طويلة من الصراع للبقاء في عالم الفن المهرجي حيث تختلط الأنواع الجيدة مـن الرسـم بالمزيفة، وأصبحنا نميز ونختار ونرفض ونرمي من كل ما نراه في متاحف الفن القديم والحديث.

كنا نمضي أغلب الوقت في أنفاق تحت الأرض وننسى رائحة الهواء المخنوق والعفن بحـديث الفـن، إلـى أن رن التلفون الذي في المطبخ وكان المتحدث واحدا من الأشـقاء

المهاجرين، لقد تطوع بالمجيء من بوسطن إلـى نيويـورك بالطائرة، ووصل إلى مطار داخلي اسمه" غوارديا" وأصـر أن أحزم أمتعتى وأرتب حقيبتي وأطلب" تاكسـي" وأحضـر فورا إلى المطار، كأنه قرصان جو وأنا رهينة.

المكالمة هي ذاتها كل نصف ساعة من إحدى الجهـات المتفرقة في أنحاء" الولايات" لتلبية واحـدة مـن الـدعوات الموجهة إلي من ريف فرجينيـا، وأخـرى مـن ضـواحي واشنطن وثالثة من بنسلفانيا بتسبرغ ورابعـة مـن تورنتـو كندا... لمشاهدة شلالات نياغارا.

لكن الشقيق المهاجر المحامي التابع لبوسـطن سـبقهم جميعا، فقد اعتمد الأسلوب الأميركي، كما في أفلام جـيمس بوند هو الذي انتصر في النهاية... وخلاصة المفهوم الكامل لدى الجميع هو إنقاذ هذا الأخ العاق الضال في باريس حيث يعيش حياة الفنانين الرومانسين المعذبين يبحث عـن الفـن والحب وعن ثمن الجبن والشراب بعد ثمن القماش والأوراق والألوان." أنه هرب في باريس منذ أكثر من عشر سـنوات، لا يريد أن يلبي دعوتنا منذ زمن بعيد. في خطاباته يسـاوم ويؤجل، ففي الشتاء يكتب ليقول: أعتذر سأحضر في الربيع.

وفي الربيع يعتذر ويقول: سأحضر في الصيف. ثم يقـول:" على العيد" الصغير. ولكنه يعتذر من جديد ويقول" على العيد الكبير". وهكذا طيلة عشر سنوات، وفـي النهايـة، عنـدما يحضر يزور صديقه الفنان البائس المعذب مثله في نيويورك الذي لا يمتلك سيارة ولا بيتًا، ولكنه يقتسم معه قطعة الجـبن وزجاجة الشراب ولقمة الخبز الحاف.

**اختطاف**

"هذا هو أخونا الضال المعذب في باريس. لابد مـن أن ننقذه ونوقظه ونقـدم لـه معونـة أميركيـة، مئتـي دولار كمصروف جيب. سنريه سياراتنا العديدة كالسفن الرابضـة على شواطيء حدائق بيوتنا كالقصور أو( الشاتوه) شـلالات نياغارا.

أصبح أخي في بوسطن هو البطل المنقذ للعائلة. ففـي اللحظة التي وصل فيها التاكسي الذي استقبلناه أنا والرسـام" السبع" إلى مطار غوارديا، وقبل أن نتفاهم مع السائق عـن الأجرة، هناك كان ينتظرني منذ سنوات عديـدة. اختطـف الحقيبة وجرى إلى منطقة الـدخول، واضـطررت لتحيـة

صديقي الفنان بسرعة تاركًا إياه يدفع الأجرة وهو منـدهش لاختفائي المفاجئ.

مضى أخي حاملاً حقيبتي وهو يسرع ويلهـث دون أي تحية أو كلام أشواق، أنا أتبعه بالخطوة ذاتهـا. نمـر مـن متزحلق إلى ممر إلى درج كهربائي أتوماتيكي إلـى بـاب الطائرة فجأة وليس معنا بطاقات لدخول الطائرة ولكنه يقول لي: الحمد ، الطائرة ستقلع الآن. التذاكر" بعدين".

تلفت حولي فوجدت أكثر مـن خمسـين مـن رجـال الأعمال، قال أخي: هذه طائرة" تاكسي" تقلع كل ساعة. بعـد نصف ساعة ستكون في واشنطن. جلس بجانبي وهو يحييني لأول مرة، وضغط على زر المقعد فـارتمي إلـى الخلـف. وفعلت مثله، وضحك وقهقه وكأنه على طريقتنا يصرخ فـي القبطان:" اطلع يا اسطى".

## المحطة المقبلة

وفعلاً طارت بنا الطائرة وأصبحت الناطحات العاليـة التي أشعرتني بأني نملة وشيئًا تافها كأنها رأس شجرة عالية أو قمة جبل هندسي، بينما مـرت أمامنـا المضـيفة تقطـع التذاكر. ضحكنا وقلنا لها:" نازلين" المحطة الجاية".

على مطار دالاس في واشنطن كانت تنتظرنـا سـيارة فارعة يقودها أخي الأصغر بصفته أقـرب مـن يسـتطيع الوصول وبصحبته شقيقتي المهاجرة التي لم أرها منذ عشرة أعوام، وقد أصبحت أما لكثير من شباب العائلة المهـاجرين. أما أخي الصغير فقد أصبح عملاقًا في الطول، يلبس نظارتيه ويبتسم في رخاء. المرة الأخيرة التي رأيته فيها في القـاهرة قبل أن أودعه كان لا يزال طالبا في كلية الزراعة، لا يمتلك سوى" بيجامة" واحدة. وعندما كان يرتدي بنطلونـه الوحيـد كان دائم الهرش في جيوبه باحثًا عن قرش صاغ واحد. أمـا الآن فقد وقف على محطة البنزين وأخرج بضع مئات مـن الدولارات وقدم لي سيجارا ثم خرجت سيارتنا نحن الأربعة تجري كأنها" بوينغ ٧٤٧" على رصيف نـاعم، والأشـجار تجري عكس اتجاهنا... ورحنا جميعا نتبادل القبلات.

غدا يأتي الأخوة. وأصدقاء الطفولة كمال شلبي وماجـد وفخري وسنأخذك إلى شلالات نياغارا ترى هل أذهب إلـى هناك؟

## حب... و" بطاقة خضراء"

عندما وقفت أمام موظفة التذاكر في شـركة الطيـران الأميركية، قلت لها: تذكرة بجـوار النافـذة، فـي منطقـة المدخنين. من فضلك.

لعبت بأزرار الجهاز الأوتومـاتيكي الـرابض أمامهـا وعزفت لحن بيانو تقليديا يشبه العزف على الآلـة الكاتبـة وتطلعت أمامها وأنا لا أري شيئًا، حتى وجهها الوحيد أمامي بدا جامدا خاليا من أي معنى، كأنه محظور عليها أن تظهـر تعابير وجهها أمام الزبون أو المسافرين مثلي. قالـت: كـل شيء تمام. تذكرة في منطقة التدخين قرب النافذة. المغـادرة من مطار شارب ديغول.

أخذت البطاقة ورحت في أحلام قصيرة سريعة مراهقة. حسنًا ستأتي أميركية صغيرة جميلة وتجلس في المقعد الفارغ بجواري. قدها السفيرة عزيزة( عروس المولد في مصـر)، وجهها مارلين مونرو وفمها بربارا ستانويك( نجمتـي فـي الخمسينات) و... سرحت قليلاً مرة أخرى كـأني أصـبحت أكثر واقعية وقناعة وحكمة. ها هي أمامي. أميركيـة فـي الأربعين أو الخمسين ولكنها في سحر الجمـيلات اللاـواتي

يحملان ماضيا زاهرا. تمضغ الكلمات في ثقة. فارعة الطول، تلف شعرها الكثيف المائل إلى الرمادي إلى خلـف رأسـها وتضع نظارتين سـوداوين( هـذه المـرة أتخيلهـا جـوان كراوفورد) وفي يدها كتاب تقرأه في السفر،" حيـاة هنـري ميلر". أنا سيكون معي كتاب يوميات أيضا( انا يـس نـين) بالفرنسية. سنجد، ولا شك، أحاديث ممتعة طول الطريق مـا بين باريس ونيويورك والحديث قد يتحـول إلـى علاقـة.. وعناوين وأرقام هاتف، وربما صداقة عمر أو حب جديـد، يأتي متأخرا ولكن أفضل من أن لا يأتي أبدا. كما يقول المثل الفرنسي.

صعدت ذلك الصباح إلى الطائرة. كان المقعد بجواري خاليا. وقبل أن تقلع الطائرة بثوان جلس بجـواري مخلـوق غير عادي. رجل، غريبة نسبته في الطول والعرض. كأنـه شبح أو بطل أسطوري من أبطال الرياضة الغريبة( جـودو، كاراتيه)... انزويت حينذاك في مقعدي حتى كأني أختفى فيه أو أهرب واعتراني قلق وضجر. حاولت أن أدخن مع الرجل ولكنه لا يدخن. أخرجت كراستي لأرسم. لم يهتم. وعنـدما بدأت المضيفة تعلن عن الفيلم الذي سيعرض فـي الطـائرة

انسحب بهدوء ورأيته خلفي في أحد المقاعد الوسطية التـي تكون عادة خالية. مد ساقيه على المقاعد واتخذها أريكـة أو كنبة واستراح. أما أنا فأخذت راحتي واستعملت مقعده الـذي خلا كمحاق. والغريب في الموضوع أن الرجل بدا لي بعـد أن راقبته من حين إلى آخر، صديق المضيفات وبعض أفراد طاقم الطائرة. أما الملاحظة الدقيقة التي جعلتني أفخر بذكائي وكأني جيمس بوند، فهي أنه لا يجعل يده اليسـرى تفـارق جيب بنطاله الأيسر. ولقد تأكدت من وجود جسم صلب يكاد لا يرى في هذا الجيب.

هنا عادت بي الذاكرة إلى العام الماضي، حين قمت في الموعد ذاته بالرحلـة ذاتهـا. يومـذاك كانـت تصـحبني زوجتى( لا يوجد زوج يصحب زوجته والصحيح دائما هـو العكس). في تلك المرة اخترت مقعدين في الوسط لأنني كنت أشكو من ألم في ركبتي من جراء عملية جراحية. أعطتنـي موظفة التذاكر مقعدين وسط ثلاثة مقاعد أمام بوفيـه الأكـل والمشتريات المعفية من الضريبة. كـان حلمـي نفسـه أن تحضر أميركية وتجلس إلى الجانب الآخر من المقاعد الثلاثة فأصبح أنا وسط الزوجة والصديقة الجديدة. وفجـأة حضـر

شاب رياضي بطل في كمال الأجسام واحتل المقعد الثالـث. الحادثة ذاتها تكررت هذا العام.

في مطار بوسطن سألني موظـف الجمـارك وأمـامي حقيبتي: ما قيمة مـا فـي داخـل الحقيبـة؟ قلـت لـه: لا أعرف( بالمناسبة لغتي الإنكليزية خليط من لهجـة فرنسـية وعربية). أعاد السؤال مرة أخرى: ما قيمتها؟ قلت: ملابسي القديمة؟ بذلة وقميصان وفانيلة وجرابان ومعجـون أسـنان، وكلها مستعملة منذ ثلاث سنوات... وطـال النقـاش حتـى سجلت في ورقة الجمارك أنني أحمل ملابسي بقيمـة ٤٠ أو ٥٠ دولارا فأذن لي بالخروج من المطار ودخول أميركا.

صاح بي شقيقي رقم ٢ المحامي في بوسطن الذي ينقذ الشباب العربي من الطرد خارج أميركـا وشـهرته مسـتر بيشاي، ثم حمل حقيبتي ولم يقبلني( ربما يعتبر أن القبلة بين الرجلين مظهر تخلف) ثم قال لي وهو يسـرع إلـى فنـاء المطار وقد امتلأ بالسيارات: لماذا تـأخرت فـي المطـار. أجبته: وماذا تريدني أن أفعل؟ لقد طلبوا مني أن أسجل ثمن فانلتي القديمة وقميصي الذي اشتريته منـذ عشـر سـنين. ضحكنا وركبنا سيارة كأنها سـفينة وأدار الشـقيق كاسـيت

فيروز ونحن نجري في الأوتوستراد إلى المدينة وسط البلد. وبعد لحظات انحرفنا أمام محطة بنزين وهناك أطل من خلف الصفائح والأنابيب شاب عرفته من الوهلة الأولى أنـه ابـن بلادي. إنه المهاجر المصري كرم الشهير بكارمن يشد علـى يدي وأنا في داخل السيارة. وهو يرفض أن يمـلأ السـيارة بالبنزين إلا... – وعلى الطريقة المصـرية الصـعيدية– إذا شربنا القهوة في مكتبه في المحطة ذاتها. وكان كارمن يتطلع إلى شقيقي رقم ٢، بابتسامة أكيدة واثقة من تنفيذ طلبه، وكأنه يحضر لي مفاجأة من أول لحظة لوصولي بوسطن، ثم مـط شفتيه موجها حديثه دائما إلى شقيقي، وبلهجته التي لم تغيرها الهجرة:" ما هو شوف ع أجولك إيه... هـي كلمـة واحـدة مالهاش ثاني.. ع تشرب الجهوة معاي... مستعجل... تعبان. لسه. جاي من الطيارة. ماليأش داخل مش صالحي".

## قهوة الفيشاوي

هبطنا من السيارة ودخلنا غرفة مكتب كـرم الشـهير بكارمن، وسط صفائح البنزين وإعلانات اسو وشل. جلسـنا على مقعد جلدي وثير وفـتح مضـيفنا صـندوق السـجائر المنتشر في جميع المحلات والمطاعم والمقـاهي، صـندوق

تضع فيه عملات فضية صـغيرة تـوازي دولارا فتخـرج الماكينة منه علبة سجائر. ورحت أتفرس في وجـه الرجـل المبتسم على الرغم من التعب، وقد ارتسمت عليـه خطـوط غير مصرية وصعيدية رسمتها الغربة.

بعد دقائق كانت" كنكة" القهوة وفناجين قهوة الفيشـاوي في القاهرة أمامنا، وكرم الشهير بكارمن يسكب لنـا نحـن الثلاثة، وكعادة صبي قهوة في مصر يغني ويقـول:" واحـد مضبوط وصلحه".

أعجبتني هذه الديباجة في التعرف على شاب مصـري مهاجر جامعي وسيم، رقيق، ابن البلد. قال: أنا صعيدي من المنيا. تخرجت في كلية التجارة وجئت في اليوم الأول بعـد تخرجي إلى هنا سألت صاحب المحطة عن عمـل لديـه... وهنا قاطعته: أجابك، عد إلي غـدا. رد كـارمن: لا، أبـدا وحياتك. قال لي: تأتي في السهرة وتعمل حتى الصبح. الحمد ، كان ربنا معي. فجاءني إيراد كبير في تلك الليلة واطمأن إلي صاحب المحطة ومنذ ذلك الوقت أعمل فيها مـرة فـي الأسبوع. طبعا، سألني عن الأوراق بعد مدة، وهذه دبرها لي أخوك. اليوم معي" الكارت الأخضر"( بطاقة الإقامـة)، ثـم

يتطلع كرم( أو كارمن) إلى أخي الذي يرتشف القهوة جانبه، بصوت مسموع كعادتنا في ريف مصر فيضـحك حينـذاك كارمن ويقول متجها بنظره نحوي: ديبي( زوجته) تـدعوكم نهار الأحد إلى فخذ خروف . ثم يسكت ليلاً أنها لن تقوم بأي عمل في المطبخ. لا تعرف. هل هناك أميركية تجيد الطبخ؟ ويكمل بلهجة صعيدية:" دنا اللي حاجوم بكل الشغل".

الجلسة كانت ممتعة لأن مهاجرا مصريا آخر صـديقًا لكارمن ماجد، تطوع بالعمل مكانه. وماجد جامعي آخر كان في مجلسنا أولاً ثم غادرنا للاهتمام بالسيارات القادمة. بكـل بساطة ناوله كارمن مفتاح المحطة فكان" يخدم" السيارة ثـم يعود بعد لحظات ومعه حزمة دولارات.

## أسرة

بدأ الليل يقترب وأضواء المدينة تزحف فودعنا كارمن الذي ظل يلوح لنا بيديه طويلاً على أمل أن نلتقي.

في اليوم التالي صحوت على رنين التلفون. المتحـدث مهاجر مصري جديد:" أنا محمد دهب. لا مؤاخذة. صحوتك من النوم". وأعرف من محمد أنه قادم" ليأخذني بالعربية"( أي بالسيارة) في جولة على المعارض وغاليريات الرسم.

في الطريق عبرنا بالسيارة ممرا أسطوانيا تحت النهـر طوله عشر دقائق وبدأ محمد يحكي قصته.إنه خـريج كليـة التجارة في مصر. رفض أن تعيله الأسرة في فترة انتظـاره للعمل بعد الجامعة فسافر إلى أوروبا. فـي بـاريس، نسـى موعد نهاية تأشيرته وسأله صدفة شرطي عن أوراقه فكـان أن دخل السجن لمدة ثلاثة أشهر. بعد ذلك، انتقل إلى بلجيكا وهولندا فلاقى الأمرين. وأخيرا استطاع أن يحصـل علـى تأشيرة دخول إلى الولايات المتحـدة الأميركيـة. وبعـد أن تخرج من عنق الزجاجة تحت النهر، يكمل محمد حديثه: أنا هنا من سنتين: أحمد ا لأن ادي عملاً. أشتغل بعد الظهـر في محطة بنزين وفي الليل حارس موقـف السـيارات فـي الملهى اللبناني( فيرافـوف). ويسـتطرد: عرفنـي أخـوك المحامي على بنت أميركية زميلة له، أميركية مـن أصـل أسباني تعمل في مكتب المحاماة نفسه. ليست جميلة جدا لكننا سنتزوج في نهاية السنة. أجبته باسـما: مـن أجـل بطاقـة الإقامة( الكارت الأخضر)؟ أجاب: لا. وكأنـه توقـع منـي السؤال. وخلال إقامتي في بوسطن، التقيت بمحمد عدة مرات فبدا لي الشاب المصري المقبل على الهجرة بحمـاس وقـد

فاجأني حين قدم إلى المطـار لتـوديعي برفقـة عروسـه الأميركية – الأسبانية.

العيسوي شاب مصري آخر في المهجر الأميركي لكنه لا يعمل في محطة بنزين بل يصنع الجيلاتي( البوظة) فـي أحد الشوارع الرئيسية في بوسطن. إنه أيضا خـريج كليـة التجارة( جامعة قناة السويس) وقد جاء إلى بوسـطن حالمـا بدراسة الكومبيوتر وهو ينوي الزواج من أميركية من أجـل عيني..." الكارت الأخضر".

ماهر موريس هنري شاب في التاسعة والعشرين بعمر العيسوي مهاجر مصري آخر في بوسطن. تخرج في كليـة العلوم العام ١٩٧٩ بدرجة جيد جدا. ونال منحـة أميركيـة لدراسة الكيمياء غير العضوية في بوسطن. نال الماجسـتير أولاً في العام ١٩٨٤ ويبدأ الدكتوراة العام المقبل. وما هـي قصة هذا الطالب الذي ينجح؟ إنه أيضا قرر الـزواج مـن مصرية تحمل جواز سفر أميركيا، ومـن أجـل" الكـارت الأخضر" على الأرجح.

نماذج مصرية أخرى عديدة التقيت بها فـي بوسـطن وفيرجينيا وواشنطن. نشأت قصار، عازف كمان صار يبيـع

السيارات. محمد ظريف خريج جامعة القاهرة صار رئـيس الطباخين في أشهر فنادق بوسطن و... خـلال أسـبوعين، صار لي في بوسطن وحدها أسرة مصرية كاملة وقد جاءوا إلى المطار لتوديعي. وكما في اليـوم الأول مـررت علـى كارمن في محطة البنزين لنرتشف معا قهوة الفيشاوي.

في الطائرة العائدة إلى باريس تذكرت الحارس المضاد للإرهاب( لم يجلس بجانبي هذه المـرة) وتـذكرت دمـوع الزوجات الأميركيات، أو المرشحات للـزواج مـن شـبان مصريين مهاجرين. وفي تلك اللحظـة تخيلـتهم رهـائن... الحب والكارت الأخضر.

## طبيب نفساني مريض بالغربة

الطريق مفروش بسجادة قطيفة سوداء طولها بطول" الأوتوستراد" الممتد أمامنا آلاف وآلاف الأميال والسيارة جديدة اشتراها منذ أيام الأخ العالم النفساني" جيمي" الذي يعالج مرضى العقل في ولاية بنسلفانيا. في مستشفى بتسبرغ للأمراض العقلية.

عندما فتح الشقيق باب سيارته عزف الباب المفتوح قطعة موسيقية ناعمة واشتعل" التابلو"، ثم بدأت للتو حركات طفيفة من طرف إصبع السائق الدكتور، وكأنه يلمس بطريقة سحرية أوتار بيانو جديد. هذه" ذراع" على اليمين وأزرار إلى اليسار وفي ثوان كانت تجري بنا السيارة على السجادة القطيفة الناعمة ونحن لا نسمع صوت موتور أو عجلات ولا خشخشة" اشكمان" قديم، ولا نشم رائحة دخان وكأننا نركب المقشة السحرية المعروفة في قصص الأطفال، أو فوق بساط الريح أو كأننا الريح نفسه.

**ضحية**

هكذا تحولت إلى رهينة جديدة عند شقيق آخـر، الأول احتبسني في طائرة من نيويورك إلـى واشـنطن وبعـدها سجنتني شقيقتي في منزلها في ريف فيرجينيـا، وهـا هـو الشقيق الدكتور يحتجزني في سيارته من ريف فرجينيا إلـى بتسبرغ.

إنه شقيق من طراز فريد، كثير التأمل زائـغ العينـين، موسوس، حكيم، عاقل، مرهف، قليل الكلام، منبهر أحيانًـا، متقلب المزاج، مراقب، نظراته نقية، ولكنها فاحصـة، مـن النظرة الأولى تسقط أمامه وتتحول إلى ضحية( سيكولوجية) وتتحول عيناه الصغيرتان الغائرتان في الوجه ما بين الأنف والحاجب، إلى عدسة كبيرة هائلة أو" ميكروسكوب" علمـي، وتصبح أنت خلية من الأميبا أو" فيروس".

لذلك توجه نظري وأنا في سيارته إلى الطريق، وحمدت ا أنه سائق منضبط لا يتجاوز سيارة ولا يتخطى إشارة ما. يحترم تقاليد القيادة. ويقدس التعليمات، ويعطـي الإشـارات الضوئية المطلوبة، الأمامية والجانبيـة مصـحوبة بألحـان موسيقية، يعامل كل سيارة بأدب، وكأنـه يقـول لسـائقها:"

تفضل، أنت الأول... مـا يصـحش". هـو لا يـدخن ولا يشرب... ولا يأكل يتغذى من الفيتامينات والأطباق الخضراء واللبن. لا يلعب الميسر ولا يعرف نوادي القمار ولا ملاهي الليل و" السكس شوب" تزعجه الموسيقي ابتداء مـن( بـاخ وهندلسـون وفـاغنر) إلـى( البلـوز والرولنـغ سـتونز والصلصلة). وهو أيضا لا يعرف الغزل مع أن لـه عشـر تجارب في التقدم من أميركيات وعربيات للزواج. الأميركية كانت تتحول لديه إلى خلية" أميبا" تحت" الميكروسكوب"، أما المصرية فقد قام لأجلها برحلة بعد مراسـلة طويلـة. تقـدم ليخطبها من أسرتها في الترعة البولاقية شبرا. ذهب وهـو يرتدي قميصا ملونًا بالمربعات وبنطلونًا مخططًا بـالأزرق وحذاء( تنس) من المطاط( موضة أميركية في ذلك الوقـت) ولم يقدم شبكة أو مهرا. نسى التقاليد واعتبـر نفسـه هديـة الزواج فرفض رفضا قاطعا، وبكت أم العروس تندب سـوء حظها، كما بكت ابنتها وهي تقول لها:" بحبه يا ماما، فردت الأم، كما في الأفلام المصرية: اخرسي يا بت...".

**هجرة عتيقة**

هو مهاجر منذ كان في الرابعة من العمر. هاجر مـن بهجورة إلى الأقصر ومن الأقصر إلى القاهرة. مـن بيـت الأب إلى بيت العم إلى بيت العمة. إلى غرفة صـفيح فـوق سطح بيت صغير اشتراه أخيرا الأب وهو مـديون. وكـان يجمع كل شهر إيجار الغرف ويعيش في غرفته التي تطـل على قطار الضواحي( منشية الصدر). وقد تركنـاه، نحـن الأخوة الصغار في غرفته مع صوت القطار الخـارج مـن المحطة القريبة، أو القادم إليها، والتحقنا بالأسرة حيث يعمل أبي في ريف المنوف، معلما في المدارس الابتدائية.

عيناه منذ الصغر في الكتاب وبجانبه منذ الابتدائية حتى الجامعة. ينجح، يتفوق، ترتيبه الأول. في الثانويـة يحصـل على منحة للجامعة وفي الجامعة يحصل على منحة لجامعات أميركا. ليهاجر من جديد من دكتوراة إلى دكتوراة.

عشرون عاما هي عمره المهجري. انقطع فيهـا عـن الأسرة والأقارب والأصدقاء في بلده، وإن كان التقى بكثيـر من زملائه وأقاربه الحاصلين على منح أميركيـة وأصـبح يراهم مرة في الشهر على الأرجح في المهجر، على سـبيل المثال( الدكتور شكري حبيب والدكتور بولس عبـد الملـك

والدكتور رشدي سعيد والدكتورة وداد سعيد والدكتور بهـاء الحديدي والدكتورة ليلي الحديدي والدكتور أكـرم ميـداني والدكتور فخري جابر. علماء كبار وأطباء وعمداء جامعات معروفون ومن الأخوة والأقارب الذين انضـموا إليـه فـي المهجر منير توفيق وماجد جون وأميل وهم" بهجوريـون". الجميع يعتبرونه الأب الروحي للمهجر لقد جاءوا مهـاجرين على اسمه. غير أن صداقة المهاجر للمهاجر لا تكفي، فمـن المحتم مجابهة المجتمع الجديد ومشاركة أهل القارة الأميركية حياتهم. نقطة التحول للاحتفاظ بالأصـالة أو تغييـر الجلـد كاملاً.

## الحلم

خواطر تموج في خيالي ونحن الاثنين، على الطريـق في سيارته التي تسير بالعقل الإلكتروني، طالما أنـه قليـل الكلام يفحص الطريق ولا يفحصني لا يدير جهاز الراديـو وليس لديه كاسيت" مدرسة المشاغبين"، وفي سيارته ممنـوع التدخين.

كأي مهاجر حاول تحقيق الحلم الأميركي. قـال لـي، ونحن نعبر الطريق مـن ريـف فرجينيـا إلـى بتسـبرغ

بنسلفانيا( حوالي مئتي ميل): لقد حققت الحلم هذه هي حيـاة الرفاهية التي وصلت إليها. سترى البيت الذي اشتريته فـوق الجبل وخلف الغابة حولي حدائق غناء. وفي حديقتي شـجرة الخوخ والليمون. وفي الأرض زرعت الكوسـة والطمـاطم والجرجير. البيت صغير ذو طابقين فقط، طابق لنا( الزوجة والطفلة) وطابق لك ولكل زائر:

وتحولت خواطري الصامتة فجـأة إلـى مصـارحة أو سؤال. قصدت إثارته قليلاً ليخرج عن هدوئه ويـتكلم معـي بعد سنوات طويلة من الافتراق ما بين بتسبرغ وباريس. قلت له: لا بأس، هذه الحياة في بيت مسـتقل. بإمكانـك دعـوة عشرات الزوار لتجعل البيت والحديقـة حـافلين بالأقـارب والأصدقاء، فلا تعيش في هذه المدينة الصناعية المزدحمـة منعزلاً، كما في أيام طفولتك، أو في الدور السادس والثلاثين في إحدى ناطحات السحاب، كما عشت في أميركا، وسـكت قليلاً ثم أضفت:

على عدم درايتي بفن علم النفس فاسمح لـي أن أحلـل شخصيتك. كنت تهرب من مجتمع الشارع وتصعد لتعـيش وسط السحاب. لا ترى أحدا، كما ذكرت في خطاباتك، تعود

من العمل في المستشفى إلى غرفتك فوق السـحاب تتفـرج على النافورة الأرضية من النافذة السحابية... تجهز عشاءك بنفسك وتعاود هوايتك المحببة قبل النوم المبكر، وهي القراءة لقد انتقلت من السحاب إلى الأرض، وأنا سعيد بإيمانك الجديد بالأرض لأنك ستعود للناس.

**مجانية**

يفكر ليرد ولا تزال السجادة القطيفة ممتدة أمامنا: الناس في حياتي هم مرضاي. إنني أتحدث معهم طيلة الصباح وبعد الظهر، لذلك أبحث عن العزلة مع كتاب في المسـاء. هـل تتصور سيدة عجوز أو رجلاً مسنًا في الستين مـن العمـر أصبح في البيت مع الأسرة خطرا، ولا يسـتطيع أن يعتمـد على نفسه في غياب أهل المنـزل مـن أولاده أو أحفـاده، فيرسلونه إلي لأضع برنامجا طويلاً للعـلاج. فـي أغلـب الحالات يكون قدوم المريض من هذا النـوع بعـد محاولـة للانتحار، لأن الأسرة أهملته أو بعد إدمـان المخـدرات أو الخمور. وفي الحالات الخطرة يحطم زجاج النافذة أو كـوب ماء أو يتشاجر مع الأسرة، وتصل الأمور أحيانًا إلـى حـد التهديد بسكين... من المطبخ!

وأقول له من جديد: ولكنك لم تر النماذج العاديـة مـن المجتمع الأميركي. لابد من أن تخرج مـن عـالم العجـزة والمرضى وتلتقي بالمجتمع الطبيعـي. ويتشـعب الحـديث الأخوي الطيب إلى الفن في باريس وهنا ينشب الخلاف فهو لا يؤمن برسالة الفن وحده ويرى أن الفن لابد أن يوصل إلى الثروة التي هي في نظره، النجاح بحـد ذاتـه، ومـع هـذا الاختلاف استمر حيا الحوار الذي بدأناه على الـورق منـذ سنوات طويلة. لم يمر أسبوع إلا وأستلم منـه خطابـا وأرد عليه في الأسبوع ذاته وأحيانًا يحتدم بيننا الخلاف فيسـتعمل سلاح علم النفس ويقول لي فجأة: أنت مصاب بـداء جنـون العظمة، و" البارانويا"، ومع هذه الصفة الأخيرة أبدو أمامـه وتعبير وجهي علامة استفهام ساذجة، فيترك عجلـة القيـادة الأوتوماتيكية ويتطلع نحوي في عطف ليقول في أدب كـأي طبيب: لا تنزعج( البارانويا) ليست خطيرة، معناهـا أنـك تشعر باضطهاد المجتمع لك ولفنك الناتج عن الـداء الأول، وهو شعورك الدائم بالعظمة.( ملحوظة: من قبل كان يقـول لي أني مصاب بالشيزوفرانيا، أي انقسام الشخصية).

حاولت أن أبتلع كلماته وهي تمر بصعوبة مـن حلقـي الجاف بلا تدخين. وفجأة تتوقف السيارة في منتصف الطريق الذي تحول إلى سـاحة واسـعة فيهـا أضـواء وأشـجار والإعلانات" نيون" ملونة. كل شيء فيها وسط ظلام المسـاء الذي حط الآن، يبعث البهجة. كأننا في" لونابارك" أو" سيرك" أو عيد مفاجئ، وسجادة القطيفة تحولت إلى صـينية هائلـة وردية، كلمات( هوتيـل) و( موتيـل) و( أسـو) و( شـل) و( مارلبورو) و( ماكدونالد) تبرق في السماء بالفوسـفور أو ترقص مع النجوم. وفي هذا العيد تهمس سيارتنا بلا صوت وننفتح الباب الذي يعزف لحنًا جديدا، لحن الوصول. وبعد أن تنتهي لحظة الإغلاق ندخل أحد المطاعم وقد أصبحت الإنارة في الداخل كأنها شمس صعيد مصر، أو وهج شارع سعدون بغداد في عز النهار.

الجنة الأميركية حيث عشرات الأصناف من كـل مـا يخطر على بالك من أطباق سـاخنة وبـاردة ومشـروبات وحولها فراشات الجنة، فتيات في عمـر الزهـور يتـولين خدمتنا، لا تدفع الآن، بعدما تشبع تدفع.

أخي لا يأكل اللحم ويختار طبقًا صغيرا من الفيتامينات الخضراء وعليها صلصة بيضاء لزجة. ألتهم أطباقي التـي ازدحمت بها الطاولة مازحا، مغـازلاً الفراشـة الأميركيـة كعادتي: هل أنت مرتبطة في الويك اند؟ ثم أتعمـد إصـدار صوت من المعدة يعلن حالة الشبع والاكتفاء. ويمتعض أخي المرهف الزاهد، بينما أدخن سيجارا. يترك شـيكًا وبقشيشًـا سخيا ثم تفتح لنا الشقراء الباب لأغازلها من جديـد... هـل تأتي معي إلى باريس، فتضحك.

ونعود إلى السيارة والطريق، وقد تحسنت الحال، وتبدأ فترة هادئة بلا نقاش وقد تعب كلانا. هو من القيادة وأنا مـن الكلام.

## مع الأشجار

في نهاية المساء، نصل إلى بيت صغير جميل يغطـس في منخفض أسفل تل وبجوار هضبة، كأنه كهف جميل وسط غابة كثيفة متوحشة. باب الكاراج يفـتح مـن تلقـاء نفسـه بواسطة جهاز صغير لاسلكي في السيارة، ويعلق قائلاً كأنـه يتذكر أيام الفقر والسكن في عشش الصفيح، فـي ضـواحي القاهرة: شايف العظمة... التكنولوجيا يا أستاذ!

يرشدني إلى غرفتي لأترك حقائبي، وأصعد إلى غرفته... بيت أنيق مرتب دقيق. أخرج إلى البلكون الكبير المطل على الغابة أجلس لحظات أدخن وأسمعه من خلفي يجهز لي فنجان الشاي الساخن وصوت طيور متوحشة وحيوانات تزرع الأشجار العالية وتشق فروعها محدثة أصواتًا كأفلام طرزان.

في الصباح، نلتقي في المطبخ الأميركي الشهير بتحوله إلى غرفة واسعة للضيوف. هناك نقضي أغلب الوقت ثم نخرج إلى الغابة فيقدم مع شمس الصباح الخافتة شجرة شجرة: هذه عمرها مئتا عام اسمها شجرة السنط، أو الكافور أو أم الشعور... قلت لنفسي وكأنني أعطف عليه: شقيقي المسكين يتحدث مع الأشجار... ليسلي غربته.

* * *

## فار من سجن في فرجينيا الأميركية

وصلت إلى ريف فرجينيا. كل شـيء فيهـا أخضـر ونظيف وقد تحوات" أقدامي" إلى أربعة بعدد عجلات السيارة الكبيرة التي غصت بداخلها، أشم رائحة البتـرول وأتـنفس الهواء المكيف وعمودي الفقري ملتصق بمسند المقعد. وقـد تحول أخي قائد السيارة إلى مسجون سعيد. أراقبه من الخلف وكأن قرص القيادة حبل يلتف حول ذراعيه وكتفيه. ومع ذلك كان يضحك ويفرح ويقدم لي من حين لآخر السيجار الفاخر.

وصلنا إلى المنزل الكبير وكأنه قصر( شـاتوه). وهـو الاسم الذي يطلقه الأميركيون على بيوتهم التي تحـيط بهـا الحدائق. والكلمة فرنسية أصلاً ولكن الأميركيين اسـتعاروها وأصبحوا يدللون بها بيوتهم.

وتطرق الحديث مرة أخرى إلـى شـلالات نياغـارا، فاعتذرت بصراحة عن زيارتها، وقد تولت الجميـع حـولي ونحن قاعدون في ساحة جلوس كبيرة فهمت أنها المطـبخ، حالة من الاستنفار. وبدا اعتذاري وكأنـه سـخيف ولكنـي تماديت في الاعتذار بأدب وقلت: أشكركم. لكن أرجوكم. لا تعاملوني كسائح أبله. أنا لا أحب الأشياء التقليدية التي ينبهر

بها السائح أو الغريب. أرجوكم لا يستهويني منظر صـناعي لسقوط الماء من تل إلى تل. هل تصدقونني؟ أني أعيش فـي مهجري في باريس ولم أزر برج" إيفـل" حتـى الآن علـى الرغم من الخمسة عشر عاما الباريسية من حياتي.

في هذه الأثناء كان شقيقي الأكبر لا يزال يقود سيارته الفاخرة. إنه على الطريق يقطع مئات الأميال لرؤيتي هنا في منزل العائلة المهجرية الكبيرة. ومع هذا أنا أشعر لمـاذا لا أعيش عصري وكأني أرفضه. ولقد تخيلت أخي كأنـه فـي القرون الوسطى، فارسا يمتطي حصانه. صـرخ الجميـع: وصل الأخ الأكبر من بنسلفانيا بتسبرغ. وكان صوت محرك سيارته يعلن قدومه المنتظر. وجرينا جميعـا إلـى مـدخل الحديقة للقائه وهو يهتف باسمي كما في طفولتنا. وكـان أن قضيت أياما قليلة في هذا" الشاتوه" الريفي الكبير لـم أنتقـل خلالها إلا من سيارة إلى سيارة للوصول إلـى أي مكـان، سواء لشراء علبة سجائر أو طابع بريد و" كرت بوستال" أو رغيف أو زجاجة شراب أو حذاء. فالمسافة بين المنزل وأي متجر لا تقل عن عشرة كيلو مترات، وقدح القهوة وكـوب البيرة لا تصل إليهما إلا إذا قطعتها. لذلك فهمت لماذا يتحول

المطبخ إلى خزان يكفي لأيام. وفي البيـت الكبيـر كانـت محاولات شقيقتي ربة البيت لبعث الروح والحـب ودعـوة الأصدقاء والاحتفال بأي شيء، تضيع هبـاء بـلا جـدوى. فقاعات البيت كبيرة وواسعة، ومهما ازدحم المكان بالضيوف فهم لا يجتمعون في قاعة واحدة. بعضهم ينتشر في الحديقـة أو القاعة التي تطل على( التيراس) والآخر أمام جهاز ضخم للتلفزة فيه خمس عشرة قناة تحدث الواحـدة تلـو الأخـرى ضجة تليها ضجة، وإصبع المتفرج القريب تعبث بـالأزرار حتى يختار برنامجا ما، لكن الإعلانات تفاجئه وتقطع ما بين جملة وجملة تلقيها المذيعة أو مقدم البرنامج، وغالبا ينتظـر الجميع ما بين العاشرة مساء والحادية عشرة برنامجا يوميـا يقدمه رجل شاب في السبعين اسمه جون كارسون. لكنك في النهاية تشعر بأنه سرق وقتك بلا فائدة، وهو أشبه بميشـيل دروكير في باريس أو سمير صبري في القاهرة.

## اللقاء المستحيل

الجميع يتحركون من مقعد إلى آخر ومن قاعـة إلـى صالة وفي الخارج دائما صوت محرك سـيارة مغـادرة أو سيارة قادمة.

البيت في النهاية مترامي الأطراف والمسافات بعيدة بين الواحد والآخر، والكلمات بين الأقارب والأصدقاء مسـتعجلة بلا تأمل ولا تركيز، والجو العام لا يساعد على وجود علاقة عميقة بين أخ أو صديق.

انتهت الحفلة المزعومة في السادسة مساء وكأنها سهرة وهمية حتى الصباح، فكل صديق أو مدعو عليـه أن يقـود سيارته ساعة أو ساعتين أو ثلاثًا، ولابـد أن ينـام مبكـرا ودوامة العمل لا ترحم وتدور منذ الصـباح التـالي حتـي المساء.

في الأيام التالية انتظرت لقاءا مع أسرة الشقيقة، وهـو ثالوث بسيط عائلي. الزوج والزوجة والابنـة. لكننـي فـي الصباح الباكر استيقظت على صوت محرك سيارة الزوج ثم بعد ساعة سيارة الزوجة وبعدها بقليل سيارة الابنة.

وأخيرا وجدت نفسي وحيدا في هـذا البيـت الجميـل الكبير، أتسلى بالعبث مـن جديـد بجميـع أزرار الأجهـزة

الإلكترونية، من ماكينة القهوة حتى التلفزة وبرنـامج جـون كارسون. وانتظرت عند الظهر قدوم واحد من الثلاثة لتناول الغداء، ثم ودعني وجرى بسيارته إلى عمله من جديد. وبعد الظهر كان يحضر واحد آخر من الثلاثـة ليشـرب معـي الشاي، ثم يجري إلى عمله... وفي المساء القصة ذاتهـا... وهكذا تدور طيلة هذه الأيام من الصباح إلى المسـاء لعبـة السيارات الموسيقية على وزن لعبة الكراسي الموسيقية. لكن الذي لا يحدث أبدا لقاء الثلاثة معي على مائدة واحدة.

## الفرار

ذات يوم قررت الهروب. والهروب هنا هـو بـالمعنى العكسي. لقد قررت أن أحاول العـودة إلـى نغمـة الحيـاة الطبيعية وقلت لنفسي: حسنًا لن أستعمل سيارة أحدهم أريـد أن أعود إلى البطء في الحياة، إلى التأمل من جديـد كفنـان بسيط من قريتي بهجورة. لن ألهث مثلهم. أريد أن أعود إلى الإحساس بالوجود. لن أستنشق الهواء المكيف بـل الهـواء الأخضر المنعش. سأستعمل قدمي في نزهة لمسافة ميل واحد مثلاً شرقًا أو غربا. لن أضيع سأعرف كيـف أعـود إلـى المنزل سيرا على الأقدام أيضا.

وبـدأت المغـامرة حتـى وصـلت إلـى الطريـق الكبير( الاوتوروت) العام، وما إن ظهرت في هذا الطريـق حتى فوجئت بسيارة هائلة تصرخ من الفرامل. تتوقف فجـأة أمامي: ويطل وجه أميركي ضخم طيب وهو يفـتح سـتار زجاج نافذته ليقول لي بلهجته السريعة وهو مستغرب جـدا، وأنا مثله وكلانا في موقف غيـر مفهـوم مـن الجـانبين: Something Wrongٍ،" إيه فيه حاجة؟ حصل حاجة؟ عندك مشكلة؟ سيارتك عطلت؟ أي خدمة أقدمها لك؟ تحب أوصلك إلى المكان اللي رايحه". شكرته واعتذرت وقلت ربما هـذا طراز غير عادي لأميركي فضولي وعدت أكمـل المسـيرة وأنا أستمتع كعادتي عندما تطأ قدماي أرضا لم تلمسها مـن قبل تماما، كما تلمس يداي بشرة تفاحـة أو برتقالـة. هـذه العلاقة الموروثة ما بين الإنسان والطبيعة أو ما بين الطبيعة والطبيعة.

لكن الحادث البسيط والصعب ذاته تكرر ثلاث مـرات خلال الدقائق الثلاث التالية. وهنا غيرت الاتجاه لأعود إلـى المنزل... وبدأت أركض رغما عني. ولم تعـد السـيارات تتوقف. كانت حركاتي هي ذاتها. وربما قالوا في النهاية: أنه

رياضي يقوم برياضة تدعى المشي أو مريض ينفذ تعليمات طبيب!

## يتعلمون الطب بأسنان المهاجرين

.... وانتابني ألم في أسناني ذات يوم. غريب أنـا فـي باريس لا أعرف عنوان طبيب أسنان ولا مستشفى... وحتى حلاقًا يخلع الضرس بالفتلة والدوبارة( كما كان فـي قريتـي بهجورة).

قال لي الأصدقاء المغتربون مثلي: اذهب إلى كلية طب الأسنان في ميدان القديس سوبليس. هناك يعالجك طلبة الكلية في السنة التجريبية النهائية... بالمجان.

في الثانية بعد الظهر، كنت هناك أملأ استمارة أعطتهـا لي فتاة في مدخل المبنى الكبير. حولي جمهور كبيـر مـن النساء والرجال والأطفال يبدو عليهم الألم مثلـي وأغلـبهم يضع يده على فكه الأيسر أو الأيمن، وعلى وجهه لهفة إلـى العلاج.

في لحظات قليلة، وبنظام، في الطابور، اسـتلمت ملفًـا كاملاً ضخما مكتوبا عليه اسمي بخط أزرق كبير، بالقلم ذاته الذي كنت أحيانًا أرسم به اسكتشاتي في مقـاهي وملاهـي باريس.

فرحت بالملف وصعدت الدرج إلى الدور الأول، كما قالت لي السكرتيرة. هناك صالة كبيرة ومقاعد كثيرة ومرضى عديدون من كل لون وشكل وجنس. جلست في جانب الصالة، في ركن على حدة، أزاول هوايتي الدائمة، التأمل ومتابعة الحركة والوجوه وقد غمرتني لحظة جديدة من المتعة والسلوى. لقد شعرت بألفة مع المكان وبأمل في الشفاء والقضاء على الألم الذي يصرخ بين الحين والآخر، في نهاية الفك الأسفل إلى اليمين، وأسفت لأنني لا أستطيع بسبب الألم أن أسحب كراستي وأرسم.

شباب حولي في غبطة. يهرولون جيئة وذهابا دخولاً وخروجا من مكان مجهول يبدو بالنسبة إليهم، الجنة ذاتها. وشيوخ كباروآخرون في منتصف العمر يرشدون الصغار هنا وهناك... والجميع يلبسون اللون الأبيض، معاطف قطنية بيضاء ناصعة. الكبار، كما فهمت بسرعة هم الأساتذة والمساعدون والمشرفون. أما الفتيات فنسبة الجمال فيهن قليلة. إنه جمال العمل والمرأة، كما أظن، أكثر جمالاً عندما تعمل وفي عيون الفتيات والشباب بريق فرح وأمل لكن بعضهم مهموم من التجربة الجديدة والآخر لا يبالي.

خطفوا منا الملفات المكتوب عليها أسـماؤنا واختفـوا خلف الزجاج السميك المحبب الشديد الإضاءة. مرت لحظات فهدأ الزحف وتحول إلى نزهة حولنا أو حنجلة نحونـا. ثـم بدأوا يقبلون نحونا بهدوء حاملين ملفاتنا.

فـي هـذه اللحظـة تمنيـت أن تختـارني متدربـة شقراء،( على الرغم من نظارتيها الزجاجتين) لكـن الفكـرة غادرتني بسرعة فالألم يشتد في الفك الثاني السفلي والشـفاء منه بأية وسيلة ضرورة فورية فلا داع لافتعال الصـدفة أو التفكير في أحلام مراهقة سخيفة.. وجاءني شاب رقيق يحمل الملف الذي عليه اسمي وهو يسألني إذا كنت أنا صاحب هذا الملف ثم يصحبني إلى الداخل فهرولت وراءه فـي فرحـة وكأني أريد أن أقفز وأسبقه.

أجلسني الشاب على مقعد يتحول إلى سرير والأضـواء الباهرة تسقط على وجهي وهو يحولها في هـذا الاتجـاه أو ذاك، وتابعت بنظري الأقدام والسيقان والبناطيل فرأيت فيها على التو معاناة الطالب المادية. إنها من الأنواع الرخيصـة فعلاً.

## الضرس – الامتحان

ها أنا جالس في مقعدي والجميع حولي جالسـون فـي انتظار الأمل أو الشفاء السريع من الألـم. مثلـي يحملـون ملفاتهم وكأن كل واحد منا صنع من الملف الأبـيض رايـة لسفينة تكاد تغرق في انتظار واحد – أو واحدة – من هؤلاء الأطباء الشباب الصغار. واقتربـت السـاعة مـن الثانيـة والنصف تماما فهرول الشباب الأبيض إلى الـداخل، خلـف الزجاج الذي تبرق حوله أضواء من نقـاط قريبـة وبعيـدة وسمعت الأستاذ ينادي الأسماء وكل تلميذ طبيب يرد: نعـم. حاضر يا فندم! وفي اللحظة الأخيرة التالية بدأ زحف شـديد خلف الباب الزجاجي نحونا. خروج مفاجيء وكأننا فريسـة والشاطر هو الذي يختار وكان علينا أن ندخل وراءهم إلـى المكان خلف الزجاج السميك ثم نجلس في الداخل إلى اليمين واليسار وسط الأجهزة والأدوات. كثيـرون مثلـي جلسـوا وحولهم الأطباء الصغار يرتدون الأبيض ويتناوبون الأماكن ويتبادلون التحية والأساتذة الكبار يتحركون بوقار وانتظـام. يتنصتون ويراقبون ثم يتدخلون ويدلون بـرأيهم. ولاحظـت

أنهم لا يمدون يد المساعدة إلا بعـد أن يختـار الطالـب أو يناديه.

الطبيب الطالب يدون في إحدى ورقات الملف إجابـاتي عن أسئلة كثيرة... دون أن يطلب مني أن أفتح فمي ليـرى أسناني. ماذا تشعر ؟ في أي جانب؟ منذ متى؟ هل تأكل على هذا الجانب؟ هل تستعمل هذا المعجون قبل النوم وبعده؟ مـا عمرك؟ ما نوع الألم؟... ثم طلب مني أن أفتح فمـي وراح يوجه الضوء القوي نحو عمق الفم وفتحة الفـك.... وهـو يدون من جديد بعض الملاحظات ومعـه ملعقـة صـغيرة يحركها في كل طرف وعلى كل سن أو ضرس. ولاحظـت أنه يتردد كأنه يرتعش مثل طالب أمام لجنة الامتحـان. لقـد تحولت إذن إلى موضوع يقرأه الطالب ويصـححه الأسـتاذ ويعطيه درجة. وأشـفقت علـى هـذا الطالـب وتطوعـت لمساعدته. أردت أن أبسط له الموضوع. أن أشرح له تمامـا نقاط الألم بدقة شديدة ربما يساعده ذلك على فهم الموضـوع والإجابة عليه ليحصل على درجة جيدة. لكنه دار حول نفسه وتركني ثم غاب لحظات وعـاد ومعـه صـديقة، طبيبـة أخرى( ربما تربطهما بداية علاقة). تعاطفت الطبيبـة معـه

وجاءت من الناحية الأخرى من المقعد الوثير ومعها ملعقـة جديدة تحركها في فمي وتتحدث معه، لا أدري كانت تبـوح لـ... صديقها ببعض خواطرها أو تطرح عليه استفسـارات معينة والأستاذ يراقب وحوله مجموعة أخرى مـن الطلبـة. وبعد المداولات تركني الاثنان ثم عادا بعد لحظـات، وبعـد مشاورات مع الأستاذ قالا لي بحزم، وبلغة التلامذة الصغار: إذا كنت لا تزال تشعر بالألم فسننقلك إلى قسم جراحة الأسنان في الطابق الرابع. بعد ساعة تبدأ الدراسة المسـائية لطلبـة طب الأسنان العام التدريبي الأخير، أي قبل الخـروج إلـى الحياة وممارسة المهنة رسميا.

أعطاني التلميذ طبيب الأسنان ملـف أوراقـي وعليـه خطوط تجريدية، كما في لوحات غوان جرية أو بول كلي أو كاندنسكي، بينما اختفت الزميلة الحبيبة وشاهدتها مـن بعيـد تعانق زميلاً آخر.

خرجت إلى قاعة الانتظار من جديد ثم صـعدت إلـى الطابق الرابع وانتظرت هناك مـن جديـد، خلـف أبـواب زجاجية تعكس أضواء قوية من بقع كالبؤرة وسط المكـان، خلف الزجاج، كأني في صالة انتظار مظلمة أتفـرج علـى

مسرح مضيء جدا. أو أمام شاشة سينما في فيلم أقـوم فيـه بدور الكومبارس.

النجوم في ردائهـم الأبـيض ينشـطون بعـد سـاعة الانتظار.. يصعدون الـدرج ويهبطـون. يـدفعون البـاب الزجاجي الضخم الذي يفتح من تلقاء نفسه، وأنا وسط شرذمة من المرضى المهاجرين أمثالي. وجوه من البرتغال والصين أو اليابان أو كوريا أو الفيتنام( طيلة عشر سنوات لم أستطع التمييز بين هؤلاء الآسيويين ولهجاتهم). وينفتح الباب فيخرج منه طبيب تلميذ شاب( أو شابة؟) تضع نظارتين زجـاجيتين وفي ساقيها زخرفة من نسيج دقيق كأنها من فتيات الليدو أو الكريزى هورس. ولكني أعود إلى نفسي وأتذكر الألم وأرتفع بنظري إلى أعلى... حيث تقرأ الاسم على الماف في يـدها. وللأسف كان المريض الصيني من نصيبها وفجـأة يخـرج شاب عملاق رقيق في معطفه الأبيض. أتعرف على المـف الذي في يده وأتأكد أنه لي بعد أن ينطق اسمي ويدعوني إلى الدخول. ملامح نصف أفريقية ونصـف أوروبيـة، وكأنـه مهاجر مثلي، وربما كان من أب أفريقي وأم فرنسية( تأكدت بعد ذلك من صدق حاستي السادسة). لغته الفرنسية دقيقـة،

بلا أية لكنة، وفي عينيه عشق كبير لمهنته الجديـدة. لكنـه متردد. قلق. خائف. أنا المريض أكثر ثقة وأقل خوفًا. طبيبي الشاب الصغير هو الخائف.

نحن الاثنان في عيادة صغيرة زجاجية، كأنهـا خيمـة لفريق كشاف بسط خيامه في معسكر على ضفة نهر أو فـي وسط غابة. والغابة هذه المرة بيوت باريس الرماديـة التـي أراها من النوافذ الكبيرة.

الخيمة مقعد يتحول إلى كنبة أو سرير للمريض. حاول الطبيب الجراح الشاب أن يحرك المقعد ليتحول إلى كنبه فلم يستجب المقعد له. فطلب من زميل له أن يساعده.

الخيمـــة الزجاجيـــة لـــيس لهـــا رأس أو قمـــة فالطبيب( الصغير) يستطيع أن يحادث كل مار في الطريـق الذي يفصل الخيمات الزجاجية المنتشرة حولنا، فـي قاعـة تتسع لأكثر من ثلاثين مريضا وثلاثين طالبا لطب الأسـنان. الأستاذ يمر هنا وهناك ومعه مساعدون شباب تخرجوا مـن الكلية يبدو عليهم كثير من الخبـرة والنبـوغ فـي المهنـة. وطبيبي صاحب القامة الطويلة يحـادث الـزملاء المـارين بمعاطفهم البيضاء جيئة وذهابا ثم يعود ويلتفت إلي ليطـرح

علي السؤال الذي حفظه عن ظهر قلب ثم..." افتح فمك" في البداية كان يقولها لي مصحوبة بالعبارة التقليدية" من فضلك"" لو سمحت". لكن بعد ذلك، كان يأمرني بعصبية أو احتجـاج أو تهديد( ما هو مش حاعرف أعالجك لو ما كنتش تفتح بقك كويس... كمان.....كمان). كانت نبرة صوته تعلو حتى تبلغ مرحلة الغضب أحيانًا وكان يبدو أنه أمام سؤال صعب وفي حالة غير عادية وهو يندب حظه الذي أوقعه بالصدفة علـى مريض مثلي. وأنا تولاني الشعور ذاته بعد ذلك.

الألم في نهاية ضرس العقل على اليمين وقـد وصـل السوس بداخله إلى العصب، وهي المرحلـة التـي تسـبق الانتفاخ أو الورم. وفي لحظة وضع الطبيب فـي صـدري قطعة قماش فتحولت إلى مريض راهب ثم ربطهـا خلـف الرقبة بشريط أبيض من القماش ذاته واستلقيت بجسمي حتى حذائي على المقعد الوثير الجلدي القديم، كمـا يبـدو، فهـو يحدث أصواتًا كلما ملت على اليمين أو اليسار. أنا في وضع صعب ولكن لابد من إكمال مشوار العلاج الذي يبـدو أنـه طويل.

جاء الأستاذ الكبير بمعطفه الأبيض أيضا ومعه نظارتاه وشاربه الأبيض. يبدو في حالة من يتنزه في حديقـة غنـاء يداعب كل طالب ويبتسم هنا وهناك. قلت في نفسـي: لـو أخطأ التلميذ سينقذه هذا الأستاذ.

همس الأستاذ الجراح كلاما إلى التلميذ بسـرعة وهـو يتطلع معه إلي الملف وقال له، كأنها كلمة السـر: رقـم ٤٨ يمين ففهمت أن الأسنان لها أرقام. بعد ذلك، اتجه الاثنـان نحو فمي المفتوح، وأنا كأبله لا يفهم شيئًا ولا يريد أن يفهـم مع أنه يحاول. قال له بلهجة نصيحة كأنه يعطيه الإجابة على السؤال الأول على الامتحان مجانًا وقال لا تخلعه احتفظ به. تابع الطريقة العادية لعلاجه.

فهم الطالب، كما يبدو، لأنه وضع بعض القصاصـات الصغيرة مـن مـادة تشـبه الفوسـفور أو المغنـاطيس أو الرصاص ما بين الضرس المتألم والفك الأعلى وقـال لـي: اضغط بقوة. ثم أخذ هذه القصاصـات بعـد أن عضضـتها بأسناني وطلب مني أن أقف وأتبعه إلى خيمة مجاورة اتضح فيما بعد أنها جهاز فوتوغرافي في التصوير وضع ضرسـي أمام قوة ضاربة من الضوء وسلط أشعة لونها أزرق حـول

الضرس فأخذت تلتقط أكثر من صورة مع كل" فلاش" وعدت من جديد إلى الخيمة التي أصبحت كأنها منزلي الصغير، أو الاستوديو في جزيرة القديس لويس بالحي الرابع. وارتـدى الجراح التلميذ قناعا أبيضا كأنه إرهابي في ثياب ملاك يخفي فتحتي أنفه وفمه. ولم يبد لي سوى عينيه الأفريقيتين الطفلتين في براءة ونبل المعرفة. وبدأ يفتح بعض الأدراج الصـغيرة من العلبة المعدنية الكبيرة أمامه التـي تسـير علـىعجلات عندما يحركها وبدأ يضع أمامه أدوات الجراحـة: المشـرط والإبرة والسكين وأدوات غريبة لها أشكال مختلفة، ثم وضع بعض السوائل والأدوية والقطن الأبـيض ففاحـت رائحـة الصيدلية التي راح يفرطها إلى قطع صغيرة أمامه وأمـامي. في تلك اللحظة قررت أن أنام. خف الضجيج وراءنا وحولنا في الخيام الزجاجية وخف أنين المرضـى أثنـاء العمليـات وتنقل الأشباح البيضاء خلال الزجاج الكثيف.. لكني عـدت عن قرار النوم. كيف أنام وفمي مفتوح على آخره.. عضلتا الفكين الأعلى والأسفل بدأتا تتعبان بينما جاء الأستاذ ليطمئن إلى سير العملية مع تلميذه وقال له بعد أن تطلع إلى قطعتـي

الفيلم( النيغاتيف): الضرس ٤٨ به ثقبان عميقان يصلان إلى العصب. عليك باللازم. ثم تركه وتركني.

## ثقب واحد

الطالب الجراح يتأمل كثيرا الصورة الفوتوغرافية المقلوبـة في يده قرب الضوء الأزرق. ثمة خطأ ما. عندما سأل أستاذه أثناء عودته من نزهته قال له: لا أرى سوى ثقب واحد. لكن الجراح الصغير العملاق الطويل الأسمر الأفريقي بدأ يعمـل بشجاعة. وضع الإبرة في اللحم المحيط بالضرس وقد صار منتفخًا فلم أدري أني ما أزال احتفظ بفمي كـاملاً أو فقـدت نصفه وتولاني من جراء التخدير رعب شديد. لن أعود إلى حالتي الطبيعية وسأصبح طول عمري مشـوها. لـن تقبـل حسناء الحديث معي. لكني رهبت من هذه الأفكـار وعـدت أتقبل إرشادات الجراح وهو يضع شيئًا ثقـيلاً فـي الثقـب الفاسد، وبالرغم من التخدير، أحسست بالثقـب عميقًـا فـي جسمي يصل إلى قدمي.

تلك الليلة نمت نوما هادئًا بعد مغامرة طويلـة، إلا أن الألـم عاد الأسبوع التالي يلمع ويجعلني أصرخ أحيانًـا وأتوجـع. هتفت إلى التلميذ (كان قد أعطاني رقم تلفونه في بيته وطلب مني أن أزوده بأخباري اذا لزم الأمر) فتطوع بانتظاري في المساء. كانت القطع المعدنية التي وضعها بملقطه الصـغير

في ثقب الضرس قد سقطت ووصل الألم مـن جديـد إلـى العصب.

طال الألم بعد ذلك ثلاثة أسابيع بالطريقة ذاتها والعذاب ذاته حتى قرر إغلاق الثقب داخل الضرس تماما. شـككت فـي الأمر وقلت أنه لم يكتشف الثقب الثاني فقرر إغلاق الضرس من الخارج وكسوته غير أني شكرته في المرة الأخيرة وقال لي: انتهي العلاج. مع السلامة. لكن علامة اسـتفهام كانـت تراودني. كيف ينهي العلاج وفي الداخل ثقب فاسد لم يهتـد لرؤيته في الصورة الفوتوغرافية مع أن الاستاذ قال له: يوجد ثقبان لا ثقب واحد. المهم، عدت إلى حياتي اليوميـة ومـر أكثر من شهرين. فبدأت أحس بـورم خبيـث ينمـو حـول الضرس رقم ٤٨ يمين وزاد التـورم ذات صـباح عنـدما صحوت من نومي لأجد فمي مغلقا تماما ولا أستطيع تحريك الفك الأعلى والأسفل. مررت على بار المقهى في الشـارع وسألت السيدة مديرته التي تعودت على رؤيتي كل صـباح أشرب القهوة وأنا أداعبها وأرسمها، عن طبيب أسـنان فـي الحي. كنت لا أريد أن أتذكر كلية طب الأسنان نهائيا.

ابتسمت "المديرة" الفرنسية وقالت لي: الدكتور مونتانيه، كان يشرب القهوة هنا مثلك منذ ساعة واحدة. إنه الآن في عيادته. هذا رقم هاتفه. اطلبه فورا.

دقائق وكنت عند الدكتور مونتانية الذي قال لي: كيف أعالجك وأنا لا أستطيع أن أفتح فمك لأرى أسنانك. عليك بالذهاب أولاً إلى دكتور في الطب العام فجريت إلى الدكتور لازري الذي أمرني بملازمة الفراش لمدة أسبوعين وأن أتغذى بعصير البرتقال وأصبح يزورني كل يوم في البيت مرتين ومعه ممرضة صباحية وممرضة بعد الظهر لإعطائي حقنات مضاد حيوي، والممرضات من مكتب خاص، إحداهن يونانية وأخرى أسبانية ثم برتغالية وبعدها تشيلية. كلهن مهاجرات مثلي. وحين شفي فمي عدت إلى الطبيب جراح الأسنان فخلع ضرسي واسترحت أخيرا.

* * *

## "شانتال" في الغابة

سيارتي صغيرة. صفيحها لحم وموتورها شرايين. عمودها الفقري بحجم الكوردان (المسواك). تقفز وتصيح أحياناً. تزمجر وتتردد وتخاف وتحب.

تشرب ماء المطر عندما يتساقط على سقفها وينفذ إلى داخلها من فتحات نافذة سقفها التي أفتحها في الصيف الحار. وتتحول هذه النافذة في الشتاء إلى مصفاة.

مهرولاً، كعادة الفرنجة، أفتح باب سيارتي. أدير المفتاح وكأني أحتمي من المطر في الخارج وكأن الداخل هو النعيم. أجلس على المقعد وأدير الموتور، هذا القلب الذي ينبض بصعوبة في أيام وليالي البرد على ضفة السين (السين لا النيل أو دجلة)، فأشعر بالماء يتسرب من المقعد الذي أجلس عليه وينفذ إلى البنطال، وكأني خارج في تلك اللحظة من البحر، للجلوس على الشاطئ... بالمايوه.

وسيارتي الغريبة دعوتها "شانتال" وإليكم القصة.

كان حلمي الأول أن تركب معي في سيارتي باريسية شقراء لها ملامح كاترين دونيف. ومرة في ناحية بين بولفار سان جرمان وساحة الأوديون في الحي اللاتيني، رأيتها تنادي

بذراعها وخصلات شعرها الذهب الحريـر سـيارة أجـرة. وكانت أول فرنسية قابلتها. في لحظة توقفت فصاحت فراملي وصرخت موتورات السيارات خلفـي وقلـت فـي نفسـي: سأدعوها على اسمها هذه السيارة.. شانتال.

**مزاج**

سيارتي شانتال تحب الرصيف. تزحف بجواره في حرص. تفضل البطء ولا يهمها أن تسابق الريح. لا تحدث صـوتا. يرتعد صفيحها عندما تدخل الغابة (أعني وسط البلد). تخاف الأفيال (أعني عربات النقل) وتـنكمش مـن الثعـالبين (أي الموتوسيكلات) لكنها تتعايش مع الأسود والسـباع والنمـور (سيارات المرسيدس والجاغوار المستعملة). غير أن أكثر ما يخيفها هو لدغة العقرب (أي سيارة البوليس).

إنها سيارة هجرتي الباريسية وقد انتقلت إلـي مـن صـديق مهاجر.

في أحد الأيام دق التلفون في مرسمي الصغير تحت سـقف إحدى البنايات، في جزيرة القديس لويس. كان علـى الخـط صديقي المهاجر يحدثني بلهجته اللبنانية الحبيبة إلى قلبـي.

بالمناسبة هو حلبي من لبنان أو لبناني من حلب (لا أدري).
قال: بدك السيارة الصغيرة الحمراء. بتعجبك؟ أعطيك إياها.
أجبت بعفويتي البهجورية التي انتقلت معي من صعيد مصر:
مش معقول. صحيح. حلو. وحاتدفّعني كام؟
رد: حبيب قلبي. ما بتدفع شى. ما عليك غير بقية الأقسـاط. أنا تارك باريس. عندي شغل في الخليج. قالها بطريقة "شيك" وبلهجة فرنسية.
سكّرت التلفون وضعت في أحلام وردية. سـيارة حمـراء. ميني أوستن، أصبحت بعد هذه المكالمة. من ممتلكاتي. لـم أكن أحلم بأن أمتلك في باريس سيارة بنصف الأقساط فقط.
صديقي اللبناني، الحلبي من لبنان أو اللبنـاني مـن حلـب، تربطني به صداقة عمرها سنوات المهجر. نسـهر أحيانًـا ونضحك غالبا ولا نحزن أبدا، سوى مرة واحدة فقـد فيهـا عزيزا وشاركته ألمه. وقد أبى إلا أن يعطيني السـيارة مـع درس في القيادة وسط باريس، مع أني كنت أسوق سـيارتي الفيات في شوارع القاهرة المزدحمة، أكثر من باريس بعشر مرات.

**سمكة**

من ذلك الوقت أصبحت سيارته سـيارتي. صـعدت إليهـا ووضعت ذراعي خارج النافذة، كعادتي حين كنـت أسـوق السيارة في القاهرة. ثم دخنـت سـيجارتين: سـيجارة لـي وسيجارة أخرى بدلاً من التي منعني أخي المهاجر الطبيـب النفسي في بنسلفانيا (أميركا) من تدخينها داخل سيارته.

كنت أخاف أن أتعرف جيدا على "شانتال" حين كانـت فـي حوزة صديقي اللبناني حتى لا تحدث قصصا صغيرة تـؤثر على صداقتنا. وقد حدث أن تأجل موعد سفر صديقي إلـى الخليج فأضطر إلى البقاء في باريس لبعض الوقت. وهكـذا صرت أفاجأ به على التلفون:

- حبيب قلبي. بدي خدمة صغيرة منك.

قولّي بس، أي خدمة؟

- عندى حفل زفاف. صديق وصـديقة لبنانيـان. الليلة في ضواحي باريس. تعيرني السـيارة؟ ا يرضى عنك.

وبعد أن يسكت قليلاً يستطرد بسرعة: مـا تـزعج حالـك. الساعة ١١. ما تخرج. قولّي وين السيارة وأنا باخدها. معي مفتاح ثانٍ.

وكنت أقبل. لقد تعودت على "الشطارة اللبنانية" وتذكرت أنه مهاجر مثلي ولابد من أنه يحن إلى السيارة ذاتها. ولم تخب ظنوني حين خشيت أن تؤثر شانتال على صداقتنا. لقد أخذها صديقي اللبناني من "جسر ماري" حيث أوقفتها، لحفلة العرس ثم... بحثت عن شانتال على جميع أرصفة نهر السـين فلـم أجدها طيلة "الويك اند". وكان لقاء عاصـف بينـي وبـين صديقي اللبناني فشربنا آخر قهوة معـا وأعطـاني المفتـاح الثاني للسيارة حتى لا تتكرر الحادثة.

سافر صديقي وارتحت له ومنه وتشجعت قليلاً مع "شـانتال" فأصبحت تصحبني ببطء إلى كل الأحياء والمواقع. وتجرأت يوما أن أذهب بها إلى الشانزيليزيه وأن أدخل بهـا الغابـة، وسط باريس المخيف. بل إن "شانتال" أصبحت بعـد فتـرة طويلة، مثل السمكة الحمراء الصغيرة في النهر الصغير، بل تتجــرأ وتجــازف للخــروج إلــى البحــار البعيــدة.

هذه الغابة المتوحشة (وسط البلد) تقتحمها "شـانتال" بشجاعة، وهي الصغيرة البطيئة النحيفة القدمين. تعاند اللئيم وتشاور إلى اليمين واليسار بأدب. تنحنـي فـي الطريـق. تنضبط مع كل إشارة وكل وقفة وتهوى القفز على الرصيف

بقدميها الخلفيتين، إذا لم تجد مكانًا للوقوف. وتستأذن حـين تجد موقفًا خاليا تشغله مقابل خمسة أو عشرة فرنكات مـدة ساعتين. لكنها، مثل كل السيارات البشرية، لها نزواتها، فهي تقف أحيانًا في خدمة المرور أو المشاة، أو أمام مخفر بوليس أو باب كاراج، وإن تعرضت في أغلب الأحيان لكثير مـن الإهانات والنقد والعقاب. أما إذا أصابتها لدغة العقرب فتدوخ وتمرض ولا تخرج من أزمتها الصحية والنفسية إلا بعد أيام (للتذكير: لدغة العقرب هي الشرطة).

لدغ العقرب شانتال أكثر من عشر مرات وكانت كـل مـرة تشعر أنها القاتلة، غير أنها كانت تعود إلى الحياة من جديد، رافعة الرأس مشتعلة الموتور.

المرة الأولى كانت حين تركتها ذات مساء في مكان واقفـة فيه سيارات عديدة. لكنني لاحظت على ناصية الطريق لافتة عليها دائرة وخط أحمر مائل مع عبارة: "الوقوف هنا يضايق حركة السير". قلت حسنًا. أعود في الصباح لأجد لها مكانًـا أفضل. وعدت في العاشرة صباحا فلم أجدها. كنت مثل أبلة فقد نقوده كلها ولا يدري ماذا يفعل. كانت الصـدمة كبيـرة وعندما أفقت منها ضبطت فمي مفتوحا على آخره كعلامـة

استفهام. تذكرت المكان الذي كانت تشغله الليلة الماضية. أين هي؟ كأنها غاز تبخر أو بالونة حمراء ارتفعت في الفضـاء. سألت هنا وهناك في الحوانيت الباردة حتى قال لي أحـدهم: الساعة الثامنة ونصف جاءت عربة البوليس ومعهـا ونـش كبير سحب جميع السيارات واختفى بها خارج جزيرة القديس لويس.

عبرت الجسر ماري كأني كلب أجرب ضال ودخلت إلى أول مركز شرطة. تبادلنا تحية مسجونة كأنها تحت أنقاض ناطحة سحاب... وفي الطابق الخامس تحت الأرض، عثرت عليهـا أخيرا في أقدامها أغلال وفي صدرها حبال وعلـى جانبهـا الأيسر علامة حمراء... وعبارة "مقبـوض عليهـا" باللغـة الفرنسية (الترجمة غير حرفية). وكانـت صـامتة حزينـة. دفعت فدية عنها (باهظة) واشتريت حريتها ثم خرجنا معـا عبر ممر حازوني في صمت مزدوج. وفكرت. كنت أتـرك سيارتي القاهرية في أي مكان. وسط البلد وخارجـه. كـان هناك دائما حارس أناديه، أعطيه قطعـة نقـود أو مفـاتيح السيارة، وهو يختار لي المكان المناسب.

**خوف**

صرت قلقًا على شانتال في باريس بعد هذا الحادث وصرت أتردد كثيرا في الشارع أو على الرصـيف، بـل أصـبحت أعتذر خلال السهرات من الأصدقاء وأزعـم أننـي خـارج لشراء سجائر، فأطل عليها لأتأكد أنها لم تخطف بعد.

أخذت شانتال إلى كاراج تابع لمدينة الفنون علـى الشـاطئ الآخر لنهر السين. أعطوني لقاء مبلغ صغير مفتاحا لبوابـة كبيرة عبارة عن كارت صغير من البلاستيك يوضع في فتحة من بعيد فينفتح الباب من تلقاء نفسه.

مثل الصعيدي القروي القادم من بهجورة، كنت أزهـو كـل مرة تفتح لي بوابة على بابا وأنا أفرح معها لحظـة أضـع الكارت المغناطيسي وأقول: افتح يا سمسم.

في هذه المدينة خمسمائة رسام وموسيقار ومقـال وخـزاف وحفار ومصور وممثل وراقص ومسرحي وسينمائي، عشت معهم أكثر من ثلاثة أعوام وكسبت منهم أصدقاء من السويد وفنلندا والهند واليابان والبرازيل والعالم العربي، وأصـبحنا جميعا زملاء العمر الطويل، أو ربما القصير.

قرب مدينة الفنون أطفال يلعبون منذ الصباح وحديقة أطفـال مجاورة ودار حضانة تأتي إليها الأمهات حاملات أطفـالهن الرضع. باختصار، عالم يبعث على الاطمئنان.

ولكن في اليوم الأول، بعد أن فتحت بوابة مغارة على بابـا وأوقفت شانتال، عدت إليها، وقبل أن أصل إليهـا تسـمرت قدماي وفتحت فمي في حالة عدم فهم وبدا على وجهي أنني أبلة أو عبيط. الهواء داخل الإطارات نفـد تمامـا ونامـت الأسطوانة الحديدية على الأرض. وفي اليوم التالي تكـررت الحادثة وفي الأسبوع التالي أيضا، في كل مرة كانت تـزداد الإطارات المثقوبة واحدة حتى وجدتها مثقوبة كلها. ذهبـت إلى إدارة المدينة وسألت عن الأمر. قيل لي أن أطفالاً كبارا يلعبون الكرة في الساحة يدخلون ويثقبون إطارات السيارات المتوقفة. وفي الحال رميت الكرت السحري وتناسيت عمـدا كلمة السر "افتح يا سمسم" وعدت مع "شانتال" مـرة أخـرى إلى رصيف السين. ولما وصلت "شانتال" إلى قرب بيتي في جزيرة القديس لويس، لم تصدق عينيها. كان المكـان خاليـا يتسع لأكثر من ثلاث أو أربع سيارات، لدرجة تـدعو إلـى الشك فوقفت هناك.

عدت في المساء من العمل فوجدت أرصفة الجزيـرة كلهـا خالية قاحلة بدون أية سيارة واحدة، وبين متر وآخر جـزرة حجرة أرضية مخططة باللونين الأحمر والأبيض، وبين كـل جزرتين زرع رجال البوليس.

**قهوة**

اتجهت إلى أحدهم أسأله عن القصة. أجابنى هذه المرة بأدب وهدوء: نحن في أول مارس (آذار) موعـد ذكـرى وفـاة الرئيس الراحل بومبيدو واليوم يـأتي الـرئيس والـوزراء للصلاة في الكاتدرائية لراحة نفسه (كاتدرائية الجزيرة أقـدم من كاتدرائية نوتردام). تذكرت أن خلـف مسـكني منـزل بومبيدو الذي يطل على ناحية ما بين جسر سولي ومورلاند وجسر ماري. كما تخيلت سيارة رئيس الجمهورية الفرنسية تحتل مكان شانتال. أي فخر؟؟

قلت للشرطى: لم أخطئ. المكان مسموح الوقوف فيه. أجاب: اطمئن. لا غرامة. سيارتك هناك. وأشار إلى الجانب الآخر من الجزيرة، إلى رصيف هنرى الرابع. وبعـد أن رسـمت بقدمي محيط دائرة الجزيرة... وجدتها. كانت قـرب خيمـة

سيرك وقربها سيارتان أو ثلاث فتوسلت إليهـا أن تحملنـي وتعود بي إلي البيت.

وتكررت الحوادث مع شانتال. تركتها ذات مرة في ميدان في الحي الخامس عشر وكان يوم سبت. قلت أضـعها أمـامي وأتناول قهوتي إلى المائدة المجاورة مستمتعا بالنظر إليها بين رشفة قهوة وأخرى كأني أحادثها. ومـرة التقيـت صـديق مهاجر ورسام مثلي، وطلب مني أن أصعد معه إلى الشارع الجانبي لأري مرسمه وأعماله وأبدي رأيـي فـي لوحتـه الأخيرة.

كان الميدان هادئًا ليس فيه إلا سيارتان صغيرتان وسـيارتي وقليل من الناس، كما في نهايات الأسبوع حين يتـرك أهـل باريس المدينة ويذهبون إلى الريف.

في أقل من ربع ساعة، ناقشنا لوحات الصديق وعدنا حـين انتهى الحديث فوجدت ازدحاما. كان السوق قد، تحول إلـى تظاهرة أو عيد. جمهور وسيارات وضوضاء حول المقهـى الذي كنت أجلس فيـه وفنجـاني لا يـزال علـى طـاولتي المتطرفة على الرصيف. وارتفعت عيناي، كانـت شـانتال الصغيرة الحمراء في قمة ونش كبير يرتفع بها كأنها تصـعد

إلى الدور العاشر في ناطحة سحاب. جريت ولهثـت حتـى سائق الونش لأقول لـه: "دي شـانتال. دي عربيتـي. دي بتاعتي. واخدها على فين؟" نزلها اعمل معروف. أنا كنـت أشرب فنجان قهوة وبس". نظر الرجل نحوي ببـرود وقـال باعتداد: ستدفع ثمن قهوتك غاليا جدا. هـل تـرى سـيارة البوليس هناك. اذهب وتفاهم معهم... ودفعت ثمـن فنجـان القهوة ٤٥٠ فرنكًا فرنسيا، أغلى فنجان قهوة في التاريخ، ثم عدت بسيارتي من جديد إلى بيتي في الحي الرابع وقد دخنت ثلاث سجائر: واحدة كالعادة، والثانية لأنني مغتاظ، والثالثـة بدلاً من السيجارة التي منعني من تدخينها داخل سيارته أخي المهاجر إلى أميركا.

والآن أكسبتني شانتال عددا من الأوراق الخضراء (محاضر ضبط بالمخالفات) تركتها لي شرطيات المرور اللواتي كنت أراهن قبل أن يصبح لي سيارة، ساحرات، وقد صـرن الآن في نظري قبيحات تماما.

في أغلب الأمسيات، أعود هذه الأيام سعيدا من رحلة لي في الغابة (وسط باريس) فتوقفني بطاريات وكشافات الشـرطة، في ميدان إيطاليا مرة، وفي ساحة الناسيون مرة أخرى، وفي

الشانزيلازيه و... خصوصا بعد الانفجـارات الأخيـرة فـي باريس.

ماذا أفعل؟ هل أبحث عن صديقي الذي باعني إياها بالتقسيط لأردها إليه، هذا الصديق الذي وجد عملاً فـي الخلـيج، أم أبيعها؟... أبيع شانتال؟

* * *

## شانتال (٢)

سيارتي (شانتال) ميني أوستن حمراء اشتراها صديقي الحلبي من لبنان أو اللبناني من حلب بالأقساط وعندما لـم يسـتطع تكملة دفع نصف القيمة توقف في منتصف المدة وأعطاها لي على أن أكمل المشوار.

كانت أول مرة لي في باريس كمغترب أسوق فيها سـيارة. تركتها في مواقع مختلفة فقبض عليها رجال المرور ورحت أبحث عنها مرارا في كاركات البوليس تحـت الأرض بعـد دفع الغرامة الباهظة. مرة أخرى تركتها خلف مقهـى فـي الحي الخامس عشر لأشرب قهوة... كان ثمن القهوة أغلـى ثمن في العام لأني دفعت أربعمائة فرنـك عنـدما خرجـت ووجدتها معلقة فوق الونش.

أوقفها رجال مسلحون من البوليس المجهز ضـد الإرهـاب مرات عديدة أثناء النهار وأثناء الليل. فتشوها مقعدا مقعـدا. حطموا فوانيسها الخلفية أصحاب السيارات الضخمة الكبيـرة التي لا تكترث بها لصغر حجمها عندما أتركها على رصيف مزدحم.

رفعوها أكثر من مرة عندما كنت أتركها أمـام بيتـي فـي جزيرة القديس لويس وهو مكان متواضع في شارع صـغير ولكنه في ذات الوقت يقع في موقع هام أمامه أقدم كنيسة في باريس (أكثر عراقة من نوتردام). وعندما أهبط من منزلـي إلى الطريق لا أجدها وأجد الشارع كله قد تحول إلى رجـال بوليس وأمن.. وأفهم بعد ذلك أن مكان سيارتي الذي أصـبح فارغًا معدا لسيارة رئيس الجمهورية ذاتـه فـي مناسـبات رسمية حفظت تواريخها. (ذكرى بومبيـدو و ١٥ مـايو). صلاة مالرول ٣٠ نوفمبر. وغيرها من المناسبات.

شانتال تسير بطيئة تحب الرصيف وضفاف السين.. تخـاف الغابة وسط البلد. وتخشى السير وسط القوافل (الأوتوروت) سيارة النقل الضخمة فـي نظرهـا أفيـال (جمـع فيـل). والموتوسيكلات ثعـابين. والعجـلات الصـغيرة سـحالي. السيارات الضخمة الجديدة (الرينو والمرسيدس والجـاكوار والشفرولية) في نظرها نمور وفهود وأسود ضارية... أمـا سيدات المرور الذين يـدونون أرقـام السـيارات فتسـميهم العقارب المنبعث الزرقاء.

حالمة هادئة تحب الموسيقى من جهازها الكاسيت الصـغير. غالبا باغ ومندلسون وشريط قديم لحفلة صـديقي العـازف المصري رمزي ليس للفصول الأربعة لتشايكوفسكي. وأحيان قليلة تفرح وتصخب مع شريط أصدقائي متقال وجناوي مـع الرعاية البهجورية والمزمار.

هي تشبه السمكة الحمراء الصغيرة في بحر هـائج متمـوج مزدحم بالقرش والدرفيل والتون. بعد أن تجرأت وخرجـت إلى البحر الكبير وهي بنت الترعـة والقنـوات الصـغيرة.

والفضل يرجع إلى صديقي الخزاف على سالم الذي يعـيش مغتربا في فرنسا منذ زمن طويل ويملك فيلاً (من الأفيـال) أقصد سيارة كاميون اشتراها بعد رحلته الفنية إلى السعودية. فقد تطوع بدور الموتوسيكل الجمهوري الذي يسبق سـيارة الرئيس. هذه المرة بالعكس فقد انطلقت سيارة سالم بشـاربه الذي يقف عليه الصقر كأنه فارس بطل من القرون الوسطى وخفت خلفه شانتال كأنها بطة صغيرة حمراء تتهـادى فـي رهبة الأوتوروت وخاصة (ألف ستة) الجنوبي مـن بوابـة (الأورليان).

تطورت شانتال بعد رحلة سالم الاستكشافية في الأوتوستراد الجنوبي. أصبحت أكثر شجاعة وجالت وصالت في الطريق المخيف إلى ضاحية ايفري وفونتان بلو.

أصبحت تعود إلى الغابة (وسط البلد) بعد ذلك هادئة واثقـة مـن موتورهـا الصـغير وأقـدامها الأربعـة الهوائيـة الكاوتشكوكية.

هذه المرة زاغت من ميـدان الكونكـورد وجـرت علـى الشانزيليزيه ودارت مع شارل ديغول إتـوال حتـى وصلت إلى ساحة المايوه الكبيرة. توقفت فـي أدب أمام إشارة مرور حمراء مثلها. وقد راحت تطـرب مع شريط عمر الخيام لأم كلثوم وفجأة انفجر بصوت ارتطام من الخلف واندفعت رغما عنها متـرا بـأثر الضربة إلى الأمام فارتطمت مقدمتها بسيارة أخـرى ضخمة أنيقة وصرخت وخرجت من السـيارة لأرى خلفيتها قد تحولت إلى معجون أسنان قديم فـارغ... وتطلعت إلى مقدمتها فوجدتها كفم ملاكـم مهـزوم ينزف في مباراة خاسرة. الشيء الوحيد الـذي لـم يتغير هو صوت أم كلثوم فقد كان لا يزال يصـدح.

(يا حبيبي... الليلة.. نقول للشمس تيجي بعـد سـنة مش قبل سنة).

توقفت السيارات الثلاث وأصبحنا مشهدا مسليا للكثيـر مـن المارة وأصحاب السيارات الأخرى كأني نجم فاشـل علـى شاشة تلفزيون في برنامج سخيف. سيارتي مركز الاهتمـام والتسلية والضحكات من الفضولين والشامتين.

سيارتي معجونة أمامنا وأنا أيضا معجون الروح ولكن الحمد لست معجون الجسد.

أصبحنا نحن الثلاثة رقم ١٠١ مئة وواحد تحولت أنا بالطبع إلى الصفر في الشكل والمعنى. الأول الذي ضرب شـانتال من الخلف عملاقًا. والثالث الذي ضربها من الأمام عملاقًـا أيضا. مترفين أنيقين كان كل منهما ذاهب إلى حفل تتويج أو استقبال رسمي في الاليزيه سيارتاهما موديل أخيـر للرينـو (ستيشن).

تفرست في وجه الأول قال: لم أرك. قالها بلا مبـالاة ولـم تسبق الجملة كلمة باردون على أضعف الإيمان. أما الثالـث فقد كانت نظرته أقل قسوة وأكثر اهتماما قال لي كجنتلمـان

أرستقراطي سأكتب لك استمارة التـأمين وسـأوقع عليهـا لصالحك.

دفعنا شانتال بالأيدي حتى تقف على جانب الرصـيف فـلا تعطل حركة المرور وما هي إلا ثوان ويمر أمامنـا ونـش ضخم يحمل السيارات. ولم أصدق.. كـأن الحادثـة ملفقـة ومدبرة. سيارة تصدم أخرى وونش يأتي فـي ذات اللحظـة يتوقف صاحبه متطوعا ومقدما لي نفسه نحن في خـدمتك.. هل تسمح لي نأخذ السيارة سنتولى كـل شـيء. هـذا هـو عنواننا. قلت في نفسي هذه مافيا مشتركة ربما.

بعد ثوان لم أصدق نفسي (سبحان مغير الحال مـن حال إلى حال) أصبحت من ركـاب أنفـاق متـرو باريس بعد اختفاء شانتال.

* * *

## افتح يا سمسم

اكتشفت طابورا يقف أمام قمرة صغيرة وسط أحـد البنـوك الكبيرة في شارع الشانزليزيه... الطابور بطيء والناس هذه المرة سعداء... سعداء جدا... عندما يصل أحدهم إلى هـذه القمرة على جانب البنك يهمس أو يتحدث بطريقة صامتة... وثمة نافذة صغيرة تفتح من تلقاء نفسها كأنه قال كلمة السـر افتح يا سمسم... ويخرج أحدهم من الطابور وهو يترنح من السعادة يعد بعض أوراق البنكنوت في يديه ويختفي...

وقفت مرابطًا أتابع هذه العملية... اقتربـت أكثـر اكتشـفت ظاهرة واضحة كل واحد منهم يخرج بطاقة زرقاء معدنيـة تبرق بخطوط وأرقام ذهبية يضعها في عروة صـغيرة مـن هذه النافذة فتفتح له فجـأة في هدوء وكأنها مصباح عـلاء الدين "شبيك لبيك عبدك بين يديك أيش تطلب؟" ثـم تلمـس أصابعه بعض الأزرار وتخـرج الأوراق الماليـة وتعـزف القمرة لحنًا موسيقيا له إيقاع مميز ويستعيد صاحب البطاقـة بطاقته وينصرف وقد تهدهدت ملابسـه وانتفخـت أوداجـه وتوردت جبهته وطال أنفه في لذة وداعب بأصابعه طـرف شاربه وخصلة من الشعر على رأسه.

ما هي حكاية هؤلاء السعداء الذين يبدون أمامي كأنهم دخلوا الجنة وخرجوا منها حالمين؟

ومرت بي سنوات وأنا لا أعيرهم انتباها رغم غيظي المكتوم ففي القلب حسرة على عدم انتمائي إلى هذه الفئة المحسودة. رصيدي في البنك دائما يحاور الصفر كأنه سـباح مبتـدئ يطرطش بالماء أحيانًا يهبط تحت مستوى خط الماء وأحيانًـا يرتفع ولكنه على أية حال يصل سالما إلى الشاطئ.

وأتذكر كيف بدأت حسابي لأول مرة في البنك. كنت قد بعت لوحة ثمنها ألف فرنك فوضعت الشيك في حساب جديد. ثـم تلقيت خطابا بعد شهور من البنك يقول لي أنني أصبحت مدينًا للبنك بقيمة ألف فرنك وفي نهاية الخطـاب لهجـة التهديـد قائلاً... إن لم تسدده من خلال تاريخ قريب جدا فالويـل... كل الويل.

وذهبت فورا إلى البنك غاضبا فقابلتني الموظفة قائلة ربمـا يكون العقل الإلكتروني قد أخطأ فبدلاً من أن يضع الشيك في خانة البيع وضعها في خانة الديون وهذه الحادثة تحدث مرة في الألف.

خرجت من البنك متعجبا ومتسائلاً.... المرة التي في الألف تحدث معي أنا الذي لا أملك سوى هذا الرقم الواحـد أمـام الثلاث الأصفار وهو أصغر رقـم لبدايـة حسـاب جديـد. (تذكرت الممثل نجيب الريحاني الذي قال عن نفسـه أن أول جنيه كسبه كان مزيفًا) منذ ذلك الوقت وأنا معقد من البنوك. أرتاب وأسير في حرص عندما أدخل بنكًا وإذا أودعت مبلغًا أسير في المساء وبعد منتصف الليل وأقوم بدورة حول البنك كأني شرطي أو حارس راجيا ألا يكون هناك عملية سـطو على البنك فتضيع فرنكاتي القليلة التي أحفظها هنا.

إلا أنني بعت لوحة جديدة بعد فترة طويلة طويلة وأودعـت الشيك في البنك وسألتني السيدة هل تريد بطاقة زرقاء حتـى تستطيع أن تسحب أي مبلغ لمصاريفك اليومية من أي مكان لأي بنك في العالم؟ تلعثمت ثم قلت في رجفة مع فرحـة... طبعا.. ملأت استمارة أعطتها لي وقالـت: انتظـر البريـد يصلك بالرقم السري ورقم الكارت لتحضر هنـا لاسـتلامه حدث هذا في سرعة لكني عندما أخفيت الرقم السـري فـي مكان سري نسيت بعد أيام أين وضعته. أما الكارت فوضعته ضمن حافظة النقود في جلدة أخرى وألصقتها بقطعـة ورق

لاصق حتى لا يضيع حتى أني نسيت بعد أسابيع أني أحمـل هذا الكارت.

ومر على هذه الحال ما يقرب من العام تقريبا وعندما ساءت الأحوال والظروف ولعبت بأصابعي كمـا عـادتي بجيـب بنطالي أداعب تلك العملات الصغيرة التـي سأشـتري بهـا "عصا الخبز" اليومية المعروفة لم أجد سوى بعض السنتيمات التي لا فائدة منها. عدت وفكـرت فـي اسـتعمال البطاقـة المعدنية الذهبية الزرقاء. بحثت عنها بصعوبة وعـدت إلـى البيت أبحث أين وضعت رقمي السري. ضاعت أكثـر مـن ساعة في البحث حتى عثرت عليها وجريت إلى أقرب بوابة من بوابات "افتح يا سمسم".

وضعت البطاقة في الفتحة الصـغيرة ومـا أدري إلا وقـد ابتلعتها تماما ولم يظهر أي شيء سوى عبارة أمامي فهمـت منها (إننا نحتفظ ببطاقتك متأسفين).

وعدت إلى البنك الذي أتعامل معه ألهث وأصرخ وأبكي في أعماقي وصوتي يتحشرج وأنا أسأل الموظفة التي كانت دائما تبتسم لي عندما أوقع توقيعي المعروف بعين مفتوحة عـين حورس... هذه المرة لم تبتسم قالت لـي: بطاقتـك انتهـت

مدتها... لابد من تجديد البطاقة إنك لم تقرأ تاريخ نهايتهـا. خلال ثلاثة أسابيع ستصلك البطاقة الجديدة ولكن لابـد مـن انتظار البطاقة القديمة حتى نعدمها أو نمزقها حتى لا تستعمل مرة أخرى وهذا ربما يتطلب مدة أكثر من شهر لأن بطاقتك الآن ذهبت إلى إدارة اتحاد البنوك ثم تعود إلينـا. عليـك أن تنتظر.

وقررت من جديد أن أنسى هذا الموضوع مرة أخرى حتـى أرتاح. إلا أن مناظر طـوابير السـعادة فـي الشـانزليزيه والمونبارناس والحي اللاتيني أثارتني من جديد فأصبح لـي شوق من جديد حتى أنتمي إلى هذا العالم الجديد الذي يسـير بعقل إلكتروني وسحر غريب لا أفهمه تماما.

وعادت موظفة البنك تبتسم لي مـن جديـد بعـد شـهرين وتعطيني هذه البطاقة الجديدة الذهبية المعدنية.

وضاق بي الحال من جديد ذات صباح وحاولـت أن ألعـب بأصابعي في بنطالي لأعثر على تلك (الفكة) التـي تجعلنـي أدفع ثمن "عصا الخبز" الشهي من المخبز المجـاور وربمـا أيضا لأجد ما يكفي لثمن الفروج أو (الفرخة) التي أشـويها كل مساء لي ولأصدقائي من الزوار حتى أنهـم يـداعبونني

بتسميتهم لها (بهجوري تشيكن) على وزن (كنتاكى تشـيكن) أو (بوليه بهجوري) بالترجمة الفرنسية.

وصلت إلى الحلم بأن هذا الفروج المشوي أمـامي ومعـي أصدقائي فسال لعابي فمسحته بطرف قميصي كمـا الأبلـة وجريت من جديد أبحث عن رقمي السري في المكان السري الذي أخفيته هناك لكني هذه المرة لم أعثر عليه إطلاقًا. فـي كل مرة أغير المكان فيتوه وأتوه معه.

اعتمدت على ذاكرتي (الضعيفة) وذهبت إلى أقرب قمرة أو نافذة بنك وضعت البطاقة فسألني الجهاز مرة أخرى في أدب من فضلك هل من الممكن إعادة رقمك السـري الخـاص. فأعدته من جديد فعاد وسألني مرة ثالثة بذات الأدب... هـل من الممكن إعادة الرقم من جديد: فأطعته وفوجئت بالإجابة: نأسف لعدم إعادة البطاقة لك مع السلامة وأغلقـت سـاعتها الدنيا أمامي وأظلمت الحياة وكأني تحت سماء مـرت بهـا غيوم كثيرة سوداء وانتظرت اليوم التالي حتى أسأل موظفـة البنك التابع لي من جديد ماذا أخطأت؟ ومـاذا أفعـل؟ هـل أنتظر شهرين مرة أخرى؟ وكأني أصرخ بالبلدي "فلوسي يا عالم.... يا هوه!!".

عدت للمرة الثالثة بعد أسابيع أستعيد بطاقة اللجنة الوهميـة وقالت لي الموظفة ساعتها لقد أخطأت في رقمـك الخـاص السري رغم أنك استعملت ذات الأرقام ولكن بدلاً من اليمين بدأت من الشمال فأصبحت معكوسة.

عنيد هذا البهجوري، فأنا مـن أقاصـي الصـعيد وأهلـي الصعايدة البهاجرة كلهم عنيدون... أصررت هذه الثالثـة أن أذهب وقد كررت على لساني عن ظهر قلب طيلة الصـباح الرقم الصحيح حتى أني اكتشفت أنهم يضـحكون منـي أو حولى في متروالأنفاق وأنا أردد الرقم في سري ولكن حركة الشفاه كانت واضحة. وصلت إلى أقرب نافذة لأضع البطاقة وأصبحت أنطق الحروف بصوت عال وتذكرت أنـه رقـم سري لا يباح به جهرا فهمست وأخفيت بكتفي القمرة التـي أمامي وقد نجحت... لقد خرجت لـى ورقتـان مـن أوراق البنكنوت الملونة المزهزهة بالتفاصيل ولوحة فولتير أمـامي يبتسم لي بشعره المستعار الفضـي... ولـم أدري إلا وقـد رفعت يدي اليمنى وبها البطاقة وهي تزغرد خارجـة مـن فتحتها بينما أمسكت بيدي اليسرى الأوراق الملونة الذهبية... وانحنيت على الطريقة اليابانية الصينية وضربت تعظيم سلام

على الطريقة المصرية، وسمعت نفسي أقول بصوت عـال للجهاز السحري: متشكر.. ثم لحظت خلفي طابور الفرنسيين فقلتها بفرنسية صحيحة هذه المرة مرسيه بوكوووه فضحكنا.